ستيفن غروبارد

حرب السيد بوش

ياسات الوهم



خالد أيوب
عبد الرحيم الفزّا
مراجعة: علي رمان

الأهلية للنشر والتوزيع

ستيفن غروبارد

حرب السيد بوش

مغامرات في سياسات الوهم

ترجمة:
خالد أيوب
عبد الرحيم الفزّا
مراجعة: علي رمّان

الأهلية للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

الكتاب: حرب السيد بوش

المؤلف : ستيفن غروبارد

ترجمة : خالد ايوب

عبد الرحيم الفرّا

مراجعة : علي رمان

الناشر : الأهلية للنشر والتوزيع

عمان - الأردن

ص. ب ٧٧٧٢

ت: ٦٥٧٤٤٥ - ٦٣٨٦٨٨



مقدمة الترجمة

لن يجد قارىء هذا الكتاب كثيرا من العناء ليكتشف ما يرمي إليه «غروبارد»، لقد لخص المؤلف هدفه كاملا في عنوان الكتاب فسمّاه «حرب السيد بوش». . ولكن هل كانت هذه الحرب هي حقا حرب السيد بوش؟ وهل كانت هذه الحرب من بدايتها حتى نهايتها قصة إخراجها للتلفزيون؟

يُجهد المؤلف نفسه في إسقاط كل ما يجري وتحميله لبوش شخصيا، ويحاول إقناع قرائه بأن بوش تصرف بشكل رئيس بدافع الحرص على مستقبله السياسي وحزبه الجمهوري، ويقارن غروبارد بين هذه الحرب؛ حرب الخليج وغزو غرينادا أيام ريغان، وغزو بنما أيام بوش نفسه. . وهنا نتساءل فيما إذا كانت هذه المقارنة موضوعية. .

عندما يُحشد نصف مليون جندي أمريكي في الصحراء العربية. . وعندما تحشد الآلة البحرية الهائلة في مياه العرب، وعندما يحذر وزير الخارجية الإسرائيلي بمهاجمة العراق إذا لم تقم أمريكا بإخراجه من الكويت وتدمير قوته العسكرية عند ذلك كله يتضح مدى مجانبة المؤلف للصواب في طرح «قضيته» على النحو الوارد في كتابه.

في رأينا أن الكتاب ذو وجهين؛ أحدهما للمواطن الأمريكي في محاولة واضحة. . تسبق الانتخابات الأمريكية، والآخر للعرب الذين يفترض فيهم ضعف

الـذاكـرة . . والذكاء . . ليعتقدوا أن أمر يكاد الغرب غير متورطين في إجهاض أية مشاريع نهضوية لهذه الأمة . . وليبقى الساذجون حائرين في هذه الحرب ؛ هل هي حرب الخليج . . أم حرب تحرير الكويت . . أم حرب السيد بوش .

علـي رمـان

٣١ - ١٠ - ١٩٩٢

مقدمة الكتاب

كانت بدايةُ العمل بهذا الكتاب في لندن في تلك الأيام الحارة والطويلة من أوائل شهر آب عندما غزت القوات العراقية الكويت واحتلتها، وحينئذ ظهرت رئيسة الـوزراء البـريطانية في مؤتمر صحفي مع الرئيس الأمريكي جورج بوش في ولاية كولـورادو، وسمعت بوش يصف التصـرف العـراقي بأنه «عدوان سافر». وتحدث كلاهما عن إمكانية اتخاذ إجراء اقتصادي مضاد أو حتىٰ عسكري تحت رعاية منظمة الأمم المتحدة. ودل ردًّا فعليهما العنيفان أن هناك شيئا ما أكثر أهمية من الدفاع عن القـانـون الـدولي أو حماية مصلحة اقتصادية حيوية ـ الحصول علىٰ نفط الشرق الأوسط بأسعار معتدلة ـ وأنه معرض لخطر جدي. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الأداء الهزيل للرئيس بوش خلال الثمانية عشر شهراً الأولىٰ من استلامه الحكم، إضافة إلىٰ المشـاكـل الاقتصادية والاجتماعية التي تواجهه باستمرار، فلا ريب أن الغزو العراقي كان بمثابة عامل تحول تم الترحيب به علىٰ أساس أنه سينأىٰ بالنفوس عن المشاكل المحلية المستعصية علىٰ الحل.

قضىٰ بوش ثمانية أعوام يخدم إدارة الرئيس ريغان بإخلاص وصمت، فعلمته هذه السنون أشياء كثيرة، ومنها علىٰ الأقل أمور متعلقة بمارغريت تاتشر التي حصلت علىٰ مكانة بارزة جديدة في وطنها وعلىٰ سمعة عظيمة في الخارج بسبب جرأتها في مواجهـة الاعتـداء الأرجنتيني علىٰ جزر الفـوكـلاند، والأعظم علىٰ الأقل بالنسبة للرئيس بوش الذي لـم يخفق أبداً في تقييمه لأوضاع قوائم الناخبين ـ أن تلك الشهرة قد ضمنت لها دورة رئاسية جديدة لمجلس الوزراء في المبنىٰ رقم (١٠) في شارع

داوننغ ستريت. وقامت شهرتها علىٰ أنها إمرأة شجاعة وصاحبة مبدأ، وخرجت من محنة جزر الفوكلاند تحيط بها هالة النجاح الدائم في تدبير أمورها بحيث لم يسبق لها أن تعرضت لخسارة أبداً.

ولكن، هل الحملة العسكرية علىٰ جزر الفوكلاند قابلة للتكرار علىٰ مسرح أحداث عالمي أكبر مساحة وأكثر وضوحاً، مفترضين وجود منافع مكافئة لصالح الولايات المتحدة ورئيسها الجريء؟ لقد زعم الرئيس العراقي صدام حسين، وهو مؤيد رئيسي للسوفييت في الشرق الأوسط، وتفاخر بأن لديه مقدرة عسكرية أعظم بكثير مما ادعاه الزعيم الأرجنتيني آنذاك ليوبولدو غالتيري عام ١٩٨٢، غير أن الإجراءات البريطانية الحاسمة أزالت أية فائدة أولية كسبها المعتدي وتمتع بها. وأدركت مارغريت تاتشر أن أحداً لن يتدخل لمساعدة الأرجنتين، فحققت النصر بكلفة قليلة وبوقت قياسي إذا أخذنا بعين الاعتبار المسافات بين البلدين. ومن العسير إثبات مدىٰ تأثير تاتشر علىٰ أعمال الرئيس اللاحقة، ولكن نجاحها في كسب حرب صغيرة محدودة وبارزة والتي كان لها مفعول مباشر علىٰ عملها السياسي المستقبلي، لا بد أنه أثر علىٰ الرئيس بوش.

ومن دون وجود وزير الخارجية إلىٰ جانبه ـ ولا حضور مستشار أمريكي رئيسي ـ اتخذ بوش قراراً بالغ الأهمية ولا ينطوي علىٰ مخاطرة، إذ قرر عدم استرضاء حاكم دكتاتوري معتد، وقرر ـ وهو من مواليد الثلاثينات ـ عدم السماح باستمرار الغزو العراقي للكويت. وبذلك، يتوجب علىٰ صدام حسين سحب جيوشه وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن التي أقرت وصيغت بسرعة كبيرة، وإلا سيواجه مصاعب اقتصادية شديدة، بل ربما اضطراب اقتصادي، نتيجة تطبيق نظام عقوبات دولية صارمة ضده. وفي تلك الفترة، جمعت قوة عسكرية أمريكية علىٰ عجل وأرسلت علىٰ جناح السرعة إلىٰ المملكة العربية السعودية بهدف الدفاع عنها. كان بوش يدرك منذ وقت باكر جداً أنه لن يتعرض للخسارة بنفسه مهما كانت العواقب،

فاتخذ موقفاً مماثلاً لموقف تاتشر والذي اتخذته قبل عقد من السنين، معرضة بذلك نفسها إلىٰ مجازفة سياسية كبيرة وحقيقية.

لقد علم بوش أن النصر سيكون حليفه إذا انسحب صدام حسين من الكويت ـ وهو ما لم يفعله رئيس الأرجنتين غالتيري ـ أما إذا ارتكب صدام حماقة باختياره عدم الانسحاب وكان من الضروري تنظيم حملة عسكرية لطرده من الكويت، فستحقق القوات الأمريكية نصراً سهلاً مثلما حققه البريطانيون في جزر الفوكلاند. وكان بوش متأكداً من حصوله علىٰ المساعدة العسكرية البريطانية مقابل المساعدة الأمريكية السرية لبريطانيا في حرب الفوكلاند، فهو يعرف تاتشر تمام المعرفة. والأهم من ذلك ثقته آنذاك بأن الاتحاد السوفييتي لن يجازف بالتدخل رغم صداقته الطويلة مع العراق بسبب انشغاله بالمشاكل المحلية السوفييتية المستعصية الحل.

وخلا قرار إدانة غزو الكويت وحشد القوات الأمريكية للانتشار السريع في الخليج من المجازفة والخطر. لكن فن السياسة تطلب من الرئيس أن يتظاهر بعكس ذلك، فلولا أن هذه العملية اعتبرت آنذاك محفوفة بالمخاطر لتم التقليل من قيمة الانتصار الأمريكي عند تحققه ولنظر إليه كمسألة ثانوية، وهذا ما حصل طبقاً لما صوره أصدقاؤه، إذ تمثل بوش طبائع ونستون تشرشل فأصبح تشرشل عصريّاً في خياله الخاص الخصب، وفي صمته وامتناعه عن التعبير عما يدور في داخله. وتظاهر بأنه أخذ علىٰ عاتقه القيام بالدور الكبير: لقد كان يغامر بكل شيء؛ بما فيه أثمن شيء وهو إعادة انتخابه؛ من أجل ردع العدوان، ولينفذ ما فشلت به الأنظمة الأوروبية الديمقراطية في الثلاثينات من هذا القرن حيث بلغت ذروة العار والانهيار. وجاء انتحال بوش لعباءة تشرشل وفقاً لاستراتيجية سياسية خططها ودرسها بدقة.

كان يتوجب علىٰ بعض أعضاء الحزب الديمقراطي في الكونجرس [البرلمان] الأمريكي أن يسخر من قناع بوش لمعرفتهم بحقيقته، وتوجب أيضاً علىٰ مسؤول يعمل في ميدان الصحافة والشبكات التلفزيونية الإخبارية أن يميز تناقضات الساتر

الذي يختبىء بوش خلفه. ويكشف هذا العجز والقصور عن قلة الأشخاص الذين يعلمون حقيقة جورج بوش؛ ابن السياسة والوريث المختار للرئيس رونالد ريغان. وبالرغم من عدم تفكيره بولوج ميدان هوليوود السينمائي ـ فقد كان يعتبر نفسه وحسب مفهومه علىٰ الأقل أنه أحد رجال النفط في تكساس ـ فقد تعلم الشيء الكثير من مراقبته أحد الممثلين أثناء ممارسته التمثيل في البيت الأبيض. إن التظاهر بكونه ونستون تشرشل آخر، إضافة إلىٰ إبراز صدام حسين وكأنه أدولف هتلر آخر، احتاج إلىٰ تلفيق شيء ما مزيف يناسب مستوىٰ المعلم المتفوق في هذا الميدان. وكان من الواجب أن يقوم أحدهم بالتنبيه وانتقاد سوء ذلك العمل الذي بالغ كثيراً في صفات صدام إلىٰ أن ابتعد عن خصيصة التمييز الصحيح لدىٰ تشرشل.

وخط بوش لنفسه صورة مشوهة تخالف ما فعله تشرشل، إذ لم يقاوم بوش مطلقاً دكتاتور العراق في السنين الماضية، فظهرت بلاهة التفكير بأن الرئيس يستطيع بين عشية وضحاها جعل صدام عدو الديمقراطية الرئيسي. لم يعرف بوش أبداً حقيقة دكتاتور العراق حق المعرفة، ولم يحذر دولته منه طيلة ثمانية أعوام بوصفه نائباً للرئيس ثم تلاها فترة ثمانية عشر شهراً بوصفه رئيس الولايات المتحدة. والواقع أنه لم يفهم صدام، ثم كيف كان سيتسنىٰ له معرفة صدام في حين لم يملك معلومات وافية حول الشرق الأوسط أو أي مكان آخر؟

ويطرح السؤال التالي: هل من المحتمل أن يتبنىٰ أحد الأجيال القادمة هذا الرأي عندما يستعرض عهد ريغان ـ بوش، فيسخرون من «الحروب الصغيرة البارزة» ضد أعداء ثانويين بالغوا في تقدير ذاتهم ليظهروا بحجم أكبر كثيراً من حجمهم الحقيقي؟

إن الأعمال العسكرية تلك تحقق الرضاء والارتياح في الوطن: فهي أعطت انطباعاً زائفاً عن عمل حاسم يقوم به رجال لا يريدون السكوت عن الزعماء المتسلطين وغض الطرف عنهم، وكررت ـ بصورة تخيلية ـ مآسي ومسرحيات

الثلاثينات من هذا القرن، وحولت انتباه الشعب عن الأزمات والفرص المتاحة في الثمانينات والتسعينات. وكانت معلومات الرئيس بوش شحيحة مثل سلفه ولم يعرف الكثير عن العالم، وكان لديه جهل مطبق فيما يتعلق بمشاكله وتعقيداته، فتسبب في إحراز مكسب سياسي مؤقت لنفسه ولحزبه وادعىٰ أنه مكسب وطني ودولي، ثم أخذ ينشره بهذه الصيغة.

كانت أقلية ضئيلة قد طلبت إجراء استفسار ومساءلة حول سياسة بوش في إرساله قوات عسكرية إلىٰ الخليج العربي ـ والشعار «لا حرب من أجل النفط» ـ وقدمت التماساً بذلك تبعه بعد أشهر قليلة مطلبٌ أشد إلحاحاً، وخاصة فيما يتعلق بالكونجرس، من أجل إعطاء فرصة للعقوبات المفروضة علىٰ العراق حتىٰ تأخذ مفعولها. لكن هذين الرأيين العاطفيين فشلا تماماً في استجلاء الوضع السياسي آنذاك وفي فهم تفكير بوش أو نواياه علىٰ حدٍ سواء، ولم يدخلا في الاعتبار ذكرياته أو تجاربه كرجل سياسي.

وساهمت وسائل الإعلام في زيادة غموض وملابسات الوضع، فتعاملت مع القضايا المختلفة إما كالقضايا التي صاغها البيت الأبيض وحددها خصيصاً لتتداولها الصحافة أو كقضايا تخيلها رجال الصحافة كل بطريقته الخاصة. وحذر أحد المعلقين بنفس لاهث من أكياس الجثث التي ستجلب تباعاً إلىٰ الوطن، وقد ظهر بأسلوبه الاعتيادي المثير والكثير الصخب يوم الأحد ـ وهو علىٰ شاكلة العديد ممن ينتمون إلىٰ نفس طبقته ـ فتحدث بلغة عكست تفكيراً صاغته كلية أحداث التجربة الأمريكية في فيتنام، لكنها لم تعكس شيئاً بالغ الأهمية مثل حرب تاتشر في الفوكلاند. وقد أضاعوا فرصة نشر القصة الوحيدة المجدية عندما اهتموا بأمر ليندون جونسون باستمرار، في حين كان من الأفضل التركيز علىٰ رونالد ريغان وتابعه المخلص جورج بوش.

أما أولئك الصحفيون والساسة الأمريكيون المتخبطون في ظلمات القرون

الوسطىٰ والذين قالوا بأن أذىً وضرراً لحق بهم بسبب حرب فيتنام، فقد فشلوا في اكتشاف الفرق بين الأدغال والصحراء، وبين عدو يتلقىٰ دعما مستمراً وعدو ليس بإمكانه الحصول علىٰ الإمدادات المطلوبة، وبين عملية حربية علىٰ غرار حرب العصابات وعملية تحاصر الجيش العراقي وحرسه الجمهوري المزهو بنفسه في مواضع ثابتة علىٰ طول جبهة مهلهلة ضعيفة تشبه خط ماجينو هزيل، فيبقىٰ منتظراً أحدث الأسلحة المتطورة لتضربه من الجو.

هل يدل كلامي أن بوش تصرف بشكل رئيسي بدافع الحرص علىٰ نفسه وعلىٰ مستقبله السياسي وحزبه الجمهوري؟ الجواب هو نعم، إذ لا يوجد شك في أن الرئيس بوش حدد وعرف ما يريد منذ ٢ ـ آب ـ ١٩٩٠. فإن انسحب صدام من الكويت لحقق بوش انتصاراً سياسياً، أما إذا رفض الانسحاب وبقي في الكويت فسيضمن بوش انتصاراً سياسياً وعسكرياً في آن واحد، وسيثبت أنه رجل يتحدىٰ المخاطر ويفي بوعده مقرناً القول بالعمل.

وتكمن عبقرية بوش السياسية في إصراره علىٰ أن الحرب ستكون صعبة وذات خطورة متزايدة، ولكنه مع ذلك يضمن الفوز والانتصار في نهاية المطاف. وكانت الحقيقة السائدة آنذاك أن الفوز سيكون سهلاً نوعاً ما، لا بل يجب أن يكون سهلاً إذا أخذنا بعين الاعتبار الاختلافات في المعدات العسكرية ودرجة القوة بين الخصمين. ومما دل علىٰ زيف هذه الحرب هو بالضبط عدم الطلب من الآخرين الاستعداد لها باستثناء بضع مئات الآلاف من الرجال والنساء الذين أرسلوا للمشاركة في المجهود الحربي في الخليج.

وبدت الحرب لفترة من الزمن أنها لن تكلف شيئاً البتة أو ستكلف القليل القليل، إذ كان الأمل معقوداً علىٰ الأعضاء [المتحالفين] مع الإدارة الأمريكية في دفع معظم تكاليف الحرب. وبذل جهد عظيم للتأكيد بأن الأمريكيين لم يتحولوا إلىٰ مرتزقة يتقاضون أجرهم من السعودية، حتىٰ ولو ظهرت السعودية كأكبر ممول رئيسي

للحرب. وعلىٰ كل الأحوال، كانت هذه المسألة أمراً ثانوياً بالنسبة إلىٰ هدف رئاسي أكبر. وقد لجأ بوش عندما حشد الشعب من ورائه إلىٰ السماح للكونجرس بإثارة الاعتراضات التافهة والانتقاد بألفاظ قاسية، ولدرجة تبرزه أحياناً بأنه يعيق تنفيذ خطط بوش العسكرية المعدة جيداً. وأدرك الرئيس أن هذه التحولات غير خطرة، إذ أن اتهام أعضاء الكونجرس المتصلبين باللاوطنية سيجعلهم لا يفوزون بأكثر مما فاز به أعضاء البرلمان البريطاني الذي كان يظن أنهم سيقفون في وجه مارغريت تاتشر.

من المعلوم أن جورج بوش من الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية، وبالرغم من ذلك لم يفهم حقيقة العالم الذي شكلته هذه الحرب أو الحرب الباردة التي تلتها. كان مطلعاً علىٰ بعض معالم سياسة الحرب الباردة بالقدر الذي عكست فيه التنافس الأمريكي السوفييتي، فلم يدرك كيف يتصرف عندما تلاشت حقبة المنافسة الأمريكية - السوفييتية بصيغتها القديمة. وبسبب تعاطفه مع الحزب الجمهوري وقلة خبرته في الحياة لم يفهم حتىٰ شخصية الرئيس فرانكلين روزفلت - كما فهمها رونالد ريغان في أول فترة بلوغه التي تأثرت بالكآبة والتعاسة - فعاش بوش في أجواء العاطفية والمثالية التي تخلقها صناعة السينما في هوليوود في أفلامها الحربية. ومثله مثل العديد من الأمريكيين من الحزب الديمقراطي أو الحزب الجمهوري، كان تشرشل بطله المفضل في الحرب العالمية الثانية؛ ذلك الرجل الذي أوقف هتلر عند حده ولم يسترضيه أبداً.

والإعجاب بتشرشل بالنسبة إلىٰ الفرد الأمريكي هو اتخاذ موقف مأمون تماماً، وإن لم يوافق المرء علىٰ كل سياساته وخاصة فيما يتعلق بالإمبراطورية. وهذا الموقف يجنبك الدخول في نزاع مع الآخرين. وبالرغم من الطريقة التي انتهجها بوش في الاستفادة من سيرة تشرشل وتظاهره أنها تمت له ببعض الصلة؛ فقد أظهر براعة وحنكة سياسية، وطمعاً في تحقيق مكاسب انتخابية، ودهاءً في اتباع الأساليب غير المستقيمة.

إن رجل الدولة الذي يثير حرباً يحتاج دوماً إلىٰ التفكير بالسلام الذي سيحل بعدها، بيد أن بوش أثبت ضعفه وقصوره في هذا المجال، إضافة إلىٰ مجالات أخرىٰ كثيرة. ولم يعرف متىٰ يجب إيقاف الحرب ولا كيفية إدارتها لتحقيق أهداف أشمل ولها مبررات دفاعية أخلاقية أقوىٰ. وكان اهتمامه حسب ما اكتسبه من خبرته المحدودة جداً منصباً علىٰ تجنب خطر تعرض الجنود الأمريكيين للقتل في شوارع بغداد علىٰ غرار ما حصل لرجال البحرية الأمريكية في ثكناتهم في بيروت عام ١٩٨٣ حيث قتل منهم (٢٤١) جندياً.

ولم يكن لدىٰ الرئيس فكرة عن التسوية التي يمكن إيجادها في الشرق الأوسط، وتخيل وزير خارجيته البريء أن باستطاعته الضغط علىٰ إسرائيل ودفعها للجلوس إلىٰ طاولة المفاوضات ومن ثم تقوم في نهاية الأمر بإعادة الأرض إلىٰ أصحابها العرب مقابل الاعتراف الدبلوماسي بها، لا سيما وأن ضغط الدول المتحالفة عليها سيكون شديداً لا يقاوم. وبالغ الرئيس ووزير خارجيته في تقدير سلطتيهما، إلا أن الأسوء من ذلك كان تقليلهما من تعقيدات الوضع في الشرق الأوسط حيث أن لإيران دوراً هاماً مثل إسرائيل، وحيث التنافس الحاد بين الدول العربية من جهة وفيما بين الدول الإسلامية من جهة أخرىٰ وما تبعه من إيجاد التحالفات ونقضها، وحيث العنف القومي والديني والعرقي بالكاد يكون أقل حدة وتفشياً منه في العديد من مناطق العالم بما فيها الاتحاد السوفييتي وأوروبا وآسيا وإفريقيا.

وتمثل الفشل الأكبر بحرب الخليج التي كانت حرباً فارغة، إذ لم تحل أي مشكلة ولم تسو أي قضية. إضافة إلىٰ ذلك، كانت هناك حرب أخرىٰ أكثر واقعية في طريقها إلىٰ الانتهاء بعد أن أكد الرئيسان السوفييتي والأمريكي أن الحرب الباردة قد انتهت. ولكن.. هل صدق بوش ما صرح به؟ هل استوعب الخيارات التي خلفها انتهاء الحرب؟ وهؤلاء الملتفون حول الرئيس بوش والذين يتجاذبون أطراف الحديث حول لعبة كرة الدبابيس والكرة الصعبة والكرة الناعمة، وأيضاً حول رمي الكرات

السريعة بمسار منحنٍ، والرميات البطيئة، والميلان بأسلوب ما يتبعه أسلوب آخر؛ هل كان لديهم والرئيس أية انطباعات وأفكار تتعلق بسمة مرحلة ما بعد الحرب الباردة التي تحدثوا عنها؟ وهل باستطاعة من يعتريه نقص شديد في معرفة التاريخ، بما فيه تاريخ القرن العشرين، أن يقيم سلاماً عادلاً ودائماً؟ هل كانوا سيعرفون كيف يبدأون مثل هذا العمل الذي يتطلب جهداً ضخماً، وهم مدركون في الوقت نفسه أنه ربما لا يسير علىٰ نفس الأسس والأهداف المحدودة التي وضعت أول مرة إبان فترة رئاسة نيكسون، عندما تولىٰ بوش منصب سفير الولايات المتحدة في الأمم المتحدة؟

هذا الكتاب، حرب السيد بوش (وهو تفسيري الشخصي لحرب الخليج)، مدين بقدر كبير إلىٰ ونستون تشرشل وجون مينارلد كينيس، ذلك أن كتبهما قادتني للبدء بأبحاث ربما لم أكن لأعتمدها وأصل إليها، ودفعتني للتفكير بموضوع الحرب والسلام. والأهم من ذلك أن كتبهما ساعدتني علىٰ إدراك سبب ضرورة وجود العاطفة لدىٰ الكاتب الذي يرغب في التعليق بأي مستوَىٰ من الصدق والإنصاف كان علىٰ القرن العشرين المأساوي الذي نعيش فيه.

ويتيح لي إهداء الكتاب تحت عنوان «من أجل جيل جديد» أن أشكر ابنيَّ الإثنين ويليام وديفيد اللذيْن ساعداني بطرق عديدة لم يشعرا بها كلها، ومن المفرح أنهما من الجيل الجديد. كما يتيح لي القول بأن زوجتي مارغريت كانت وما تزال مرشدتي وناقدتي الرئيسية، فقد جنبتني التساهل في قبول تفسيرات أولئك الذين يبدون اهتماماً قليلاً بالأمور الجدية. وليس هدفي تتبع أخطاء وعورات الرؤساء، وإنما إبداء الحزن والأسىٰ علىٰ أمة يتباطأ نموها ويزداد تدهورها؛ أمة ضلت الطريق فيما يتوجب عليها البحث عنه من أجلها ومن أجل الآخرين.

الإستراتيجية السياسية

ارتدىٰ الرئيس بوش منذ أوائل آب عباءة ونستون تشرشل راغباً في الظهور كزعيم أمريكي يرفض التعامل مع الدكتاتوريين ومجاملتهم. وكان أسلوبه هذا تنكراً بارعاً استغل بمهارة للحصول علىٰ مكاسب سياسية هائلة. ولم تعجب بوش فكرة مقارنة نفسه علناً برئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر التي تملي عليه وقف الاعتداء العراقي مثلما وضعت تاتشر قبل عشر سنوات حداً للغزو الأرجنتيني لجزر الفوكلاند، إضافة إلىٰ أن أعمال تاتشر نادراً ما تلقىٰ قبولاً واسعاً لدىٰ الشعب الأمريكي. أما تشرشل فكان بالنسبة للأمريكيين ولبقية العالم شخصية أسطورية؛ رجلاً لم يتساهل أبداً مع خصم هائل القوة فألحق بهتلر ونظامه البغيض هزيمة نكراء. وكانت مقارنة المرء نفسه برجل كهذا تعني تحقيق جميع نزوات النفس والوصول إلىٰ مركز سياسي مرموق لا يستطيع أحد الشك فيه أو الحط من قدره.

ودفعت كلمات الرئيس بوش ضمنيا إن لم يكن صراحة إلىٰ إجراء هذه المقارنة. وتطلب السيناريو السياسي الذي وضعته إدارة بوش العمل علىٰ إظهار النظام العراقي مكافئاً للنظام الألماني النازي الفاسد، وتشبيه صدام بهتلر جديد وبوش بتشرشل الشجاع الرافض استرضاء الأشرار. وتطلب التواضع أن يشار إلىٰ التشبيه الأخير بشيء من الهدوء والسرية، إلا أن بوش أشار باستمرار في أحاديثه العلنية إلىٰ الحرب الألمانية الخاطفة وإلىٰ دكتاتور كذاب خدع العالم مثلما خدع هتلر أوروبا. وهكذا تم تحويل صدام إلىٰ هتلر عربي، وتشبيه العراق بألمانيا النازية في الثلاثينات مع أن العراق دولة بائسة تشتري كميات هائلة من السلاح بالمال الذي تحصل عليه من

عائدات النفط الكبيرة. وقد تم تجاهل حقائق كثيرة كحقيقة أن صدام لم يتمتع أبداً بتحقيق انتصارات كالتي حققها هتلر من دون عناء يذكر في الثلاثينات من هذا القرن عندما استولىٰ علىٰ دولتين مستقلتين وذواتا سيادة هما النمسا وتشيكوسلوفاكيا مستخدما الحيل السياسية والمهارة الدبلوماسية، وما هذا العمل إلا غيض من فيض. وعلىٰ نفس الشاكلة، تجاهل المعنيون غزو العراق للدولة الإسلامية إيران مما أدىٰ إلىٰ حرب مدمرة استمرت ثمانية أعوام وانتهت من دون حسم.

لم يحقق صدام حسين أبداً أي نجاحات عسكرية يمكن مقارنتها بنجاحات هتلر، ولم يشن صدام حرباً مثل الحرب الخاطفة النازية التي أجبرت دولتين هما بولندا وفرنسا علىٰ الاستسلام في غضون أسابيع بالرغم من أنهما كانتا تعتبران من الدول ذات القوة العسكرية المتميزة. وقد ظهر العراق وكأنه يتزعم قوة عسكرية مرعبة بسبب مخزونه من الأسلحة الكيماوية التي استهلكت مؤخراً وبسبب ذيوع صيت قدرته علىٰ إنتاج الأسلحة الجرثومية، ناهيك عن شهرة قوته الجوية والحرس الجمهوري.

لقد كانت حجة سياسية ملائمة تماماً وحبكت بأسلوب يثير الإعجاب، حتىٰ أن الرئيس بوش ظن أنها متقنة تماماً ولا يستطيع أحد التقليل من شأنها. كان التنكر والتمثيل رائعين في ذلك المسرح السياسي، غير أنه لم يمت إلىٰ الحقيقة بصلة ـ إذ لم يدرك أحد ماذا وراء مفهوم «استرضاء العدو» الذي ألحق ضرراً بالعملية السياسية الأمريكية عن طريق أداء مسرحي أكثر رقيا وصفاقة، ألا وهو أداء معلم جورج بوش وناصحه الأمين رونالد ريغان. فالاسترضاء بِعُرفهما خدعة سياسية تقليدية حسبت بدقة في المقام الأول من أجل ضمان فوز الرئيس في انتخابات عام ١٩٩٢.

وسبق لونستون تشرشل أن أشار إلىٰ أنه لم تكن هناك «حرب يسهل إيقافها أكثر من تلك التي دمرت ما بقي من العالم عقب الصراع السابق»، وقد تكلم عن الحرب العالمية الثانية بطريقة لم يستطع بوش أبداً التكلم بها عن الغزو العراقي للكويت أو

عما خطـط هو وحلفاؤه لتنفيذه إذا لم ينسحب صدام من الكويت قبل ١٥ ـ كانون الثـاني ـ ١٩٩١ . والسبب هو أن الـرئيس بوش والعـديد من حلفائه كانوا أنفسهم مسؤولين عن إيجاد صدام وتسليحه والسماح له طوال عقد من السنين بقتل الأكراد والعراقيين والإيرانيين، وآخرين غيرهم.

ويعتبـر تشـرشـل مسؤولا عمـا حدث لجيل كامـل من الـزعمـاء السياسيين الـديمقـراطيين ليس في المملكـة المتحـدة فقط وإنما أيضاً في فرنسا والولايات المتحدة، غير أنه تجنب الانسياق وراء الإغراء المتمثل في عزو نجاحات هتلر إلىٰ مؤامرات مجموعة صغيرة من الرجال (والنساء) الذين اجتمعوا عند نهاية كل أسبوع حول (تانسي آستور) في كليفيدن، أو في عزوها إلىٰ جماعة من المثقفين المقتصرة علىٰ الذكور والتي تجتمع دورياً لشرب الخمر البرتقالي الأصل في منطقة أول سولز في أكسفورد من أجل تقديم النصح والمشورة إلىٰ رئيس الوزراء ووزير خارجيته. لقد علم تشرشل بسر كان يريد البوح به، وهو أن اللوم في ما قام به هتلر يقع علىٰ جميع الذين قادوا الأنظمة الديمقراطية خلال الثلاثينات ـ والتي أطلق عليها اسم «سنوات الجـراد» في ترتيبـه للأحداث التاريخية ـ إضافة إلىٰ الذيـن قبلوا الانضواء تحت قيادتهم من دون أدنىٰ تمييز وتمحيص.

لقد صرح تشرشل بهذه الأمور معتمداً علىٰ مكانته المرموقة وموقعه القوي، إذ لم يكن لديه ما يُخيفـه ولا يتحمل هو أخطاء الثلاثينات. ففي عام ١٩٢٩، طرد تشرشل من المكتب السياسي عندما شكل حزب العمل الحكومة، وبقي خارجها حتىٰ بعد دخول حزبه حزب المحافظين في الحكومة الوطنية عام ١٩٣١. وطوال شغله منصب عضـو برلمـاني بديل مدة عشـر سنين عنـدما كان حزبه مشتركا في الحكومة، لم يكن من السهل تمييز تشرشل فيما إذا كان أبرز وزير سابق من حزب المحافظين أم وزير سابق للخزينة البريطانية. وكان تأثير تشرشل معدوماً لكنه اكتسب شهرته المتواضعة عن طريق مقدرته علىٰ تحريك عدد قليل من الشبان من خلال

بلاغـة كلامه وقوة حجته. وغدا صاحب الصوت الوحيد في مجلس العموم الذي ينادي مبكراً ليحذر مما كان هتلر يخطط له وليبين سبب ضرورة تحرك بريطانيا.

وتبدو صحة القول المأثور عن ماركس بأن التاريخ يعيد نفسه علىٰ صورة مأساة أولاً ثم ملهاة ثانياً، وذلك عندما نقارن تلك الفترة أو الحياة مع ما حصل في الولايات المتحـدة إبـان عقـد الثمانينـات وبشكل خاص عندما نركز المقارنة علىٰ السيرة المهنية للرئيس بوش الـذي كان يتحـرك بلا هوادة سعياً للاستحـواذ علىٰ السلطة العليا. وإذا ما اعتبر عقد الثمانينات في يوم من الأيام بأنه «سنوات دمرها الجراد»، فلن يوجد عضو جمهوري داخل الحكومة أو خارجها؛ ولا عضو ديمقراطي سواء في مجلس النواب أو في مجلس الشيـوخ ممن سيكون قادراً علىٰ الادعاء بامتلاكه نفاذ البصيرة علىٰ طراز تشرشل. وآخر شخص يستحق هذه الصفة هو الرجل الذي وصف صدام حسين بأنه المعتدي علىٰ الكويت ـ وهكذا كان ـ ثم شرع يخطط لشن حرب عليه.

هُيئت خشبة المسرح منذ وقت باكر جداً. وكان جورج بوش بوصفه نائبا للرئيس شريكـاً طوعياً وتابعاً مخلصاً لرئيس خدع الشعب الأمريكي بأجمعه. وعم الفساد الأخلاقي أركان البيت الأبيض في عهد ريغان. وعرف كل من كان مقرباً من رونالد ريغـان أنـه صاحب أيديولـوجية ضحلة وجامد الفكر، خاصة في ميدان السياسية الخارجية. وعرفو أيضا أنه سياسي من الطراز الأول، وممثل موهوب قادر علىٰ إثارة العـاطفة والحماس ومن ثم الفوز بالانتخابات. أما نائب الرئيس بوش الذي التزم الصمت آنذاك، فقد سار علىٰ نهج ريتشارد نيكسون عندما كان نائباً للرئيس دوايت إيزنهاور، وتوقع أن يخلف رونالد ريغان كوريثه الشرعي. وأمست وظيفته عدم التكلم ما أمكن، والجلوس من دون عمل شيء، وانتظار الحدث السعيد الذي سيجعل عنوان سكناه أفضل عنوان في الولايات المتحدة.. ألا وهو: ١٦٠٠ جادة بنسلفانيا.

وخلال ثماني سنوات من الحرب العراقية ـ الإيرانية التي كان فيها العراق هو

الطرف المعتدي، دأبت إدارة ريغان علىٰ شحن الأسلحة سراً وبدافع الازدراء إلىٰ كلا الطرفين المتحاربين، وزودتهما بالمعلومات الاستخبارية عبر قنوات مختلفة ومتعددة، ولكن الإيرانيين اكتشفوا أن المعلومات التي تصلهم أقل أهمية من التي وصلت إلىٰ العراقيين. ولا يوجد ما يوحي بأن نائب الرئيس قد اكتشف خبث وصفاقة هذه الأساليب السياسية، أو أنه أوصىٰ بغيرها. .

وطبقاً لجميع التقارير، شهد بوش عندما كان نائبا للرئيس جميع اللقاءات الهامة التي تمخضت عنها مؤامرة إيران ـ كونترا (مقايضة الإدارة الأمريكية سراً السلاح بالرهائن الأمريكيين) لكنه لم يتفوه بشيء علىٰ الإطلاق بخصوص تلك القضية. ولو أنه أدرك الخطر المحدق بالرئيس والخطر الأكبر الذي يهدد الدولة، لما حرك ساكناً ولبقي صامتا، وعند انفكاكه من قيود منصب نائب الرئيس بين الفينة والفينة ـ رئيسه في البيت الأبيض ـ كان يظهر قصوراً مماثلاً في البصيرة وسعة الأفق، وحالة مماثلة من عدم الاكتراث، ونفس درجة الحذر والترقب. ولم يفهم ما انطوت عليه خبرة العراق طيلة عقد الثمانينات، ولماذا لم تكن العراق لتكتفي بحد معين من المعدات بل كانت دوما في سعي دائم لزيادة مخزونها الضخم من العتاد. وخلال عام ونصف من تسلمه منصب الرئاسة الأمريكية، لم يذكر اسم صدام حسين، ولم ينظر إلىٰ العراق كعدو رئيسي للولايات المتحدة مثلما كان ينظر إلىٰ إيران وليبيا وسوريا.

وبينما استمر أعداء الولايات المتحدة في التغير علىٰ رأس كل سنة شمسية جديدة، ظل سكوت الرئيس بوش عن المشاكل الإقليمية غير عرضي بتاتا، لا بل أظهر خموله العقلي المعتاد وفشله في استشراف الأحداث القادمة ومن ثم التهيؤ للتعامل معها. ولم يعرف بوش إلا معلومات قليلة عن تلك المناطق بالرغم من السنين الطويلة التي قضاها في التدرب في الأمم المتحدة ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية والبيت الأبيض. ولدىٰ بوش طموح سياسي لكنه رجل مبتدىء علىٰ صعيد القضايا الخارجية، ولم يكن مهتما بالأمور الأخلاقية المتعلقة بالمواضيع

والمسائل التي طرحها هو أو المسؤولون من حوله.

واختار بوش طريق الحذر والاحتراس، فلم يهتم بتزويد الدولة بالإرشادات الخاصة بالسياسة الخارجية مع العراق. بل الحقيقة أنه كان لديه سبب سياسي أجبره علىٰ عدم القيام بذلك، إذ أن التكلم كثيراً وعلناً عن العراق؛ وعن منطقة الخليج بشكل أعم كان يعني المجازفة بتذكير المواطنين بسياسات إدارة ريغان في منطقة الشرق الأدنىٰ، وخاصة الاتفاقية السرية بشأن مقايضة الرهائن بالسلاح التي أنكر بشدة أن تكون له علاقة بها آنذاك، إضافة إلىٰ أن هذه المسألة لن تصمد أمام تحقيق جديد بشأنها.

أما مارغريت تاتشر التي نصبت نفسها مكان تشرشل كوريث شرعي له، فقد باركت عمل بوش مثلما باركته الأمم المتحدة. وما الشيء الإضافي الذي سيطلب من الشعب الأمريكي الموافقة عليه؟ لقد تخطىٰ صدام حدود دولة وألغىٰ استقلالها. ثم هل يمكن قول المزيد إزاء غدره؟ أشار بوش ضمنيا إلىٰ أن ما كان يقوم به عام ١٩٩٠ هو ببساطة ما كان سيقوم به تشرشل لو بقي في الحكم في إزاء ألمانيا النازية منذ بواكير عام ١٩٣٥.

وظهر دكتاتور معتد كان يخطط للهيمنة العسكرية علىٰ الخليج العربي ـ ويذكر أن الإدارة الأمريكية حرصت علىٰ عدم وصفه بالدكتاتور العربي حيث كان التحالف الدولي يضم بالرغم مما حدث دولاً عربية جيدة ـ آملاً في السيطرة علىٰ مصادر النفط فيخنق العالم الصناعي. وهكذا، كان المجتمع الدولي مدعواً للوقوف في وجهه وتحجيمه بقيادة الرئيس جورج بوش.

غير أن العراق يختلف عن ألمانيا، في حين بالغ بوش كثيراً منذ اليوم الأول في مقدار قوته العسكرية. وهناك دليل قوي يشير إلىٰ أن بوش لم يتوقع أبداً (أو نوىٰ) أن يتحقق الهدف من العقوبات، وأنه قاوم جهود الوسطاء من خارج الولايات

المتحدة للتفاوض حول انسحاب العراق من الكويت، وعقد الأمل علىٰ تقديم حل ناقص وغير مجدٍ بحيث يعالج المسألة في نهاية الأمر مستخدماً القوة العسكرية. وأكثر ما يبعث علىٰ الأسىٰ أن بوش لم يضع ثقته في الشعب الأمريكي أو الكونجرس، ولم يعتقد أبداً بضرورة انتهاج الأساليب القويمة والنزيهة مع كليهما.

هل كانت رغبة الرئيس بوش التي [وطبقاً لما كتبه تشرشل ببصيرة نافذة عن السياسيين في عقد الثلاثينات «تكمن في الحصول علىٰ الشهرة وكسب الانتخابات بصرف النظر عن مصالح الدولة»] هي العامل الذي أعماه عن رعاية مصالح السياسية الأمريكية الخارجية والبعيدة المدىٰ؟ هل استطاع أن يدرك تلك المصالح بالرغم من خبرته التي اكتسبها خلال الحرب العالمية الثانية ثم حقبة الحرب الباردة وعمله في البيت الأبيض في عهدي الرئيسين ريتشارد نيكسون ورونالد ريغان؟

هل استخدامه النموذج النازي في عملية التشبيه لم يكن، علىٰ سبيل المثال، عملاً محسوباً بدقة من أجل إخفاء فشله طوال عام ونصف في مواجهة وحل مشاكل محلية متأزمة، وإخفاء فشل أخطر علىٰ مدىٰ عشر سنوات حيث لم تستطع الإدارتان اللتان شكلهما الحزب الجمهوري التعامل جيداً مع المآزق الرئيسية التي وقعت فيها السياسة الخارجية؟ هل افتقر مثل سلفه إلىٰ فهم عميق للعالم في أواخر القرن العشرين، فلم يقدِّر الأخطار الكامنة ليس فقط في منطقة الشرق الأوسط، ولم يغتنم الفرص التي لاحت ليس فقط في أوروبا الشرقية؟ وباختصار، هل كان مثل العديد من الشخصيات الأمريكية البارزة من نفس جيله غير قادر علىٰ التخلص من تعابير القرن التاسع عشر الريفية، والتي وصمته كرجل من الطراز القديم، فلا يزال غير قادر علىٰ الإحاطة وفهم الأحداث المأساوية التي وقعت في بلده، والتي لم يعايشها ولم يستوعبها؟

أما فشل الرئيس بوش في أن يكون أكثر انفتاحاً بشأن سياساته وفي إظهار قدر أكبر من الصراحة في تبيان ما يريد فعله، فقد دل علىٰ وجود دافع سياسي داخلي

ذهب إلىٰ مدىٰ أبعد من اهتمام سياسته الخارجية المعلنة بتحرير الكويت وحماية السعودية، وضمان تدفق النفط من الخليج العربي. وكان تحفظ الرئيس في ذكر هذه الأمـور في تلك الحـالـة آنذاك شيئاً غير عادي. ولم يكن تشرشل ليفكر أبداً في استخدام مثل تلك الإيضاحات المبتورة للدفاع عن تعهده بإرسال قوات كبيرة كتلك التي أعلن عنها بوش بعد انتخابات تشرين الثاني، ولم يكن أيضاً بمثل شهامة بوش فيسارع إلىٰ تكوين تحالف كيفما اتفق ومرقَّع بانضمام الرئيس ووزير خارجيته الكثير الحـل والتـرحال، وليبدو في آخر الأمر تحالفا تافهاً وغير سوي. ولو حصل ذلك جدلاً، لارتفعت الأصوات في البرلمان وانهالت الأسئلة علىٰ الحكومة، ولطالبت الصحافة بإيضاحات كافية وهي تذكر بإحراج كل ما قيل وما أنجز في الماضي. غير أنه لم يحدث شيء من هذا القبيل في الولايات المتحدة، إذ كان الكونجرس في عطلة خلال أعظم الفترات أهمية، وبدت وسائل الإعلام ـ باستثناء عدد قليل من الحـالات المتميزة ـ مهتمـة بالإثارة الناجمة عن الحركات المسرحية الصادرة عن البيت الأبيض، علاوة علىٰ أنها نظرت إلىٰ الموقف من زاوية حرب فيتنام وأخذت تلمح إلىٰ عدد الإصابات الهائل التي ستمنىٰ به القوات الأمريكية وما ستقاسيه في أي حرب تندلع في الخليج العربي.

ولم يشعر بوش بالحزن والأسىٰ عندما علم بهذه القضايا التي تركز حولها النقاش لأنـه كانت له أهدافه الخاصة المرسومة، فتلاعب بالأمور كيف يشاء موجهاً إياها لخدمة أهدافه السياسية.

من خلال خبراته العديدة في البيت الأبيض أو ما يتعلق به، علم بوش بعض الأمور عن مدىٰ تحمل الجمهور الأمريكي للألاعيب السياسية التي يقوم بها جهاز الرئاسة الأمريكية. فهذا رونالد ريغان قد استخدم أسلوب الوعظ الأخلاقي وسرد القصص بصـورة مستمرة، فأوجد روايات غير حقيقية لم ير مساعدوه سبباً يوجب مراجعتها وتصحيحها. وما زال العمل ساريا بمبدأ ثيودور روزفلت [ثيودور هو الرئيس

الأمريكي السادس والعشرون ـ من عام ١٩٠١ حتىٰ ١٩٠٩ ـ المترجم] حتىٰ أواخر القرن العشرين، ويقوم علىٰ أساس اعتبار البيت الأبيض منبراً للتوجيه والإرشاد. ويعني هذا المبدأ الآن نقل الأكاذيب والأقاويل التي تتملق الجمهور وتمجد الرئيس. وأوجد هذا الوضع المناخ الملائم للتلاعب بمعايير الفضيلة والرذيلة وتصويرها كما أراده، وهكذا، أصبح الكويتيون من بعد تاريخ ٢ ـ آب ـ ١٩٩٠ أصحاب فضيلة، وأمسىٰ العراقيون أشراراً. وظهر بوش القاضي الحيادي وكأنه عمدة المدينة الذي سيطبق القانون بالقوة.

وفي صباح الثامن من آب، صدر خطاب من مكتب بوش البيضاوي ـ حيث لم ير بوش ضرورة لإلقائه في موعد النشرة الإخبارية الرئيسية ـ وكان كالعادة خطاباً خيالياً باستطاعة الرئيس رونالد ريغان إبان عهده أن يلقي بسهولة خطاباً مناظراً له ومن دون أدنىٰ تأثير. ولم تنشر صحيفة نيويورك تايمز ذات المرتبة الأولىٰ خطاب الرئيس، ولم يظهر في صحيفة الواشنطن بوست، وكأن العمل الروتيني لبعض الكتاب المستأجرين قام علىٰ أساس إحلال المواضيع المتكررة المبتذلة مكان النقاش المفيد والنصح والوعظ مكان التحليل. وبدأ الخطاب كالتالي:

«نحن مدعوون خلال حياة الأمة أن نعرف من نحن وبماذا نعتقد، وتكون هذه الخيارات أحياناً صعبة، وأطلب منكم اليوم بوصفي رئيساً للدولة أن تمنحوني دعمكم في قرار اتخذته لمساندة الحق وشجب ما هو خاطىء، وكل ذلك في سبيل إحلال السلام».

هل وجه الخطاب أساساً إلىٰ جمهور التلفزيون النهاري؟ أو هل كان بمقدور بوش أن يكون جاداً في التأكيد علىٰ أن أحد أهدافه من حشد الفرقة (٨٢) المجوقلة ووحدات رئيسية من سلاح الجو الأمريكي كان الدفاع عن المبادىء الأمريكية وعن الوطن السعودي العربي؟ لقد استخدم بوش لغة الحرب العالمية الثانية: قامت القوات المسلحة العراقية «باجتياح الكويت في عملية خاطفة استمرت عدة ساعات

فقط» وقال إن العدوان «وقع بعد ساعات قليلة من تأكيد الرئيس صدام حسين بشكل خاص لعدد من الدول في المنطقة بعدم القيام بغزو الكويت». وأضاف بوش برزانة مترنماً: «لقد كذب صدام». ولجأ بوش إلىٰ ترديد هذه المقولة مراراً وتكراراً في الأيام التالية.

ووجه بوش كلامه إلىٰ الشعب ذاكراً: «لقد كسبنا الصراع من أجل الحرية في أوروبا لأننا وحلفاءنا ثبتنا علىٰ الإيمان الراسخ. وسيحتاج إحلال السلام في الشرق الأوسط إلىٰ قدر من الإيمان كبير، نحن نستهل عصراً جديداً يمكن أن يزخر بالآمال الواعدة، وهو عصر الحرية وحقبة السلام من أجل البشرية جمعاء. وإذا كان التاريخ يعلمنا شيئاً فهو وجوب التصدي للعدوان وإلا فإنه سيدمر الحريات في عالمنا. إن استرضاء ومجاملة المعتدي هو شيء غير نافع. وكما كان عليه الحال في عقد الثلاثينات، نرىٰ الآن صدام حسين دكتاتوراً معتدياً يهدد جيرانه من الدول المجاورة. وقبل أربعة عشر يوماً فقط، وعد صدام أصدقاءه بألا يجتاح الكويت، ووعد العالم قبل أربعة أيام بأنه سينسحب منها. وها قد شهدنا بأم أعيننا ماذا تعني وعوده. إن وعوده تعني عدم الوفاء».

ويعكس هذا المقتطف الأخير من حديث بوش نوعية حجة الرئيس بوش، إذ قال: «لن يكون من السهل مؤازرة مبادئنا والارتقاء إلىٰ مستوىٰ متطلباتها، فهي غالباً ما تحتاج إلىٰ الوقت وتكلف الكثير الكثير. ولكننا نحن لا نطلب ذلك إلا من الرجال والنساء الشجعان الشبان من قواتنا المسلحة ومن أسرهم، وأطلب من جميع الكنائس في البلاد أن تقيم الصلوات من أجل أولئك الذين أنيطت بهم مهمة حماية المصالح الأمريكية والدفاع عنها».

يتخيل المرء أن بوش في اتصالاته الهاتفية العديدة مع رؤساء الدول الأجنبية قد طرح وجهات نظر وحجج أشد قوة ليبين ماذا كانت تقوم به الولايات المتحدة ولماذا احتاجت إلىٰ مساعدة الدول الأجنبية، غير أنه في الإيضاحات المقدمة للشعب

الأمـريكي، شبه نفسه بتشرشل، إذ واجه بجرأة العُدوان السافر لدكتاتور اغتـ
جنوده الكويت وأجبروا علىٰ تدمير مدينة حديثة وكبيرة بنيت بأموال عائدات النـ

كان انتحال بوش شخصية تشرشل عملاً ناجحاً، ولم تكن هناك علاقة
المسـألـة بحقيقـة أن بوش لم يدرك مطلقـاً خطر العراق، فهو لم يحذر منها
بالـطريقـة التي كان تشـرشـل يتبعها دائماً في التحذير من النوايا العُدوانية لـا
الألمانية النازية، ولم يكن مهماً معرفة أن تشرشل في معارضته أسلوب الاستر
قد اتخذ موقفاً غير شعبي، بينما انحازت الأغلبية إلىٰ جانب سياسات شامبرلين ا
وعـد بتحقيق شعـار «عصـرنا عصر السلام». واعتمد بوش علىٰ سياسة خاليـ
الأخطاء والعيوب، وتقوم علىٰ البساطة والتكتم، فتجنب بذلك التحليل والتدقيـ
العمل السياسي والذي يزيد من العنصر البناء للدولة وقد يصف أحد النقاد المعـ
هذه السياسة بأنها خداع متعمد.

كان هناك احتمال أن يصدر خطاب مختلف من المكتب البيضاوي لو أن
أراد وضـع ثقتـه في الشعب الأمـريكي، أو أنه تبين وجود حاجة لفعل ذلك
يستطيع اكتسابها، أو أنه اهتم بالنظام العالمي أكثر من اهتمامه العظيم بإعادة انتـ
عام ١٩٩٢، أو أنه عاش في محيط سياسي مختلف عن ذاك الذي ألفه تحت
ريتشارد نيكسون ورونالد ريغان الرمزين الرئيسيين في الحزب الجمهوري والـا
أحسنا إليه. والحقيقة أنه نظراً لأهمية مسألة الغزو العراقي للكويت، كان يتو
إلقاء الخطاب في وقت نشرة الأخبار الرئيسية وأن يعلن عنه قبل يوم لتوليد الإ
وضمـان أكبـر عدد من مشـاهدي التلفزيون الذين سيتابعون الخطاب، وأن
الخـطاب في صحيفـة (نيويورك تايمـز). ولَكِنـا سمعنـاه من مصـادر المجمـ
الأوروبية، ولتـردد صداه في العالم العربي. ولكن لم يلق مثل هذا الخطاب
الأيام الأولىٰ من آب ولا من بعدها، لأنه لم يعتقد أحد في البيت الأبيض أو
حاشية الجهاز الرئاسي بضرورة ذلك.

استحال علىٰ الرئيس بوش أن يحيط بمعلومات أولئك الذين عرفوا الحقيقة وهم خارج الولايات المتحدة، . . كان عليه السماح بتدخل القوات الأمريكية في ذلك الوقت أو تدخل قوات الدول الأخرىٰ، وهو ما حصل بالفعل. وبالرغم من السمعة الجيدة للمجموعة الأوروبية وقوتها الاقتصادية الحقيقية، فقد كانت بالتأكيد غير راغبة في القيام بمثل تلك الاستجابة، وليس السبب ببساطة أن سياستها الدفاعية لم تكن كافية لتحيط وتستوعب أزمة ما علىٰ شاكلة أزمة اجتياح العراق للكويت. وأدرك العالم كله أن الولايات المتحدة هي المدافع الوحيد عن إسرائيل، مع أن بوش لم يذكر إسرائيل علىٰ الإطلاق.

ولم تعترض سابقا الولايات المتحدة وجميع الدول القوية علىٰ وقوع مئات الآلاف من الضحايا في الحرب العراقية ـ الإيرانية التي استمرت ثماني سنوات، لكن الرئيس بوش فقدَ رباطة جأشه وراعه أن يقوم العراق بهجوم مباغت علىٰ إسرائيل أو أن تقوم إسرائيل بضربة استباقية ضد العراق لتتجنب هجومه.

ولو افترضنا جدلاً حصول هجوم عراقي، فإنه سيوقع عشرات الآلاف من الضحايا في تل أبيب وفي ليلة واحدة فقط. وستنطلق صواريخ صدام حسين من طراز سكود [لا يدعوها المؤلف باسمها العربي الحقيقي وهو صواريخ الحسين؟ ـ المترجم] من قواعدها الآمنة في العراق أو الكويت ثم تُحَلق في أجواء الأردن لتحدث في إسرائيل دماراً لم يسبق له مثيل، فتخلق أزمة حادة جداً في الشرق الأوسط وفي الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً. وإذا حاولت إسرائيل دفع حدوث مثل هذه الكارثة بضربة تقوم بها هي أولاً، فستواجه الإدارة الأمريكية أزمة أقل خطورة علىٰ الصعيد الداخلي ولكن ستواجه وضعا دولياً بالغ الحساسية. وعندما تهاجم إسرائيل منشآت الأسلحة الذرية والجرثومية والكيميائية في العراق، فستخلف نتائج أشد مأساوية من تلك التي مر بها الرئيس ريغان وزملاؤه عندما حطمت إسرائيل القدرة النووية العراقية عام ١٩٨١.

ومهما بلغ تعاطف الدول الأوروبية مع إسرائيل، مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا، فلن تتولد مضاعفات سياسية هامة في مكان آخر من العالم ومتعلقة بكارثة عسكرية مؤلمة في المنطقة ما لم تؤد إلىٰ حرب شاملة طويلة في المنطقة ذاتها. أما مصلحة إسرائيل، أو بالأحرىٰ استمرار حياتها، فلن تهنم الدول الأخرىٰ به كثيراً، مثل اليابان والصين، ناهيك عن الاتحاد السوفييتي سابقاً ودول عدم الانحياز في آسيا وإفريقيا.

اختار بوش عدم التكلم حول أي من هذه القضايا، فهل اتفق ذلك مع أسلوب التكتم الذي اتبعه؟ نعم، ولكن جزئياً لأنه في نفس الوقت تعبير عن رفضه وضع ثقته في الجمهور الأمريكي، ولأنه أراد استخدام الغزو العراقي كوسيلة ليطّلع شعبه علىٰ قضايا الشرق الأوسط، وموضوع التلوث في العالم، والقوميات التي تجمعت تحت راية الانبعاث الوطني وإحياء الروح الدينية. وهكذا فإن الإعلان عن مجمل الأخطار الناجمة عن الوضع الكويتي كان سيؤدي إلىٰ مفاقمة المسألة وبث هلع أشد في نيويورك وفي أسواق الأوراق المالية، في كافة أنحاء العالم.

كان هناك سبب آخر لسكوت الرئيس بوش عن هذه المسائل، لقد راوده الأمل في تشكيل تحالف عسكري يضم دولاً عربية، لأن أي إشارة إلىٰ إسرائيل كانت ستهدد مصير التحالف كما تصور بوش. أدرك بوش تماماً أن السعودية كانت ترتعد فرائصها خوفاً من العراق، ولكن ليس إلىٰ درجة تسمح له بإعلان أن السعودية وإسرائيل يهددهما العراق ويعرضهما إلىٰ خطر داهم.

وكان من المعتقد أن التحالف شديد الضعف، أضف إلىٰ ذلك عداء المسلمين الكبير لإسرائيل، مما سيؤدي بسبب تصريح غير متعقل وموزون إلىٰ انفراط عقد التحالف ذاك مباشرة ـ وطال تكتم بوش مواضيع أخرىٰ أيضاً، فهو علىٰ سبيل المثال غير مهتم بتثقيف وتنوير الجمهور الأمريكي بالحوادث السابقة في منطقة الشرق الأوسط.

وقد استطاع التكلم عن غزو العراق للكويت ووصفه بأنه جائر وغير مبرر، لكنه لم يستطع الاستمرار ليذكر أنه قبل عشر سنوات، وفي عام ١٩٨٠ بالتحديد، تلقىٰ العراق دعماً مالياً كبيراً جداً من الكويت والمملكة العربية السعودية في حربه ضد إيران. وأصبحت هاتان الدولتان نتيجة لذلك الممولين الرئيسيين للعراق في عُدوانه غير الـوجيه علىٰ آية الله خميني. واعتبـر الدخول في مثل هذه التفاصيل، وحتىٰ الإشارة إليها من بعيد، تعقيداً غير ضروري لتلك القضية.

وفضيحة (إيران غيت) هي واحدة من عشرات القضايا التي لم يرغب بوش في تذكير الأمة الأمريكية بها، لماذا؟! لأن إعادة ذكرها ـ أو إعطاء رواية جديدة وأدق لقصـة العـلاقات الأمريكية مع إيران منذ خلع الشاه ـ سيعني فتح ملف الفضائح والأعمال القذرة بأنواعها. وكانت مشاكل آية الله خميني مع الولايات المتحدة من صنع يده كما بدا، ولم يستحق أي عطف لكونه إسلاميا أصوليا ومناوئا للأمريكيين، وقام سابقا باحتجاز رهائن من السفارة الأمريكية في طهران لأكثر من عام وشجب الإمبريالية الأمريكية وانحطاط الحضارة الأمريكية في كل فرصة لاحت له.

وصرفت الولايات المتحدة نظرها عن إيران عندما هاجمها العراق الذي كان حليف الاتحاد السوفييتي ووكيله في المنطقة. وبدت الولايات المتحدة حيادية من الناحية الرسمية، غير أنها ساعدت الطرفين في الحقيقة بطرق متعددة وأوقات مختلفة وبصورة سرية، متظاهرة في نفس الوقت بعدم الاكتراث سواء استمرت الحرب أم توقفت. ولم تقم الولايات المتحدة أبداً بتحركات جادة سعيا وراء إحلال السلام بين الدولتين حيث لم يكن لديها علاقات دبلوماسية رسمية مع الطرفين، بيد أنها عملت من خلال وسـطاء جيدين يمكن الاعتمـاد عليهم في إرسال الأسلحة والمعلومات الاستخبارية من الولايات المتحدة إلىٰ الطرفين، ولم تعمل علىٰ وقف الحرب.

مع استمرار الحرب وازدياد ضرواتها ووحشيتها، وصلت إلىٰ مسامع العالم أنباء

المذابح العسكرية الشنيعة والهائلة. ووقف العالم مكتوف الأيدي يشاهد استخدام العراق للأسلحة الكيماوية وتبادل القصف الصاروخي الذي دمر المدن علىٰ جانبي الحدود، وقام أحياناً بجهود لوقف الحرب وعن طريق الأمم المتحدة بشكل رئيسي. وحاولت الجامعة العربية وقف الاقتتال عدة مرات ولكن جهودها باءت بالفشل. واتخذ الأمريكيون موقف المتفرج علىٰ غرار الآخرين، وظلوا يراقبون الدولتين المتحاربتين تمزق بعضهما البعض مستخدمتين أسلحة هائلة التدمير حصلتا عليها بكميات ضخمة من الخارج.

وبالرغم من أنّ الغزو العراقي للكويت قد خدم أهداف بوش السياسية، لكنها لم تكن لتكسب شيئاً لو علم الشعب الأمريكي أن الغزو العراقي لإيران قبل عقد من السنين لم يثر غضباً أمريكياً (أو عالمياً) مماثلاً. ولم تحدث آنذاك إدانة للعراق جراء انتهاكها للقانون الدولي وعدم احترامها لميثاق الأمم المتحدة.

واستخدم آية الله خميني كلاما عنيفاً وفظاً ليس فقط ضد الولايات المتحدة، ولكن أيضاً ضد دولة إسلامية غنية مثل السعودية والكويت بسبب ارتكابها مخالفات دينية وأخلاقية، مما دفع بهذه الدول لتكون شركاء طائعين للعراق في حربه ضد إيران. والواقع أن الكويت والسعودية استأجرتا صدام حسين لينفذ خططهما العسكرية بالنيابة عنهما وليدرأ عنهما وقوع كارثة سياسية ناجمة عن تمرد مسلح داخلي. وتظاهرت كلتاهما أن العراق بغزوه لإيران كان وبكل بساطة يساهم في تحقيق السلام في الخليج العربي. ودفع الخوف من الخميني بكل واحدة منهما إلىٰ تزويد العراق بمبالغ مالية ضخمة وبكميات هامة هائلة من المعدات العسكرية، معتقدة أن هزيمة إيران هي من مصلحة جميع الشعوب العربية. فإذاً، لم تكن للرئيس بوش أي مصلحة في سرد هذه الوقائع التاريخية.

لم كان العراق قادراً علىٰ الاستمرار في حربه لولا تلك المنح الكبيرة من المال والتجهيزات العسكرية، بيد أنه فشل من الاستفادة من نجاحاته العسكرية الأولية

بالرغم من حجم هذه المساعدة والعون المستمر من الاتحاد السوفييتي حليف العراق منذ زمن طويل، فصدت إيران هجومه الأصلي وضاعت منه معظم الأراضي الإيرانية التي استولىٰ عليها، وأصبحت الحرب مأزقاً خطراً. واستمرت الأعمال الهجومية علىٰ الأرض عاماً بعد عام من دون نتائج حاسمة، بينما وصل عدد الإصابات ما بين جرحىٰ وقتلىٰ إلىٰ رقم خيالي، ومع ذلك استمرت الحرب.

وبالرغم من قدرة إيران علىٰ إخراج القوات العراقية من أراضيها، فإنها لم تستطع كسب انتصار حاسم كالذي أرادت. وزاد إحباط القيادة العراقية بسبب هزائمها العسكرية، فعرَّضت شعبها للهلاك ـ بما فيه الأقلية الكردية الكبيرة ـ علىٰ جبهات القتال، وكان العراق أشد ضراوة مع أعدائه، فاستخدم الغازات السامة عدة مرات معتقداً أن ذلك سيدفع إيران إلىٰ الاستسلام، لكن القيادة أخطأت التقدير مرة أخرىٰ.

إن الإعلان عن هذه القضية ستكون بالنسبة للرئيس آنذاك بمثابة لفت نظر الأمريكيين إلىٰ مسألة لم يدققوا فيها إلا نادراً: كانت المنافسة بين الدول الإسلامية عميقة الجذور، إذ استطاع العراق في عقد واحد فقط من السنين أن يشن حرباً عُدوانية ضد دولتين إسلاميتين، فاستولىٰ علىٰ أراضي الأولىٰ وتورط في محاولته إلحاق هزيمة بالدولة الثانية. وغدت المملكة السعودية مهددة بالخطر، وكذلك إسرائيل بعد أن قطع صدام علىٰ نفسه عهداً بتدمير إسرائيل. وحاكم دكتاتوري كهذا قادر علىٰ تكرار اعتدائه العسكري كان يشكل تهديداً للعالم أجمع، ولكن الذهاب إلىٰ نقطة أبعد من موضوع الكويت وتهديد السعودية كان سيجعل حكاية بوش آنذاك أكثر تعقيداً، بل ربما كانت ستؤدي إلىٰ إفساد التناسق البسيط السطحي مع الأنموذج النازي الذي جاء به وتستر تحت غطائه.

لم ينجح الرئيس بوش بسبب حذره الشديد في تصوير البلاء الذي وقع علىٰ الشعب العراقي، إذ ـ ولمرة أخرىٰ ـ لم ير ضرورة للقيام بذلك. وما الفائدة التي كان

سيجنيها الشعب الأمريكي من معرفته أن العراقيين عاشوا في خوف شديد من حاكم مستبد تولىٰ السلطة في بلدهم، وكانوا عاجزين تماماً عن مقاومة قوة جيشه واستخباراته السرية؟ ومثل الشعب الروماني الذي عاش تحت حكم تشاوسيسكو عاش العراقيون في رعب غير ظاهر في معظم جوانبه. وفضل الرئيس التأكيد علىٰ شرط واحد هام وحاسم من بين جميع قرارات الأمم المتحدة، وهو أن علىٰ العراق الانسحاب من الأراضي الكويتية، وكل ما عدا ذلك مسائل تأتي في الدرجة الثانية من الأهمية.

وفي غمرة انشغال الرئيس بوش في جعل الأمور تبدو طبيعية، أهمل التركيز علىٰ الظروف الاستثنائية التي دفعت بالاتحاد السوفييتي إلىٰ قبول المبادرة الأمريكية ضد العراق ومساندتها في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. ولم يكن أحد ليفكر مجرد تفكير قبل عشرة أعوام أن الاتحاد السوفييتي يصوت ضد أحد حلفائه. ورُب متحدث آخر من المكتب البيضاوي رغب آنذاك في التأكيد علىٰ أهمية الأمم المتحدة والدور الذي يمكن أن تلعبه في صنع السلام. وفي تلك الحالة، كانت الإشارة إلىٰ كون دينية وأخلاقية، مما دفع بهذه الدول لتكون «شركاء طائعين» للعراق في حربه ضد ١٩٤٥ في سان فرانسيسكو - ستبدو ملائمة. أما تفوه بوش بمثل هذا الكلام، فكان سيعني الإساءة إلىٰ أعضاء بارزين من الحزب الجمهوري الذين لم يتعلموا أبداً كيف يسامحون رجل البيت الأبيض فرانكلين روزفيلت.

وأيضاً، لم يجد بوش فيما يخص هذه المسألة حاجة لشرح موقفه إزاء العقوبات، وقامت خطته السياسية علىٰ دعم فرض العقوبات دعماً قوياً مع عدم إظهار نفاذ صبره قبل الأوان فيما يتعلق ببطء عملية اتخاذ الإجراءات المرافقة للعقوبات، واحتفظ بوش بآرائه وأهدافه لنفسه في هذه القضية بالذات كعادته في القضايا الأخرىٰ، إذ لم يكن من المعقول وجود رغبة لدىٰ بوش لكشف أن له ضلعاً بذلك قبل انتخابات منتصف دورته الرئاسية ومن ثم ليهيء دولته لليوم الذي سيعتمد

فيه العمل العسكري ضد العراق بدلاً من وسيلة العقوبات. وبغض النظر عن وجهات نظره، فهو لم يعلن عنها لأنه كان من المستحيل بالنسبة له ومن غير الحكمة أن يقرها ويبينها آنذاك كاستحالة العودة إلىٰ أوضاع الأول من آب قبل الغزو العراقي للكويت.

ولم تستطع السعودية ولا إسرائيل تقبل العيش مرة أخرىٰ إلىٰ جوار العراق كدولة مسلحة خطرة، لا سيما بعد أن شهدتا تدمير الكويت علىٰ يد صدام حسين. ولم تجعل الأمم المتحدة تجريد العراق من كافة أسلحته شرطاً لرفع العقوبات عنه. ولم تظهر مبيعات السلاح والتلوث الناجم عن السلاح بشكل واضح علىٰ جدول المسائل التي توجب تسويتها قبل الصفح عن العراق. وبينما ذكر إلزام العراق بدفع تعويضات للكويت، لم ترد أية إشارات واضحة وصريحة بشأن الحد من الأسلحة.

هل علم الرئيس بوش بذلك؟ نعم، علم بالطبع. هل كانت له مصلحة في تبيان ذلك؟ كلا، ليست له مصلحة. ونتيجة لتفكيره وفقاً لأطر زمنية أخرىٰ، واحتفاظه لنفسه بأهداف أخرىٰ مختلفة تماماً، واعتماده كلية علىٰ خبرته والنصح الذي تلقاه فعكس بكل وضوح قيم العالم الأمريكي الخاصة الذي عايشه ـ زمن مراهقته وبلوغه الباكر في الحرب العالمية الثانية، وسنوات نضجه في حقبة الحرب الباردة ـ نتيجة لكل ذلك، فكَّر بصورة سطحية بحرب القرن العشرين معتبراً إياها مأساة، واعتبر صياغة السلام مسألة شديدة الصعوبة إلىٰ درجة لا يمكن تخيلها إذا ما تضمن أمراً ما إضافة إلىٰ طرد المعتدين من الأراضي التي استولوا عليها.

لم يكن التمحيص والتفكير الهادىء من صفات بوش ووزير خارجيته، ولم يمتلك معرفة تاريخية أو خيالاً تاريخياً خصب مكن أفراداً أوروبيين من أمثال تشرشل أو ديغول من صهر وقائع حياتهم الخاصة في نظام أشمل قائم علىٰ مفاهيم وأسس مستمدة من عموم الحياة. وخلافا لسلفه، قرأ الرئيس بوش الوثائق والتقارير المقدمة إليه، ولكن المعلومات الموجودة فيها لم تدفعه إلىٰ التفكير بعمق وروية حول دولته أو العالم.

ولأسباب مفهومة، لم يصرح بوش بأن إدارة ريغان لم تضطلع بمسؤولياتها كما يجب، فساعدت علىٰ خلق ظروف ـ ومهما كان عملها طائشاً ـ سمحت لرجال علىٰ شاكلة صدام حسين أن تزدهر حياتهم ويحكموا أوطانهم بالنار والحديد، ومن ثم يصبحوا خطراً عسكرياً يتهدد الدول المجاورة لهم، ولم يجرؤ علىٰ الاعتراف بأنه وطوال عام ونصف من استلامه منصب الرئاسة كان مهملاً تماماً لقضية العراق، وأن فشله في أخذ مسألة صدام مأخذ الجد قد ساهم إلىٰ حد ما في خلق الأزمة التي تفجرت في الأيام الأولىٰ من شهر آب ـ ١٩٩٠.

إن الرؤساء نادراً ما ينتقدون أنفسهم وسياساتهم، ولا يتوقع المرء منهم أن يكشفوا أخطاء الرؤساء السابقين، وخاصة إن عاشوا تحت كنف هؤلاء الرؤساء السابقين وحصلوا علىٰ دعمهم ورعايتهم.

وفي حالة بوش، كان من الصعب وبشكل خاص بالنسبة إليه، أن يعترف بوجود فشل فيما يتعلق بالدبلوماسية وميدان الاستخبارات الأمريكية. والتحقيق في المسألة الأولىٰ كان سيؤدي إلىٰ انتقاد وزير الخارجية جيمس بيكر ولو ضمنيا، وبيكر هو من أقرب الأصدقاء والزملاء إلىٰ الرئيس بوش الذي لا يستطيع إيفاء بيكر بما يستحق مقابل خدماته الجليلة له. ولقد أوقع بيكر الرئيس بوش في الفشل بسبب إهماله، حيث كان مشغولاً إلىٰ درجة كبيرة بمهمات شاقة تتعلق بالسياسية الخارجية اعتقد أنها علىٰ جانب كبير من الأهمية.

ولم يظهر الشرق الأوسط علىٰ رأس جدول أعماله إلا مرات قليلة، وعندما توقف لينظر في قضاياه، ركز انتباهه عموما علىٰ إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، وما كان يدعىٰ بتعبير لطيف «عملية السلام»، بعد أن ترك جانباً قضية الاتحاد السوفييتي الأكثر أهمية وإثارة من وجهة نظره.

ولم يزود بيكر الرئيس بوش بإرشادات كافية فيما يخص النقاط الساخنة في

منطقة الشرق الأوسط، سواء في جهوده المبذولة للتحذير والنصح أم في إدراكه لطبيعة الأزمة المتفاقمة في الشرق الأوسط. وفي عهد رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر، فشل وزير الخارجية البريطاني اللورد كارينغتون من تحذير رئيسة الوزراء في أزمة مشابهة من الخطر الأرجنتيني الذي داهم جزر الفوكلاند، فاستقال من منصبه كثمن لخطئه ذاك. بينما لم يطالب أحد، وعلىٰ الأقل الرئيس بوش، أن يضحي بيكر بمنصبه الرسمي ثمناً لخطئه. ولماذا يؤدّب أو يعاقب وهو لم يرتكب أي خطأ، وذلك من وجهة نظر بوش علىٰ أقل تقدير.

اتخذ بوش من العلم الأمريكي ستاراً واقيا له ـ وهذا تكتيك تعلم استخدامه لمصلحته الشخصية منذ بواكير عمله السياسي، واستخدمه أيضاً ببراعة فائقة في حملتـه الانتخابية ضد مايكل دوكاكيس ـ وأدرك أن ما يحتاج إليه هو مفهوم واحد وبسيط جداً يجب تكراره وذكره باستمرار، فدعا الأمة الأمريكية لدعم فتيانها وفتياتها الشجعان والاستعداد لتقديم أسمىٰ التضحيات في سبيل العدالة والسلام.

وشكـل بوش ووزير خارجيتـه فريق عمل ممتازاً بعد أن عاد بيكر بسرعة من سيبيريا للانضمـام إلىٰ بوش في عملية بنـاء التحـالف المنـاهض للعـراق وجمع التبرعات. وأصبح هذان العملان جزءاً مدمجاً لا يتجزء من عمليتهما المشتركة، وبرع وزير الدفاع ورئيس مجلس هيئة الأركان المشتركة في تحريض بوش وبيكر بعد اندلاع الحرب علىٰ مزاولة هذين العملين. وهكذا، خلقا أسطورة لا تمت إلىٰ الواقع بصلة نتيجة شق صف العالم العربي وإيجاد صدع بين أقطاره لم يسبق حدوث مثله من قبـل، فسـوريا كانت علىٰ خلاف مع العراق منذ عدة عقود من السنين حيث الرئيس حافظ الأسد هو العدو اللدود لصدام حسين، وحاولت مصر بإصرار إعادة علاقاتها مع السعودية الغنية بالنفط بعد أن نبذتها الدول العربية مدة عشر سنوات بسبب توقيعها اتفاقيات كامب ديفيد مع إسرائيل. وأصبحت التحالفات والانقسامات ظاهرة شائعة في العالم العربي.

كانت هذه المسائل بالنسبة لرونالد ريغان تفاصيل ثانوية يتم تجاهلها عادة، وكذلك الأمر بالنسبة لجورج بوش الذي كان يتذكر ما شاء ويتجاهل ما شاء. وكان بوش في الواقع شديد الحذر في اختيار ما يقول عن الشرق الأوسط، حتىٰ أنه لم يبين أن أحد أهدافه كان بناء تحالف عربي جديد موال للولايات المتحدة يعتمد علىٰ المملكة العربية السعودية ومصر وسوريا. وحدا بوش أمل بأن يمنحه هذا التحالف دعماً ضرورياً لإجبار إسرائيل علىٰ الخضوع لشروط سلام ارتأت الولايات المتحدة أنها شروط وافية ومُرْضية.

وتخيل بعضهم أنه لا عذر مشروعاً لأي دولة عربية (أو دول أخرىٰ) رفضت التعاون مع التحالف المناهض للعراق، ولهذا بدا لهم عدالة ومنطقية (!!) معاقبة عاهل الأردن الملك حسين، الصديق القديم للولايات المتحدة، لعدم مشاركته في شجب الرئيس صدام حسين. . . لقد كان متوقعاً من جميع الأصدقاء الموالين للولايات المتحدة أن يظهروا تأييدهم لها علىٰ نفس الشاكلة.

وأصر الأمريكيون في مقاومتهم النشطة للعدوان العراقي وتحمل أعباء الآخرين علىٰ أن القضية الشرعية الوحيدة هي مقاومة الغزو العراقي غير الشرعي للكويت. كانت الحدود بين الدول مقدسة، وأنظمة الحكم غير ذات قيمة، وأرواح جنود العدو والمدنيين رخيصة. ولم تضع الدولة ذات القوة العظمىٰ في حسابها أرواح الناس المعنيين عندما عملت علىٰ إحلال السلام عن طريق الحرب. لقد كان تمثيلاً سياسياً حاذقا، وعملاً مثيراً في ميدان العلاقات العامة لا يستحقه إلا صاحب الخطاب الكبير نفسه الذي صدق من غير ريب كل كلمة من ذريعته المبتذلة، وهي: إذا تحقق النصر بسبب انسحاب صدام حسين من الكويت فلن يكون الرئيس بوش قد جازف بشيء، أما إذا تحقق بعد حرب قصيرة ناجحة فسيكون قد ضمن الفوز بإعادة انتخابه مرة ثانية رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية.

الرئيس ريغان: المشعوذ

كان البيت الأبيض في عهد رونالد ريغان بمثابة الحضانة السياسية لجورج بوش، إن نائب الرئيس الذي عمل في الخمسينات من عمره في أمريكا وخارجها لم يكن يعرف إلا القليل عن العالم وبلاده نفسها. ومن خلال عمله تحت إمرة ريغان تعلم بوش أن السياسة الأمريكية تعتمد علىٰ قاعدتين ألا وهما أهمية تحقيق النصر في الانتخابات وأن رفع المعنويات مخدر فعّال أكثر من الحقيقة المملة. وأدرك أيضاً أن السياسة الخارجية عبارة عن رفاهية فالولايات المتحدة في نهاية القرن العشرين كانت قادرة علىٰ العمل بدونها. وأدرك أيضاً أن عبقرية الرئيس السياسية كانت تعتمد على قدرته بالتظاهر بتغيير العالم سواء في الشرق الأوسط أو الاتحاد السوفييتي وكلاهما كان حلماً من خيال الرئيس.

لم يكن بإمكان ريغان أو مستشاريه تحقيق أي انتصار مهم في الشرق الأوسط إذ أن الانتصارات الحقيقية تم تحقيقها في عهد نيكسون وكارتر وقد كانت الإنجازات الدبلوماسية للرئيس ريغان مع غورباتشوف مبالغ فيها، إنّ قبول السوفييت لرغبات الآخرين كان بسبب تغيرات فرضت علىٰ الكرملن من جانب الاقتصاد السوفييتي الذي كان يعاني من أزمة.

أعلمت مارغريت تاتشر الصديقة الحميمة لريغان ـ أعلمته بوجود رجل في الكرملن يمكن تحقيق إنجازات معه حيث أنه مؤمن بفكرة الانفراج في العلاقات الدولية وكانت النتيجة عقد قمة. كان هذا درساً لنائب الرئيس حيث أدرك أن اللقاءات المتكررة بين قادة الدولتين العظميين تحقق أرباحاً سياسية حقيقية. ولقد

تعلم بوش درساً آخر، وهو مدىٰ قوة الأسطورة وذلك بإيهام الناس بأنه كان السبب في حدوث أشياء عظيمة فالرئيس كان بارعاً في نسج القصص وكان الشعب علىٰ استعداد تام لتصديقه. والمهارة الأخرىٰ التي اكتسبها بوش في كيفية تجنب الفضائح العامة وتغطية عيوبه وعثراته، فقد كان يحتاج إلىٰ أكثر من المراوغة ورواية القصص. كان يحتاج إلىٰ مهارات المسرح التي تراعي إحساس المشاهد من حيث طريقة عملها ومعالجتها، في الوقت الذي كان فيه نيكسون يفتقر إلىٰ هذه المهارات حيث كان يخشىٰ مَنْ يحاولون الإيقاع به فكان يظهر عليه الاضطراب مما أثار الشكوك من حوله، أما ريغان فكان لا يخشىٰ الذين يقفون في الجانب المقابل مثل الصحافة، وقد أظهر قدراته المسرحية ولا سيما في قضية إيران ـ غيت وهنا تعلم بوش أن الرئيس يستطيع إخفاء الحقيقة التي لا يعرفها إلا القليل والذين يمكن أن يكونوا شركاء فيها أيضاً.

بالرغم من أن جورج بوش الذي عمل في البيت الأبيض كنائب للرئيس كانت لدية معرفة قليلة بالسياسة الخارجية إلا أن هذا لم يمنع من اعتباره خبيراً في هذا المجال.

لقد كان معتقداً أن عمله كسفير للولايات المتحدة في الأمم المتحدة وكمدير عام لوكالة المخابرات المركزية ناهيك عن عمله في الصين كان له دور في إكسابه خبرة دولية، إلا أن هذه المناصب التي شغلها تحت رئاسة نيكسون وفورد كشفت عن حقيقة غريبة وهي أن هذه المناصب لم يكن لها أفق واسع في العمل حيث إن هذه المناصب كانت تتطلب منه الاطلاع علىٰ أجزاء الأمور وإظهار إخلاصه وولائه فقط.

كان عمل بوش كمندوب في الأمم المتحدة في إدارة الرئيس نيكسون غير نافع له حيث لم تتح له الفرصة لاختبار قدراته الدبلوماسية والعقلية. ولم يكن نيكسون وكيسنجر (الذي كان يعمل كمنظم للسياسة الخارجية) يعطيانه الحق في المبادرة ولا سيما في الأمور الهامة فالسفير كان رجلاً تفرض عليه الأوامر وليس رجلاً يؤخذ منه

النصح ، مثلاً ؛ عندما كانت تظهر أزمة كما حصل في الحرب الباكستانية الهندية كانت جميع الأوامر تأتي من البيت الأبيض.

بعد خدمة قصيرة كرئيس للجنة الجمهورية الوطنية أُنيطت ببوش مهام دبلوماسية جديدة وهي ، العمل في جمهورية الصين الشعبية كرئيس لمكتب ارتباط الولايات المتحدة هناك لكن هذا المنصب لم يمنحه الخبرة الكافية لأن هذا العمل كان بعيداً عن مقارعة السياسة والدبلوماسية ، ومع ذلك فقد عاد بوش من منصبة ذلك كخبير في أمور الصين.

في منصبه السياسي التالي كمدير لوكالة المخابرات المركزية تم تعيينه من أجل مهمة محددة وهي أن لا يعمل شيئاً. خشي الرئيس فورد أن يفقد ترشيح الحزب الجمهوري له للرئاسة وذلك بسبب الفضائح الكبيرة التي كانت تدور حول وكالة المخابرات فقام بتعيين جورج بوش كرئيس لوكالة المخابرات لإيمانه بأنه سوف يتجنب جذب وسائل الإعلام لهذه الوكالة المحاصرة. فجورج بوش لم يكن لديه الاهتمام الكبير ولا الطاقة الكافية لتحقيق مشاريع طموحة في وظيفته كمدير لوكالة المخابرات.

كان بوش علىٰ استعداد للعمل تحت رئاسة كارتر إلا أن كارتر استغنىٰ من خدماته.

في عام ١٩٧٧ وجد بوش نفسه كغيره من الموظفين الجمهوريين بلا وظيفة فقرر العودة إلىٰ موطنه (تكساس) وبدأ العمل برفقة صديقه بيكر الذي كان قد أنهىٰ الحملة الانتخابية الفاشلة للرئيس فورد، يُنظر إلى تاريخ بوش في أربع مهام رئيسة أعطته بعض الشهرة في الحزب الجمهوري ، وقد أضاف بوش عناوين لإسمه وهذه مهارة اكتسبها خلال سنوات دراسته في أكاديمية (فيليب إندوفر) بخلفيته السياسية المحدودة وقلة خبرته ما عدا انتخابه لمرحلتين في الكونجرس حيث دخل بوش إلى البيت الأبيض كنائب للرئيس رونالد ريغان.

بالـرغم من قلة معرفة بوش بالسياسة الخارجية إلا إنه خلال الثماني سنوات استطاع أن يتعلم كيفية التعامل مع وسائل الإعلام وتمكن أيضاً من اكتساب بعض الأساليب الفنية في حكومة البيت الأبيض حيث كان مطلعاً علىٰ أدق تفاصيل حكومة ريغان. لقد كان لإرسال بوش في المهام الخارجية الرسمية التي كان يتجنب الرئيس حضورها مثل الجنازات، دور كبير في ظهوره علىٰ المسرح العالمي وتعرفه علىٰ قادة العالم.

لم يكن بإمكان ريغان أن يعلّم بوش شيئاً في السياسة الخارجية وذلك لأنه هو نفسه لا يعرف شيئاً عنها، فقد كان ريغان معتاداً علىٰ سرد القصص والظهور علىٰ العامة وأخذ التوجيهات من أعوانه ولم يكن يهوىٰ الحوار والنقاش، فإذا أراد بوش أن يأخذ تعليمات بخصوص السياسة الخارجية فإن عليه أن يسأل في مكان آخر. ولكن القول إنه لم يكن يوجد في البيت الأبيض خبراء في السياسة الخارجية يمكن لنائب الرئيس أن يستشيرهم. لقد أصبح منصب مستشار الأمن القومي غير ثابت في عهد ريغان وذلك بسبب التغيرات الكثيرة في أصحاب هذا المنصب وهذا إما إن يدل علىٰ جهـل الـرئيس في موضـوع السياسـة الخـارجية أو عدم قدرتـه علىٰ اختيار الأشخاص المناسبين، ومن هنا كانت السياسة الخارجية مكاناً لإخفاق العديد من الرجال.

كان من الـطبيعي أن يتعلم بوش الكثير وذلـك من خلال مراقبته للرئيس في مجلس الأمن القـومي والاجتماعات الأخرىٰ حيث كان دائماً يجلس صامتاً. وقد انتشرت شائعة عن طريق أعوانه المخلصين أنه كان يريد إبداء رأيه للرئيس خلال جلسات خاصة علىٰ الغداء وهذا يثير بعض التساءلات. فما هي الأفكار التي كان يُمليهـا علىٰ الرئيس وهذه الثقة المتبادلة بينهما؟ ولماذا يكون صريحاً جداً عندما يكونان منفردين بينما يلتزم الصمت بوجود الآخرين؟ إن هناك سبباً وجيهاً لهذا كله وهو تودده للرئيس كما كان يفعل الآخرون.

لقد استطاع بوش أن يتعلم الكثير من السياسة والمكائد الاجتماعية التي كان يُطلعه عليها بيكر حيث أن هذا الآخير حقق تقرباً غير طبيعي من الرئيس حتىٰ أن السيدة الأولىٰ استخدمته، ولا يمكن التكهن إذا كان بوش وبيكر قد أثارا الإشاعات وحاكا المؤامرات في مكاتبهما السرية حتىٰ تمكنا من تعيين نفسيهما في الرئاسة.

كانا يؤمنان أن بإمكانهما القيام بالإعمال مثل الرئيس إذا تمكنا من معرفة الفن الذي ينفرد فيه الرئيس وهو السياسة الأمريكية لقد كان الرئيس يعرف أشياء لا يعرفانها فقبلا أن يكونا من تلاميذه. بالنسبة لبوش فقد كان يؤمن كما يؤمن الآخرون في الخارج بأن الرئيس رجل مُسن ومريض تولىٰ عملاً كثير المصاعب ولا مجال فيه للتراخي لكن الرئيس خرق جميع القوانين واستمتع بالراحة والاسترخاء.

لقد تعلم بوش عن الرئيس درساً مهماً وهو أن السياسة عبارة عن خداع حيث يمكنها أن تظهر الرجل بريئاً حتىٰ لو كان مذنباً ـ إلا أن ريغان الممثل يختلف عن ريغان الرئيس فهو شاب ولد في الغرب في ظل ظروف متواضعه حيث كان أبوه يكثر من الشراب وقد حقق شهرة كممثل مستغلاً مظهره الجميل، تمكن ريغان من تكوين ثروة كانت كافية لشراء مزرعة كبيرة في كاليفورنيا ليصبح رجلاً ذا ثروة ومكانة، وبالرغم من زواجه من إمرأة ثرية إلا أن قناعته بالديمقراطية والمساواة الاجتماعية التي لم يفعل شيئاً ليعززها لم تتزحزح.

بدأ ريغان حياته السياسية بالرغم من خبرته القليلة بالعالم الخارجي بقوة كحاكم لولاية كاليفورنيا ومن هناك استطاع أن يصل إلىٰ البيت الأبيض. وسوف ينتهج بوش نفس الأسلوب والطريقة ولكن بنشأته الأمريكية السليمة.

كان ريغان مهتماً جداً بوسائل الإعلام حتىٰ أنه كان لا يفوت أي فرصة للظهور أمامها وأخذ الصور وكان يحرص هو وزوجته علىٰ إظهار نفسيهما بأسلوب مدروس لكسب الرأي العام وقد راقب بوش كل ذلك واكتشف سراً مهماً وهو أن الشعب

الأمـريكي يحب الـرئيس الـذي يمـدحـه والذي يحسن سرد القصص ويستخدم السخرية والدعابة ليصل إلىٰ أهدافه السياسية فقد حقق الرئيس حضوراً جيداً ولو كان ذلك عن طريق شاشة التلفزيون. إلا أن بوش لم يكن يمتلك مثل هذه الصفات الشخصية التي كانت لدىٰ الرئيس حيث بدا الرئيس محباً للناس يشاركهم أحلامهم بطريقة لم يستطع أحد من أسلافه أن يستعملها وكان كتوماً جداً، وتعلم بوش أيضاً كيفية استخـدام الدين للتغني بالفضيلة الأمريكية فقد كان التكلم عن الدين أكثر أهمية من التكلم عن الحرب، وكيف أن الحرب كانت تُنفذ تحت اسم الحملات الأمريكية المقدسة.

كان الرئيس بخيلاً وهو يدرك كيف أن مثل هذه الضربات يمكن أن تنتشر بين العامة، وكان بوش مدركاً لهذه الحقيقة وأدرك أيضاً عدم إبداء أي شخص توجيهات أو انتقادات للرئيس ريغان. إن الشكوك التي كانت تدور حول تدخلات الحكومة الفيدرالية قد ساعدت علىٰ انتخاب كارتر ومن بعده ريغان فلماذا لا تساعده هذه الشكوك في الوصول إلىٰ ما يريد لا سيما وإنه كغيره من أعضاء الحزب الجمهوري يسـاوي بين إنفاق الحكومة الفيدرالية والخسائر الحكومية فكان الرئيس الأمريكي يتجـاهل المصاريف التي تُنفق علىٰ التجهيزات الكبيرة لبناء دفاعات ضد الخطر السـوفييتي ويتنـاول النفقـات التي يُقـرهـا مجلس النـواب الـذي كان في يد الـديمقـراطيين، إلا أن هذا في نظر الرئيس غير كافٍ للحد من جشع الليبراليين ورغبتهم في الإسراف. ومع استمرار وجود هذا الخلل في الحكومة الفيدرالية فإن الذين يؤمنون بما يؤمن به الرئيس سوف يتوقعون نمواً اقتصادياً يحقق دخلاً قادراً علىٰ إصلاح الأخطاء علىٰ مستوىٰ جديد من الرفاهية الأمريكية ولكن عند فشله في تحقيق ذلك تجاهل الرئيس الدليل وكان الصمت أفضل عندما كان الكلام يفتقر إلىٰ الصدق.

حاول بوش جاهداً أن يظهر نفسه كرجل اقتصاد لكنه كان دائم التحفظ، فلم

يكن يطمح كما فعل غيره مثل ديفيد ستوكمان في تكوين ثروات لأنه لم يكن بحاجة إلىٰ المال بل كان يطمح إلىٰ الصعود وتسلق السلم. ولكن بالرغم من ازدهار البلاد المستمر وحصد الملايين من الدولارات فإن نسبة البطالة ارتفعت إلىٰ (٧,٩٪) في عام ١٩٨٢ وبقي الرئيس هادئاً علىٰ أمل أن تحل المشكلة نفسها.

في عام ١٩٨٤ جاء موعد الانتخابات وهي نقطة مهمة في حياة ريغان السياسية مع وجود الملايين الذين لم يستفيدوا من هذا الازدهار وكأنهم غير موجودين وعلىٰ أية حال لم يشتركوا في الانتخابات. وانتهج الرئيس أسلوب الاعتماد علىٰ النفس في هذه الانتخابات وكأن نائب الرئيس موجوداً وشهد ذلك النجاح السياسي حيث أدرك تماماً أن دفتر ملاحظاته أهم بكثير من تحقيق انتصارات غير ثابتة في السياسة الخارجية.

في الشهر العاشر من عام ١٩٨٤ تمكن ريغان من تولي الحكم لفترة جديدة متغلباً علىٰ منافسه ومحققاً نصراً لم يشابهه فيه سوىٰ روزفلت الذي فاز في أربع فترات متتالية وهو نصر مشابه لنصر جونسون علىٰ باري جولد ووتر عام ١٩٦٤ وفوز نيكسون علىٰ منافسه عام ١٩٧٢. لقد أدرك بوش أن السياسة الخارجية ليس لها تأثير علىٰ الناخبين، فبالتالي لم يكن هناك داعٍ للاهتمام بها. لقد كان الرئيس مهتماً بمساومة الجماعات الضاغطة ورجال الكونجرس أما اهتمامه بالشؤون الخارجية فقد ظهر في فترته الرئاسية الثانية.

بالرغم من أن ريغان كان يهاجم الاتحاد السوفييتي في سنواته الأولىٰ إلا أنه تمكن من إحداث تغير في العلاقات في سنواته الأخيرة، ففي اجتماعه مع غورباتشوف في أيسلندا أقنع ريغان نفسه بأنهما قد تمكنا من تحقيق حلم البشرية وهو تخليص العالم من القوة النووية لكن هذه القمة فشلت بسبب إصرار غورباتشوف علىٰ ضرورة تخلي الولايات المتحدة عن مبادرة الدفاع الاستراتيجي الدفاع وقد التزم

بوش الصمت حيال هذه القمـة مراقباً ما يمكن أن تصنعه لتحسين سمعة الرئيس كرجل سلام.

اعتبر حلفاء أمريكا هذه القمة مصيبة وقد صرح رئيس وكالة المخابرات إن هذه القمة لم تكن منظمة تاركاً الرئيس معرضاً للهجوم، لقد كان الرئيس يتخيل أنه حقق إنجازات طيبة في هذه القمة وكان علىٰ وشك تحقيق نصر دبلوماسي كبير ولكن أحداً لم يكن قادراً علىٰ إخباره بالحقيقة.

قـال مايكل هوارد وهو أستاذ تاريخ في جامعة أكسفورد إن هذه القمة ساهمت في تفريق الرأي العام الأوروبي. أما بوش فلم يُبْدِ أي اهتمام بهذه الآراء ولكن الذي كان يهمه أن هذه القمة لم يكن لها تأثير في الولايات المتحدة وقد اتضح أيضاً أن الشعارات التي كان يرفعها الرئيس بخصوص إزالة الصواريخ النووية وإيجاد عالم خال من الأسلحة النووية بحلول عام ١٩٩٦ كانت كلها محض خداع.

ومن وجهة نظر رئيس وكالة المخابرات فإن هذه القمة كانت كارثة بسبب المثالية الـزائـدة والاستعـداد المتبـاين، لكن بوش كان مدركـاً لحقيقـة أن هذه المثالية الزائدة للرئيس لم تكن خداعـا بل حقيقـة، وسواء أكان هناك فرق بين بوش وريغان فإن الإثنين عاشا نفس الظروف والقيم السياسية والاحتياجات فكان بوش يحرص علىٰ التظاهر بسير الأمور بشكل جيد في الولايات المتحدة.

عرف بوش الرئيس ريغان وزوجته حق المعرفة، وكان يعرف أيضاً أن الرئيس استطاع المحافظة علىٰ أخلاق الأمة وكانت هذه خدمته المميزة، وقد عرف بوش مدىٰ أهمية هذا بالنسبة له وللحزب الجمهوري. لقد كان بوش يعلم أن الرئيس وصل إلىٰ الرئاسة وهو لا يملك أي خبرة في أمور السياسة الخارجية، وقد كان مدركاً للفرق بين الرئيس الذي يعي أمور السياسة الخارجية والذي يجهلها من خلال وجوده في فترة رئاسة نيكسون.

ولـو خُيِّر بوش بين ريغان ونيكسون في هذا المجال فلن يتردد في الاختيار، الفرق بينهما هو أن نيكسون فشل وريغان نجح. لقد كان بوش مدركاً لمفهوم النجاح الذي كان هدفه منذ صغره وكان يتوقع أن يقف مكان الرئيس في يوم ما، ولا سيما أن شبابه وطاقته يعطيانه الأفضلية.

لقد انتقدت وسائل الإعلام الأخطاء التي وقع بها ريغان مثل العمل أربعة أيام ونصف في الأسبوع، وانتقدت أيضاً قدرته علىٰ طمس الحقائق لكن بوش كان يعرف شيئاً أخطر من ذلك وهو أن الرئيس كان يفتقر إلىٰ لغة الحوار فكان نادراً ما يدخل في نقاشات سياسية في البيت الأبيض وإن كان لا بُد من الحوار فإنه يختصر ويتكلم عن الأمور بسطحية. وقد كان يظهر نفسه كرئيس مخفياً عدم قدرته علىٰ التحدث بالصمت أو عن طريق سرد القصص.

كان المحققـون في قضية إيران ـ غيت مخـطئين عنـدما اعتقدوا أنهم سوف يسيئون إلىٰ سمعة الرئيس الذي أقر الخطط الخاصة ببيع الأسلحة إلىٰ إيران مقابل إطلاق سراح الرهائن. وكان بوش يعلم أن وسائل الإعلام قد جهلت هذا الهدف وأنهـا لم تعلم بالحقيقة الكاملة حيث أن مثل هذه الحقيقة كانت معروفة للبعض القليل بمن فيهم بوش وهذا أوجد الحماية للرئيس ريغان. ومن هنا عرف بوش حقيقة أخرىٰ من الرئيس وهي عدم الخوف من وسائل الإعلام ما دمت تستطيع التصرف بوجودها، ففي حين بالغ الرئيس نيكسون في تقييم أثر وسائل الإعلام فإن ريغان كان يتعامل معها بسهولة وكان بوش يعي أن وسائل الإعلام تبالغ في قوتها وقد استغرب كيف أن الرئيس استطاع احتواء وسائل الإعلام، ففي قضية ووترغيت، علىٰ سبيل المثال بقيت وسائل الإعلام متشككة حول ما إذا كان الرئيس يعلم بذلك أو لا يعلم لأنهم لم يُخبروا بالحقيقة وبالتالي فقدوا القصة الحقيقية.

أصبـح الرئيس مُنزهاً وأصبحت الرئاسة في عهده كحكومة ملكية، إن ريغان

المنتخب مرتين متتاليتين أصبح بمثابة ملك للشعب بالرغم من منحه سلطته لبعض أعوانه الأوفياء. وكانوا في خدمته وأرادهم أن يكونوا حراساً لقصره ولكنهم لم يحلّوا محل ضميره حيث إنه ليس بحاجة لمثل هذه الخدمة فقضية إيران ـ غيت هي قضية كولونيل صغير وأدميرال ورئيس متعجرف كان يريد النجاح لهذه القضية بالرغم من جهله في الشؤون الخارجية مع عدم وجود وزير للدولة يُثنيه عما يقوم به.

إن الفساد في إدارة ريغان لم يكن بسبب العمليات المحظورة أو غسيل الأرصدة السرية بل جاء من شيء أكثر مكراً وخبثاً والذي لم يكن بنية الرئيس تغييره وكذلك المستفيدين من هذه الأمور بمن فيهم جورج بوش، والذين عملوا مع الرئيس كانوا مدركين إلىٰ أي مدىٰ بلغ عدم اهتمامه بما يدور من حوله. لقد عملت مجموعة صغيرة في البيت الأبيض علىٰ التقليل من شأن الرئيس وفي نفس الوقت لم تناصره فقد اشتركوا في مسرحية سرية وأخفوا ما يعرفون مستغلين الرئيس كستار أو دعامة يرتكزون عليها.

لقد كان الرئيس وزوجته علىٰ تفاهم تام وقد استطاعا التعايش مع المنصب الكبير الذي ادخره لهما القدر، عندما تسلم الرئيس شؤون المكتب عام ١٩٨١ كان عمره قد فاق السبعين فكان يجب أخذ تقدم ريغان بالسن بعين الاعتبار، إن روزفلت كان عمره ستين عاماً عندما توفي وكذلك كيندي كان عمره في الأربعينات عندما ترك الرئاسة وبالنسبة لبوش فكان علىٰ وعي تام بحقيقة وهن الرئيس.

كان الرئيس ريغان يخفي وضعه الصحي فعمليات التجميل والتمارين الرياضية بالإضافة إلىٰ فترات الراحة كان لها دور كبير في إظهاره أصغر سناً وهذا بشهادة جرّاحه وكان يمكن لهذه الأمور أن تقضي عليه لو أنها عُرفت ولكن بدلاً من هذا كانت تظهر أنباء شفائه السريع والعجيب. وكان الرئيس يحرص علىٰ إبقاء خفة ظله وعلىٰ سرد القصص للأطباء والممرضين الذين يأتون لزيارته ولم تكن وسائل الإعلام تُسلط الأضواء علىٰ مرض الرئيس بل تتجه إلىٰ أمور أخرىٰ مثل أخطاء الجنرال الكسندر

هيج لكن بوش كغيره من العاملين في البيت الأبيض يعلم بأن الرئيس علىٰ وشك الموت.

لم يكن أحـد من خارج البيت الأبيض يعلم ما كشفتـه شهـور العمل الأولىٰ للرئيس من عادات وتصـرفـات وقـال السكـرتير هيج عن إدارة ريغان في ساعاتها الأولىٰ: «كـان البيت الأبيض مكتـظاً بإناس محددين يمثلون أصدقاء الرئيس في كاليفورنيا والأعضاء البارزين في الحزب الجمهوري بمن فيهم نائب الرئيس، وقد ركز هيج علىٰ صديقين حميمين لريغان وهما ميز وديغر ولم يقل الكثير عن نائب الرئيس.

لم تكن لبوش الذي كان صديقاً حميماً لجيمس بيكر أي سلطات دستورية إلا أنه كان علىٰ اطلاع على المعلومات السياسية السرية وكذلك التقرير اليومي للبيت الأبيض. لم يكن هيج يعرف أهمية موقع نائب الرئيس الجديد وذلك لأنه كان مهتماً بمسؤولياته ومشاكله، ولم يكن يعتقد أيضاً بأن التأثير في البيت الأبيض سوف يكون في يد اتحـاد بوش وبيكـر أو اتحاد ميز وديغر وكان اهتمامه منصباً علىٰ ديغر وميز لغرورهما بنفسيهما ومراكزهما ولم يُبدِ أي اهتمام ببوش وبيكر.

ما الذي سوف تحققه هذه الإجراءات للسياسة الخارجية؟ مَنْ سوف يطبقها؟ ما الذي سيُصر عليه الرئيس؟ ما الذي سيفعله الآخرون؟ كل هذه الأسئلة لم تكن مطروحة، لو أن جورج بوش وبيكر دخلا إلىٰ البيت الأبيض حاملين معهما بعض الأهداف في السياسة الخارجية فإنهم سوف يتدخلون ويعملون علىٰ تحقيقها ولكن كليهما لم يكن يعرف الكثير عن الموضوع وكان جُل اهتمامهما منصباً علىٰ تحقيق تقدمهما السياسي الخاص. فقد كانا يخططان من أجل مستقبلهما الخاص وقد اقتنع بوش وبيكـر بأن هيج لا ينتمي إليهمـا فقـد كان في نظرهمـا عدائياً ويسعىٰ إلىٰ استقلالية في البيت الأبيض فرجل كهذا لم يكن جديراً بثقتهما فعملا ما في وسعهما للخلاص منه.

لقد كان هيج أول شخص يقع في إدارة ريغان وقد خرج لأن رجال البيت الأبيض لم يثقوا به وكانوا يضعون العثرات في طريقه ولا يطلعونه علىٰ المعلومات السرية التي كانت في أيديهم. لم يكن هذا بسبب وجود سياسة خاصة لم يتقبلها هيج بل علىٰ العكس فلم يكن هناك سياسة علىٰ الأقل في الشؤون الخارجية.

لقد كان رونالد ريغان يؤمن بالطاعات التقليدية فلم يكن يعتبر نفسه عبقرياً أو سياسياً محنكاً. لقد كان عبارة عن حاكم ورجل أعمال وهذا ما أراد أن يعرفه الناس عنه. لقد جاء إلىٰ البيت الأبيض لأنه وزوجته حلموا بالحياة هناك وقد كان الكسل وعدم الاكتراث هي الصفات المميزة لتصرفاته حتىٰ قبل إصابته وإجرائه بالعملية الجراحية عام ١٩٨٥ والعملية الجراحية عام ١٩٨٧ ونتيجة لعدم قدرته علىٰ القيام بالمفاوضات الدولية المعقدة وافتقاره للخبرة في السياسة الخارجية فقد قرر الرئيس أن يتعامل مع الدبلوماسية كمسرح.

لقد كان هيج يتخيل أن بإمكانه حل الخلافات العربية الإسرائيلية بتحسين أوضاع الفلسطينيين ولكن هذا كان محض خيال، وقد وجهت أمريكا أنظارها نحو الخليج العربي ولا سيما بعد أن خرجت إيران من المعسكر الأمريكي حيث إن آية الله الخميني تصرف مع أمريكا كما تصرف أنور السادات مع الاتحاد السوفييتي قبل عشر سنوات فقد خرق هذا الأخير اتحاداً كان مبنياً علىٰ بيع الأسلحة والمصالح الجغرافية المشتركة ولقد كانت السعودية المرشح القوي للعب الدور السياسي والعسكري في المنطقة. ولقد مهد الرئيس كارتر لهذا العمل في آخر فترة من رئاسته عندما عرض علىٰ الملك السعودي أغلىٰ البضائع الأمريكية وهي السلاح الحديث وأراد ريغان أن يحقق هذه الالتزامات بما يعود بالنفع علىٰ بلاده، فقد عرف الأمريكيون أن الطريق إلىٰ قلب ومحفظة السعوديين كان عن طريق تزويدهم بالأسلحة ذات التقنية العالية. وعمل نائب الرئيس خلال معاناة ريغان من إصابته بالعيار الناري علىٰ التسريع بخطة لبيع طائرات أواكس للسعودية مع علمه بقيمتها التجارية والسياسية.

واتفق هيج وبوش علىٰ بيع السعودية طائرات الأواكس حيث إن هيج كان مهتماً بالجغـرافية السياسية وبوش مهتماً بمركز بترول الشرق الأوسط وكان عليهم إقناع الكونجرس بالموافقة بغض النظر عن المعارضة الإسرائيلية لو أن وزير الدولة كان محقاً في أن السعوديين يرغبون في التعاون مع الولايات المتحدة وذلك لمعاناتهم من الأرهاب والحركات الإسلامية فإن هذه سوف تكون فرصة ذهبية للإدارة الجديدة.

وكان نائب الرئيس يعتقد أن الطريق للعالم العربي يتمثل في التعاون مع دولٍ عربية محايدة مثل الكويت والسعودية حيث كان يطمح من وراء هذه الصداقة في استمالة العرب ليغفروا للسادات خيانته المتمثلة بإحلال السلام مع إسرائيل وكذلك أيضاً سوف يتراجع النفوذ السوفييتي في المنطقة وتتمكن إسرائيل من الدخول في مفاوضات حقيقية مع العرب تحت شعار الأرض مقابل السلام وبالتالي جعل الشرق الأوسط هادئاً تحت الوصاية الأمريكية.

كانت هذه النظرة خيالية لأنها تناست المشاكل المعقدة بين العرب وإسرائيل وبما أن وزير الدولة قد عاش حالة عدم الاستقرار في المنطقة بوجود السعودية بنفطها وأموالها محاطةً بدول متعادية مثل العراق وإيران اللتين دخلتا في حرب مدمرة وبالتأثير الكبير للاتحاد السوفييتي علىٰ سوريا والحرب الأهلية في لبنان ووجود منظمة التحرير الفلسطينية ونبذ هذه الدول لمصر كل هذا جعل عملية بيع الأواكس تُحدث تقدماً مفاجئاً في العلاقات بين أمريكا والدول المحايدة في العالم العربي.

لقد كان رأي وزير الدولة مستنداً إلىٰ وجة نظر السادات في التقسيم الجغرافي سياسياً فالسادات كان يرىٰ أن الاتحاد السوفييتي يتبع سياستين هلاليتين في الشرق الأوسط وإفريقيا فالأولىٰ تمتد من العراق وسوريا واليمن وحتىٰ الصومال وأثيوبيا، أما الثانية ففي جنوب إفريقيا وخاصة في المستعمرات البرتغالية. لقد كانت الأهداف السوفييتية كما يراها السادات ترتكز علىٰ قسم إفريقيا إلىٰ قسمين وعزل الدول العربية

وإبقـائهـا تحت خطر إرهـاب ليبيا ومنظمة التحرير ولا يبقىٰ أمام الولايات المتحدة سوىٰ توسيع دفاعاتها.

بعد عدة سنوات كتب وزير الدولة عن صفقة الأواكس يقول إن ثمنها بلغ ثمانية مليارات ونصف وكان لهذا المبلغ التأثير الكبير علىٰ الصناعة والعمل في أمريكا وكان له وزن ثقيل في مجلس الأمن القومي ولكن السؤال الكبير الذي يبقىٰ هو هل سيفهم النواب الأمريكيون جهود الحكومة أو ستعارض إسرائيل هذه الجهود؟ من الناحية القانونية فإن مثل هذه الصفقات لا تتم إذا عارضتها الأغلبية في مجلسي الكونجرس أما إذا أقرها مجلس ورفضها مجلس آخر فإنه يُكتب لها الحدوث، وكان الرئيس واثقاً من موافقـة مجلس الشيوخ ذي الأغلبية الجمهـورية بعكس المجلس الآخـر ذي الأغلبية الديمقراطية.

في الشهر الرابع من عام ١٩٨١ أقر مجلس الأمن القومي برئاسة بوش حين كان الـرئيس في المستشفىٰ ـ أقـر مشـروع بيع السعودية طائرات الأواكس (و إف ١٥)، وكـانت الخـطوة التالية أخذ موافقة مجلس الشيوخ. وفي غمرة هذا الانشغال في الإدارة الأمريكية قامت إسرائيل وبشكل مفاجىء بضرب المفاعل النووي العراقي الـذي يقـع علىٰ بعـد عشـرة أميال من بغداد وفي الأشهر اللاحقة قامت إسرائيل بعمليات عسكرية للقضاء علىٰ الوجود الفلسطيني في لبنان حيث كان الفلسطينون يغيرون منه علىٰ المستعمرات الإسرائيلية. لقد انزعجت الحكومة الأمريكية بسبب هذه الأحـداث وبـدت وكأنها لم تحقق شيئاً واستمر الرئيس في محادثاته لكسب موافقـة مجلس الشيوخ علىٰ المشروع آملاً ضغط اللوبي الصهيوني ولا سيما أن الجمهوريين أصبحوا أقل اعتماداً علىٰ أصوات الناخبين اليهود وفي ٢١ ـ ١٢ حقق الرئيس انتصاراً ضد الاتجاه الرافض للمشروع وكان التصويت بنسبة ٤٨ إلىٰ ٥٢.

خرج وزير الدولة بهذا النصر واعتبره أمراً ذا أهمية كبيرة ـ لأن هذه القضية كانت ضربـة مؤلمة لإسرائيل وذلك لأسباب واضحة وكانت محرجة للسعوديين في نفس

الوقت وذلك بسبب استفسار مجلس الشيوخ عن مصداقيتهم وعدم ثقته بهم. وقال هيج مشيراً إلى العلاقات الإسرائيلية الأمريكية لاحقاً: «أخشىٰ أن صداقتنا القديمة وقيمنا المشتركة وتاريخنا الواحد سوف يتعرض للكثير من الاختبارات»، أما عن رأيه في المشروع بعد عدة سنوات فقد كان حذراً في إبداء أي رأي، وأما بالنسبة لبوش فقد كان سعيداً بمشاركة الرئيس في جني أصوات الناخبين لكنه التزم الصمت.

مثل هذه الانتصارات لعبت دوراً في تغيير النظرة للإدارة الأمريكية علىٰ أنها تفتقر إلىٰ السياسة الخارجية في الشرق الأوسط، ولكن الرئيس ووزير الخارجية فشلا في وضع خطة للسلام في الشرق الأوسط وذلك لأنهما بالغا في أهمية وتأثير أمريكا علىٰ المنطقة وكذلك بسبب تصلب العرب والإسرائيليين. والذي جعل الأمور تزداد سوءاً هو المشاعر المعادية للعرب والتي كان لإسرائيل الدور الكبير في إيجادها. فمثلاً الأمريكان كانوا يكرهون السعوديين وينظرون إليهم علىٰ أنهم منافقين ومسرفين يتظاهرون بأنهم محاربون والحقيقة أنهم مجرد تجار ومستهلكين للصادرات الأمريكية فبالتالي لا يمكن أن يشكلوا أي خطر علىٰ الدول المجاورة بالرغم من قوتهم الجوية.. كل هذا كان جزءاً من الازدراء الأمريكي للشرق الأوسط عامة وللدول المسلمة خاصة الذين يحجبون نسائهم ويحتملون الظلم ويعتقدون أن الحضارة عبارة عن مباني وتكديس للأسلحة.

لقد عورض هيج كوزير للدولة ليس بسبب وجود سياسة خارجية أخرىٰ بل بسبب عدم وجود سياسة أخرىٰ. فنائب الرئيس حكم عليه من خلال نزاعاته في البيت الأبيض مع هؤلاء الذين لم يتمكنوا من فهمه. وهذا كما هو معروف كان له علاقة ببيع الأسلحة. وفي فترة رئاسة ريغان ارتفعت القروض الأمريكية وزادت صفقات الأسلحة إلىٰ مصر. وأصبحت أمريكا البنك الممول لمصر بعد اتفاقية كامب ديفيد أما قبل ذلك فقد كانت السعودية تقوم بهذه المهمة في نطاق اتفاقية مشتركة لمواجهة الخطر الصهيوني. ولم يكن بإمكان إسرائيل عمل شيء إزاء هذه الأمور ولم تكن

قادرة علىٰ معارضة هذه الصفقات وكان أعداؤها في المنطقة والمدعومون من الاتحاد السوفييتي يتمثلون في سوريا ليبيا والعراق.

إن السياسة الأمريكية بعد عام ١٩٨١ كانت تعتمد علىٰ تزويد مصر بالأسلحة لتحسين العلاقات وعلىٰ أمل أن العلاقات التقليدية بين مصر والسعودية ستعود يوماً ما. في هذه هذه الظروف كانت الحرب العراقية الإيرانية تشغل فكر الحكومة الأمريكية ولقد كان هناك تشابهاً في موقف كل من إسرائيل وأمريكا حيال هذه الحرب، فكلاهما كان مسروراً لرؤية هذين البلدين يتحاربان وبالإضافة إلىٰ ذلك فإن أمريكا كانت مشغولة بإسرائيل والعربية السعودية والأردن ومصر ولبنان. فمهمة إحلال السلام بين إسرائيل والقوىٰ المتنازعة في لبنان كانت تحتاج إلىٰ جهود هائلة ولا سيما مع وجود الصراع بين سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية والصراع بين اللبنانيين المسلمين والمسيحيين وإسرائيل وأحياناً الاتحاد السوفييتي وإسرائيل التي كانت تشكل عقبة أمام الإدارة الأمريكية لم تكن تتبع التعليمات الأمريكية .وبالرغم من التحذيرات الأمريكية بعدم القيام بأي عمل عسكري في لبنان فقد قامت إسرائيل بهجوم واسع علىٰ لبنان وذلك لهدفين: الأول إنهاء عمليات القصف الفلسطيني ضد المستعمرات الإسرائيلية. والثاني إهانة وتدمير منظمة الفلسطينية.

لقد حقق الهجوم الإسرائيلي الذي بدأ في ٦ ـ ٦ ـ ١٩٨٢ نجاحاً عسكرياً كبيراً حيث تم تحطيم الطيران السوري وتمت هزيمة الجيش السوري، وكذلك كان الحال بالنسبة لمنظمة التحرير حيث تجمع أفرادها في بيروت. وقد دفع قرار سوريا بإرسال قوات إضافية إلىٰ لبنان دفع الرئيس الإسرائيلي للتهديد بتدمير صواريخ سام ٦ السورية الموجودة في البقاع. وبعد ساعات من هذا التهديد أغارت الطائرات الإسرائيلية علىٰ مواضع الصواريخ ودمرتها مسقطةً (٢٣) طائرة سورية وتمكنت من العودة دون فقدان أي طائرة.

وقد حملت سوريا مسؤولية خسارتها لهذا العدد من الطائرات للاتحاد السوفييتي

لتزويده بطائرات رديئة، واعتبر وزير الدولة أن الفرصة مواتية لخروج إسرائيل وسوريا من لبنان وكذلك المنظمة من بيروت ولكن تقديره كان خاطئاً حيث إن أمريكا فشلت في إقناع سوريا وإسرائيل وبسبب هذه القضية كان تبرير هيج لاستقالته غير مقنع. والعقبة هي أن الرئيس كان يعمل علىٰ إيجاد انسجام في الآراء بين معاونيه بمن فيهم بوش وذلك لجهله في السياسة الخارجية، ووجود هيج كان يهدد هذا الانسجام.

بعد شهرين من رحيل هيج وإحلال جورج شولتز مكانه عمل الرئيس علىٰ تغيير موقفه في شؤون الشرق الأوسط، فقد كان ينوي تسريع عملية السلام وعمل اتحاد كونفدرالي بين الأردن وفلسطين إلا أن هذا الموقف لم يكتب له النجاح.

لقد كانت فكرة الخروج من لبنان فكرة مرغوبة، ولكن القوات السورية استطاعت أن تستعيد أنفاسها وذلك بسبب الدعم السوفييتي المتمثل بشحنات من الأسلحة التي قدر ثمنها بـ (٢,٥) مليار دولار فرفضت هي وإسرائيل الخروج من لبنان، مما كان له أثر كبير علىٰ مساعي الملك حسين الذي كان يقوم بإعداد ترتيبات خاصة بتشكيل فريق فلسطيني للمفاوضات حيث إن اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية رفضت هذه الترتيبات. والذي جعل الأمور تزداد سوءاً دعم سوريا لجماعة «أبو نضال» التي كانت معارضة لياسر عرفات. وقد كثف السوريون من هجماتهم ضد إسرائيل غير آبهين بالخطة الأمريكية للسلام، وفي المقابل عمل مناحيم بيغن علىٰ التوسع في بناء المستعمرات في الضفة الغربية.

مع التدهور الشديد للأوضاع في لبنان وفشل الوساطة الأمريكية في الضغط علىٰ إسرائيل وسوريا للانسحاب من لبنان، لم يكن مستبعداً ولا سيما مع وجود التأثير السوفييتي علىٰ سوريا تحول الرئيس الأمريكي للاهتمام في القضايا الداخلية ليعود للمنطقة مع حدوث مأساة جديدة. وبعد خطاب الرئيس ريغان في ١ - ٩ - ١٩٨١ وافقت منظمة التحرير علىٰ الانسحاب من بيروت وقد تم إرسال قطع

بحرية أمريكية وإيطالية وفرنسية لضمان انسحاب القوات الفلسطينية التي لم تغب لفترة طويلة.

بعد ثلاثة أسابيع من الانسحاب تم اغتيال الرئيس اللبناني بشير جميل الذي انتخب بدعم من إسرائيل. وعلىٰ إثر ذلك قامت القوات الإسرائيلية باقتحام بيروت الغربية بالرغم من وعودها لأمريكا بعدم فعل ذلك. وبأمر سري من أحد قادة الجيش الإسرائيلي الذي كان ممنوعاً من دخول المخيمات تم دخول المخيمات الفلسطينية بحجة البحث عن بقايا المقاومة الفلسطينية، وكان القرار ينص علىٰ أن البحث والتفتيش في المخيمات سوف يتم بواسطة الجيش اللبناني وعناصر جيش الكتائب. وبعد أيام صعق العالم بمجزرة بشعة ارتكبها أفراد الكتائب العميلة حيث ذُبِحَ المئات من الناس الأبرياء من أطفال ونساء وشيوخ. بعد وقوع هذه الأحداث طالب الرئيس اللبناني بعودة القوات الأمريكية سريعاً، وقد وافق ريغان علىٰ إرسالها ولكن بشكل مؤقت وليعملوا كفريق لحفظ السلام.

وكما قال الرئيس للكونجرس فإن هدفهم كان مساعدة اللبنانيين علىٰ استعادة الأمن والنظام في البلاد والقضاء علىٰ الإرهاب ولفرض سيطرة اللبنانيين المركزية. ولقد استطاعت القوات الأمريكية في البداية تحقيق بعض من النظام والأمن، ولكن في الشهر الثالث من عام ١٩٨٣ بدأت الهجمات الانتحارية ضدهم فجرج خمسة من رجال الجيش الأمريكي في هجوم انتحاري وبعد شهر قام شاب بتفجير سيارة مفخخة في مبنىٰ السفارة الأمريكية في بيروت مما أدىٰ إلىٰ مقتل ستين شخصاً وكانت هذه العمليات بدعم من سوريا مما وضع البلاد علىٰ حافة حرب أهلية. وفي الشهر الثامن من نفس العام قتل اثنان من الجيش الأمريكي وجرح (١٤) آخرون في اشتباك مسلح بين الجيش اللبناني والإسلاميين، ودفع هذا الرئيس الأمريكي إلىٰ إرسال (٢٠٠٠) جندي إلىٰ البحر المتوسط ليرابطوا علىٰ السواحل اللبنانية وكان هنا في ١ - ٩ - ٨٣ أي بعد عام من طرحه لمشروع السلام في الشرق الأوسط.

في ١٦ ـ ٩ ـ ٨٣ عاد عرفات سراً إلىٰ بيروت وفي اليوم التالي قامت قوات البحرية الأمريكية بقصف المواقف السورية في لبنان وقد حذرت سوريا من مغبة استمرار هذا الهجوم وإنها لن تلتزم الصمت، وفي ١٩ ـ ٩ تم تدمير مواقع الدروز علىٰ التلال المحيطة ببيروت وبرر البيت الأبيض هذا الهجوم علىٰ أنه ضروري لحماية القوات الأمريكية في لبنان. وقد انتقدت فرنسا هذه التصرفات وصوتت ضدها ولكن بدون فائدة، وكان الرئيس الأمريكي يعي عدم خطورة هذا العمل إذا ما قورن بالهجوم البري وكذلك لم يعارضه الكونجرس. ولكن تغيرت الحالة بعد مرور شهر ففي ٢٣ ـ ١٠ ـ ٨٣ نفذت عملية انتحارية تمثلت بتفجير ثكنات عسكرية للقوات الأمريكية مما أسفر عن مقتل (٢٤١) جنديا، ورافق هذا الهجوم هجوم آخر علىٰ القوات الفرنسية التي تتواجد في لبنان مؤدياً إلىٰ مقتل (٥٩) جنديا، وقد علّق الرئيس علىٰ هذا العمل بأنه عمل جبان وحاقد وذلكَ لتصوره بأن القوات الأمريكية لن تنسحب من بيروت. وفي حين عمل السوريون علىٰ تكثيف نشاطهم في بيروت قام عرفات بإنشاء قيادة له في وسط بيروت واعداً بأنه سوف يحارب حتىٰ النهاية ففي ٤ ـ ١١ ـ ٨٣ قام الفلسطينيون بهجوم مشابه للهجوم علىٰ الثكنات الأمريكية فدمروا القيادة الإسرائيلية تاركين ستين قتيلاً وثلاثين جريحاً لكن الرد الإسرائيلي كان سريعاً وتمثل بقصف المواقع الفلسطينية علىٰ المرتفات المحيطة ببيروت.

اجتمع رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد إسحاق شامير مع ريغان في واشنطن وتم الإعلان عن تأسيس لجنة مشتركة لتنسيق النشاطات العسكرية وبعد هذا بأيام خرجت طائرات من حاملة أمريكية وقامت بضرب للمواقع السورية في لبنان كرد علىٰ إسقاط السوريين لطائرات استطلاع أمريكية غير مقاتلة، وقد تم إسقاط طائرتين أمريكيتين وأسر طيار أمريكي، أما الخسائر السورية فكانت مقتل شخصين وجرح عشرة أشخاص. وفي نفس الوقت قامت مليشيات الدروز بهجوم علىٰ الجيش الأمريكي خارج بيروت مما أسفر عن مقتل جنديين أمريكيين، واستمر القصف البحري من الجانب الأمريكي حيث تم قصف المواقع السورية والدرزية بواسطة

المدافع العملاقة للبارجة نيوجرسي مما أحدث أضراراً كبيرة.

بدأ الـرئيس تحت ضغط من زمـلائـه وأعـوانـه في البيت الأبيض بالتفكير بالانسحاب من لبنان. إن كارثة أخرىٰ كالتي حدثت في ٢٣ ـ ١٠ كانت كفيلة في خلق مشاكل سياسية هو في غنىً عنها ولا سيما أن الانتخابات كانت قد اقتربت وهي أهم من أي مكسب يمكن أن يتحقق من الوجود في لبنان. ولكن وزير الخارجية كان يرىٰ أن القوات الأمريكية يجب أن تبقىٰ فالانسحاب المفاجىء سوف يفقد أمريكا مصداقيتها في الشرق الأوسط وهذا الأخير كسابقه لم يستطع فهم حسابات الرئيس ريغـان. كان الـرئيس مهتماً بالانتخابات، وكان فشله في تحقيق نصر في الشرق الأوسط قد جعل من لبنان رهاناً خاسراً بالنسبة له فكان لا بُد للبنان من الاعتماد علىٰ نفسها ودخلت بذلك فترةً من عدم الاستقرار كما كان الحال إبان الوجود الأمريكي.

إن المبادرة الأمريكية في الشهر التاسع من عام ١٩٨٢ لم تحقق شيئاً بل علىٰ العكس ورطت أمريكا في مشاكل مع إسرائيل، وبرهنت للأردن علىٰ عجز أمريكا أمام التعصب العربي الإسرائيلي، وكشفت أيضاً عن فشل الرئيس في معالجة هذه القضية فقـد دخـل في حرب عسكرية مع قوىٰ أضعف منه دون وجود أية أهداف استراتيجية لديه، ولم يدرك أحد من حاشيته المضاعفات السيئة لهذه العملية.

يمكن القول إن الإدارة الأمريكية اتبعت سياسة غير ثابتة في الشرق الأوسط بغض النظر عن تدخلها في لبنان وخروجها تاركةً الحرب مشتعلة ورائها. إن السياسة الأمريكية غير الثابتة كانت تتمثل في بيع الأسلحة بدون تمييز لكل من مصر والأردن وإسرائيل ولبنان إضافةً إلىٰ صفقات الأسلحة السرية لإيران والعراق والتي شكلت فضيحة كبرىٰ في الفترة الثانية من رئاسة ريغان.

لقد كان لاتفاق الأسلحة مقابل الرهائن أثر حسن بالرغم من اعتبارها هجوماً سافراً علىٰ العملية الديمقراطية حيث إنها نجحت في إبعاد أنظار الرأي العام ووسائل

الإعلام عن أخطاء سياسية أخرىٰ عديدة. لم يكن في نية أمريكا أن تتبع سياسة خاصة بالحرب العراقية الإيرانية لأنها لم تكن بحاجة لها، فقد اتبع الرئيس سياسة خارجية متقشفة دون الاستعداد لتقديم أي خسائر سياسية. صحيح أن أمريكا تدخلت عسكرياً في لبنان إلاَّ أنها كانت تتوقع عدم مواجهة المخاطر حيث إن سلاح بحريتها ضرب مواقع عربية محددة ولم تتوقع أن يكون الرد مؤثراً إلا أن سياسة ريغان التقشفية لم تنفع مع العرب ولا مع غيرهم. ويمكن القول إن الولايات المتحدة كانت بيد أشخاص يفتقرون إلىٰ الالتزام الأخلاقي.

لقد كان للتغيرات السياسية التي طرأت علىٰ الشرق الأوسط نتيجةً لعزل الشاه عن الحكم الأثر الكبير علىٰ السياسية الأمريكية في الفترة الثانية من عهد ريغان. تركزت هذه السياسة علىٰ الرهائن الأمريكيين لدىٰ الشيعة في لبنان والذين كانوا علىٰ تعاون مع إيران، كان الرئيس منزعجاً من وجود الخميني في إيران وذلك بسبب دعم إيران للإرهابيين الشيعة الذين كانوا يختطفون الأمريكيين ويعذبونهم ويقتلونهم وليس بسبب تهديد إيران للخليج أو السعودية.

سيطرت قضية الرهائن علىٰ الاهتمام القليل للرئيس في مثل هذه الأمور ولم يكن أحد من معاونيه علىٰ استعداد لإرشاده في هذه القضية، وبالرغم من تحركاته وانزعاجه فقد كان الرئيس عاجزاً عن إيجاد حلٍ لهذه القضية وقد أصبحت قضية الرهائن قضية أمريكا جميعها وربما كان الرئيس يؤمن في داخله بحقيقة تعرض حكومته للإذلال علىٰ أيدي متعصبين دينيين وسياسيين لكنه بالرغم من ذلك كان يرفض حل القضية بالقوة العسكرية كما فعل كارتر.

وفي النهاية أشار عليه مستشاروه باستعمال الورقة الرابحة في الشرق الأوسط وهي بيع الأسلحة حيث كانوا يعتقدون أن عملية بيع الأسلحة سوف تسرع في إعادة الرهائن المخطوفين وخصوصاً بعد فشل المحاورات السياسية. كانت الفترة الرئاسية الثانية للرئيس خاتمة مناسبة للأولىٰ فقد كشفت عن الهوة في داخل الحكومة نفسها

وبين الرئيس والشعب الأمريكي، وكانت قضية إيران ـ غيت أكثر من كونها عملية سرية حيث كانت أكبر احتيال علىٰ الأمة نُفذ عن طريق الخداع وكان نائب الرئيس علىٰ علم بهذا إلا أنه لم يخش أن ينكشف ذلك لثقته بمقدرة الرئيس علىٰ إقناع الناس بما يريد والذين لم يكونوا ليصدقوا بأن هذا الرجل كاذب.

كانت الانتخابات في الشهر الحادي عشر من عام ٨٤ عبارة عن رقصة زنجية للرئيس فلم يكن بحاجة إلىٰ جهد كبير للدفاع عن نفسه بخصوص فشله في تحقيق وعوده للناس بتخفيف العجز في الميزانية في السنة الثالثة وكذلك تحقيق فائض في السنة الرابعة. إن النتائج الأولية للانتخابات أظهرت للمسؤولين عنها أنها سوف تكون عبارة عن مرح صاخب، وفي إحدىٰ لقاءاته مع المؤيدين الجمهوريين أكَّدَ ريغان أن السياسة والأخلاق أمران متلازمان ولكنه لم يكن ليتطرق إلىٰ «أخلاقه هو» لأن هذا كان موضوعاً محرماً!.

كان أيزنهاور متردداً في ترشيح نفسه لفترة رئاسية جديدة وذلك لعلمه بحالته الصحية وشكه في قدرته علىٰ الاستمرار في مواجهة المصاعب وإعادة ترشيحه لنيكسون كنائب للرئيس لكن هذه الأفكار لم تخطر ببال ريغان أو نائبه. حصل الرئيس علىٰ شعبية محلية كبيرة وذلك لمؤازرة الجماهير المتملقة التي كانت تحرص علىٰ حضور خطاباته الشعبية، ولكن هذه الشعبية لم تكن بسبب فهمه أو إدراكه للقضايا المحلية والعالمية. وكان نائب الرئيس معجباً جداً بهذا الانتصار.

كانت مارغريت تاتشر أقرب صديق لريغان في الخارج وبلا منازع ولكن هذه الصداقة لم يكن لها تأثير كبير في الأمور السياسية، وكانت تاتشر كغيرها معجبة بالرئيس الذي هنأها بعد انتصارها في حرب الفوكلاند ومدحها في جلسة مشتركة أمام أعضاء البرلمان البريطاني وقال عنها إنها قادرة علىٰ اتخاذ القرارات المناسبة في الأوقات الحرجة، وقد امتدح أيضاً القوات العسكرية البريطانية حيث قال إنهم قاتلوا من أجل مبادئهم وليس من أجل أهداف مادية، لكنهم كانوا يؤمنون كما كانت تؤمن

رئيسة وزرائهم بأنهم قاتلوا من أجل إفشال العدوان علىٰ الفوكلاند.

بوجود مثل هذه العلاقة القوية بين الرئيس ريغان وتاتشر فإن الخلافات البسيطة لم يكن لها تأثير كبير، كانت تاتشر تعتقد أن الرئيس لا يخطىء لكن هذا لم يمنع من حدوث بعض الخلافات البسيطة كما حدث بخصوص جزيرة غرينادا، خضعت هذه الجزيرة لسلطة الشيوعيين مما أدىٰ إلىٰ تهديد الأمن والاستقرار فيها مع وجود (٨٠٠) أمريكي كانوا يعيشون فيها، ومن أجل الحفاظ علىٰ أرواح رعاياها في هذه الجزيرة قامت الحكومات المجاورة بتشجيع أمريكا وبريطانيا علىٰ التدخل في المنطقة لإعادة النظام وبينما تجاهل البريطانيون هذا الموضوع ولم يعطوه أي أهمية فإن الرئيس الأمريكي قرر التدخل عسكرياً في المنطقة فقام بإرسال قوة أمريكية إلىٰ الجزيرة للمحافظة علىٰ الأمن دون مشاورة البريطانيين ولا الكونجرس.

كان الغزو الأمريكي لغرينادا شرعياً حيث تم بناء علىٰ طلب من منظمة الدول الشرق كاريبية ولكن تاتشر لم تأخذ من الأمور هذا المنظور وطالبت الرئيس بتقديم تفسير لهذا التصرف فبرر الرئيس عدم استشارته للبريطانيين بسبب خوفه من تسرب معلومات عن هذه العملية السرية، ولم يتوقع الرئيس أن يُسأل عن مثل هذا التصرف لا سيما أنه مُعادٍ للشيوعية، ولبيان عدم رضاها عن هذا الموقف صرحت تاتشر لإذاعة (بي بي سي) تقول: صحيح أن معظم الناس في العالم يتمنون التحرر من الشيوعية لكننا لا نستطيع أن نذهب إليهم ببساطة ونقول إنهم أحرار من الشيوعية. إن هذا الأمر أدىٰ إلىٰ حدوث اختلاف بين تاتشر وريغان في معارضتهما للشيوعية لكن تاتشر حرصت علىٰ عدم الإدلاء بأيّ تصريح من شأنه إحراج الرئيس ولا سيما وأن حملته الانتخابية قد اقتربت.

لم تعارض تاتشر أو أحدٌ من حكومتها ردود الفعل الطيبة اتجاه هذه العملية لكن الرئيس الأمريكي لم يكتف بالمبالغة في وصف قوة أعدائه مع علمه بالخسائر الأمريكية بل إنه أخطأ في أسلوب عرض هذه المسائل. وفي معرض حديثه عن هذه

العملية الناجحة في سيرته الذاتية يقول الرئيس إن القضية بدأت في الساعة الرابعة صباحاً عندما استدعاه مستشار الأمن القومي «بد فرانكلين» لمقابلة وزير الخارجية من أجل مناقشة اتصال هاتفي ورد من جورج بوش الذي كان يشغل منصب الرئيس في البيت الأبيض حيث تم مناقشة ذلك الموضوع في تلك الليلة في خلال المناقشة التي كان الرئيس ريغان يعتقد فيها أن مثل هذا الوضع في غرينادا سوف يمهد لسيطرة الشيوعيين علىٰ الدول المجاورة مثل جامايكا وغيرها والتي كانت ترغب في المقاومة وطلبت العون من أمريكا، وكذلك أيضاً وجود (٨٠٠) طالب أمريكي واللذين يُتوقع أن يؤخذوا كرهائن، سأل الرئيس عن الفترة الزمنية الكافية للقيام بعملية إنقاذ سريعة فقيل له إن (٤٨) ساعة كافية فقرر القيام بهذه العملية وسميت بمهمة الإنقاذ ثم عاد إلىٰ النوم. وقد برر ريغان تكتمه علىٰ هذه العملية بعدم رغبته في معرفة الكونجرس بهذه العملية والذي بدوره سيعتبر أن البلاد ستتورط في حرب فيتنام جديدة ولهذا يمكن القول بأن حرب غرينادا كانت حرب الرئيس وحده وقد خاضها علىٰ مسؤوليته ولم تكن علىٰ مسؤولية الكونجرس.

هذه هي الأمور التي سيطرت علىٰ الرئيس في فترة رئاسته الأولىٰ ولكن ما هي الأمور التي سيطرت علىٰ تفكيره في الفترة الرئاسية الثانية؟ كان الإرهاب وشؤون أمريكا الوسطىٰ هو ما استحوذ علىٰ اهتمام الرئيس فقد كان ينظر لإيران ونيكاراغوا كمصدر جديد للجريمة في العالم بالإضافة إلىٰ ليبيا وكوريا الشمالية وكوبا، كانت هذه الدول في نظره خارجة عن القانون ويحكمها مجموعة من المجرمين، بالإضافة لهذه الأمور فإن الرئيس كان مهتماً بخطر التوسع الشيوعي في أمريكا الوسطىٰ والجنوبية وكذلك مشكلة الحرب العراقية الإيرانية وكيفية حلها لصالح الولايات المتحدة. بالطبع كان اهتمامه بإيران علىٰ أساس أنها دولة إرهابية تسعىٰ إلىٰ إثارة الدمار في العالم، إلا أن هذا الاهتمام بالحرب العراقية الإيرانية لم يدم طويلاً، وأصبحت قضية اختطاف الشيعة لأمريكيين في بيروت وأخذهم كرهائن أصبحت قضيته الوحيدة.

بالـرغم من المحـاولات الكثيرة والمحـادثات السرية المتعددة مع الخاطفين حرص الـرئيس علىٰ عدم الإعـلان عنها حيث قال في إحدىٰ خطبه إن الولايات المتحدة لا تكافىء الخاطفين ولن تقدم أي تنازلات، وباهتمام بالغ لهذه القضية وعجزه عن حلٍ لها تابع ريغان مناقشات مجلس الأمن القومي والمتعلقة بالخميني وكان النقاش يدور حول نهاية الخميني وأنها أصبحت وشيكة. ومن الطبيعي أن يهتم المجلس بهذا التغيير حيث ستستفيد منه أمريكا كثيراً.

لقد كانت أمريكا منخدعة بمدىٰ قوتها علىٰ التأثير في الشرق الأوسط وفي ظل وجـود هذه الأحـداث بدأ مجلس الأمن القومي بالتفكير في مبادرات متعددة لبيع الأسلحة لكن الرأي العام الأمريكي خصوصاً بعد قضية (إيران ـ غيت) أدرك كيف أن إسرائيل استغلت الولايات المتحدة وكيف إن إسرائيل وأمريكا خدعتا إيران وكيف الأربـاح استخـدمت بطريقـة غير شرعية لدعم قوات الكـونتـرا غير آبهين بموقف الكونجرس المعارض لمثل هذا الأمر فكانت هذه القضية عبارة عن احتيال.

في السادس من عام ١٩٨٥ اجتمع الرئيس بوش مع عدد من مستشاريه بمن فيهم نائبه ووزير الدفاع ووزير الخارجية لمناقشة مطالب المفاوضين الإيرانيين الذين كانوا يجرون محادثات مع أمريكا بخصوص الرهائن، وكان علىٰ أمريكا أن تُبدي استعدادها لبيع الأسلحة لإيران لكن جورج شولتز وواين بيرغر عارضا هذا العرض وقالوا: إنه من الخطأ الوقوع في مساومة الرهائن مقابل السلاح، لكن الرئيس كان غير حازمٍ بخصوص هذه القضية فلم يؤيد ولم يعارض.

وقد صرح مكفارلين معتبراً أن الرئيس قد وافق علىٰ أن هذه الأسلحة يجب أن تذهب للإيرانيين المعارضين للخميني ولكن لم يَسأل أحدهم عن ماهية الإيرانيين الطيبين أو لماذا قاموا بطلب التعاون مع أمريكا. أما بالنسبة لإسرائيل فكان دورها شحن الأسلحـة إلىٰ إيران ولم يُعـرف إذا ما كان نائب الرئيس قد أبدىٰ رأيه بهذا الموضوع. في الشهور اللاحقة اتضح أمران هامان: الأول أن الأسلحة كانت تُشحن

لإيران بواسطة إسرائيل، والثاني أنها لم تكن تُشحن لفصائل معارضة لإيران بل للحكومة الإيرانية. وقد وجد أحد الرؤساء التنفيذيين أنه لا بُد من إيقاف هذه العملية، إن المعلومات التي تُزود بها كانت خاطئة لأن شحنات الأسلحة كان يتم إرسالها إلىٰ أحد أطراف الحرب العراقية الإيرانية وأحد أعداء أمريكا الخطرين.

وفي اجتماع مجلس الأمن القومي الذي عقد في ٧ـ ٧ ـ ١٩٨٦ وبينما كان وزير الخارجية ووزير الدفاع يُبديان معارضتهما لهذه القضية، كان مستشار الأمن القومي ورئيس المخابرات يبديان تأييدهما. كان الرئيس يستمع إلىٰ ما يُقال، ولم يقل إلا القليل. وقد قال شولتز عن هذه العملية لاحقاً: «لقد كنت أنا وواينبرغر الوحيدين المعارضين في هذه العملية وبالتالي فإن هذه القضية تطال جميع من تبقوا، لقد فوجئت كثيراً فلم أكن أصدق أن هؤلاء الناس يقومون بمثل هذا العمل، لا أحد يتذكر ما قاله نائب الرئيس بخصوص هذا الموضوع ولكنه لم يكن من ضمن من ناقشوا أهمية هذه الصفقة».

تم تنفيذ هذه العملية السرية بموافقة الرئيس ريغان ومعارضة وزيري الخارجية والدفاع، وقد قام مستشار الأمن القومي وبدعم من الكولونيل أولفر نورث وتعاون من المخابرات بوضع ترتيبات نقل الأسلحة. بدأ الكولونيل نورث الذي كان يسعىٰ لإرضاء الرئيس بالتفكير في خطة تعتمد علىٰ استثمار أرباح هذه الصفقة فلماذا لا يتم تحويل هذه الأموال لحساب مقاتلي الكونترا في نيكاراغوا ولا سيما أن الكونجرس كان معادياً لثوار الكونترا.

سبق أن رُفض مشروع الرئيس ريغان لمساعدتهم فلماذا لا يتم تحقيق هذا المشروع سراً؟ فمساعدتهم للكونترا تعني محاربتهم للشيوعية، وكان نورث يتساءل هل يمكن أن تستغل هذه الأرباح في مشروع أفضل من هذا؟ ولم يجد نورث صعوبة في إقناع رئيسه الأدميرال بويندكستر بهذه الفكرة، ومن هنا ولدت فكرة الربط بين إيران والكونترا. كان المدبرون لهذه العملية مجموعة صغيرة في البيت الأبيض بمساعدة

من المخابرات الأمريكية، وكانت هذه الجماعة تعتقد أنها تفعل ما يريده الرئيس، وبدا الأمر علىٰ أنه تزويد لجماعات إيرانية صديقة بالأسلحة لتساعدهم في عملية التحرير، وبعد وفاة الخميني تبين أنها صفقات أسلحة للحكومة الإيرانية مقابل الإفراج عن الرهائن وتبين أن جزءاً من أرباحها يذهب إلىٰ أشخاصٍ معينين، والقسم الأكبر من الأرباح يذهب لمساعدة ثوار الكونترا اللذين رفض الكونجرس مساعدتهم.

عندما وصلت هذه القضية للصحافة كان الموضوع متعلقاً بنيكاراغوا فقط لكن سُرعان ما انكشف ارتباط إيران بهذه القضية. لقد تم تنفيذ هذه القضية بمهارة وسرية كبيرتين وكان كل يوم يأتي يكشف معه أسراراً جديدة وكادت أن تكون هذه القضية فضيحة الموسم لولا أن التزام الصحافة الأمريكية حال دون ذلك فلم يتم كشف جميع فضائح قضية إيران ـ غيت. وقد أُلقي اللوم في هذه القضية علىٰ أعوان الرئيس، فأعوانه لم يقوموا بتوجيهه بما فيهم نائبهم والذي في الحقيقة لا يعي الكثير من الأمور السياسية، ولو أن وزير الخارجية جورج شولتز عمل علىٰ كسب ثقة الرئيس ليتمكن من عرض آرائه عليه ولو كان له تأثير علىٰ الرئيس لما حدث ذلك ولكنه لم يفعل، ولو أن نائب الرئيس أشار إلى أن هذه العملية غير قانونية لما حدث ما حدث، لكن شيئاً من هذا لم يحدث.

لقد كان اهتمام الرئيس منصباً علىٰ الإرهاب الدولي الذي ينفذه رجال ونساء بدعم من حكام دكتاتوريين مما أدىٰ إلىٰ مقتل العديد من الأمريكيين الأبرياء فلم يكن ليتوقف عن التفكير في قضية الرهائن الأمريكيين في لبنان إلا ويتفاجأ بمظاهر أخرىٰ للإرهاب في أماكن جديدة. ففي عام ١٩٨٥ وأثناء غمرة الاحتفالات بعيد الفصح حدث هجوم علىٰ مطارات روما وفينا مما أدىٰ إلىٰ مقتل (١٩) رجل وإمرأة ومن بينهم خمسة مواطنين أمريكيين. وكان من المعروف أن ليبيا ـ وبأمر من رئيسها مُعمر القذافي ـ هي المسؤولة عن تمويل وتخطيط هذا الحادث وبسبب خوفها من

قيام أمريكا بهجوم جوي عليها حذرت ليبيا بأنه إذا ما تم قصف ليبيا فإن جميع المدن الأوروبية سوف تكون عُرضة لعمليات تخريبية، ومن أجل وقف الخطر الليبي طلب الرئيس ريغان مساعدة حلف (الناتو) فاقترح فرض مقاطعة اقتصادية علىٰ ليبيا وفرض عقوبات عليها.

خلال مناقشاتها لهذه المقترحات عارضت مارغريت تاتشر الحل العسكري لهذه الأزمة فقالت إنها لا تؤمن بالأعمال الثأرية المخالفة للقانون الدولي ولكن قيام ليبيا بهجوم آخر في برلين جعلها تغير من موقفها فقرر الرئيس ريغان القيام بهجوم جوي علىٰ ليبيا وذلك أقل خطراً عليها ووافقت تاتشر علىٰ اقتراح ريغان بإرسال المقاتلات الأمريكية من نوع (إف ـ ١١١) الموجودة في بريطانيا لقصف ليبيا في حين عارض عدد من وزرائها هذا العمل معتقدين أن لعلاقة الصداقة بينهما لها تأثير علىٰ هذه الموافقة. ولم تنتقد تاتشر القصف الأمريكي لليبيا كما فعل بعض وزرائها الذين اعتبروه وحشياً بل اعتبرته ضرورياً.

لقد كان ريغان محظوظاً جداً كونه لم يجرب الضربات التي كانت يمكن أن تصيبه. لقد خرج ريغان من البيت الأبيض كما دخله من حيث جهله في السياسة الخارجية، وقد ساعد ريغان علىٰ إفساد نظام صناعة السياسة في إعطاء السلطة لأولئك الذين كان بإمكانهم القيام بمبادرات سياسية مثمرة. وقد أصبح الذين يعملون معه من غير أن يدروا عاجزين عن الكلام غير قادرين علىٰ إبداء معارضتهم لقرارات الرئيس.

لقد أعطىٰ الرئيس ريغان أعوانه درساً مهماً ألا وهو أن الشعب الأمريكي ذو ذاكرة ضعيفة لا يخزن فيها الكثير وباختصار كان يكفيه في اليوم مشاهدة الأخبار التي توضح شجاعته وتصميمه علىٰ بناء دفاعات أمريكية وكل هذا في سبيل السلام العالمي.

كان الرئيس الأمريكي راوي قصص لا مثيل له بل كان مؤلف خرافات ماهراً، وبالرغم من أن مارغريت تاتشر كانت صديقته الحميمة إلا أنها لم تكن لتقارن معه في هذه الموهبة، فقد جعل الرئيس من غورباتشوف ممثلاً مهماً في مسرحية ابتدعها ليغطي علىٰ قضية أهم من قضية إيران ـ غيت وهي فشله في قيادة الأمة للجيل الأخلاقي الذي طالما نادىٰ به.

كان ريغان المصمم الرئيسي لأسطورته والتي عُبر عنها بعبارة فصيحة في سيرته الذاتية حيث قال «رونالد ريغان حياة أمريكي»، تبدأ سيرته الذاتية بذكر لقائه الأول مع نظيره السوفييتي في جنيف حيث يقول إنه كان ينتظر هذا اليوم منذ خمس سنوات وقد كتب ملاحظة في الليلة السابقة يقول فيها «يا إلهي أتمنىٰ أن أكون مستعداً».

أظهر الرئيس براعته في تنفيذ رغباته وطموحاته التي كانت تفوق رغبات مستشاريه. أخبر شولتز الرئيس بأن اللقاء سوف يكون مثمراً إذا ما تم الاتفاق علىٰ قمة أخرىٰ بينهما لكن الرئيس كان يطمح لتحقيق أكثر من ذلك إذ كان يؤمن بوجود أناس في الكرملن تحسب حساب أمريكا وتخاف منها فكان يحرص علىٰ مقابلة غورباتشوف لوحده ليقنعه بأن أمريكا جادة في إحلال السلام.

يقول الرئيس عن لحظة لقائهما: عندما تصافحنا في ذلك الصباح ورأيت ابتسامته شعرت بتفاؤل كبير بأن خطتي سوف تنجح وقد نجحت بالفعل. فالتقىٰ الرئيسان لوحدهما وتحادثا وقد قال الرئيس الأمريكي في حواره مع غورباتشوف: ها

نحن نجلس الآن في غرفة واحدة كرجلين في أيديهما قرار إشعال حرب عالمية ثالثة وفي نفس الوقت يمكن أن نكون الرجلين الوحيدين في العالم القادرين علىٰ إحلال السلام في العالم. كيف يمكن تحقيق هذا الهدف النبيل؟ إن عدم الثقة المتبادلة بين أمريكا والاتحاد السوفييتي يجب أن يتوقف.

لقد حاول الرئيس الأمريكي في رسائله لغورباتشوف أن يخبره أنه لا يمكن لأحد أن يربح حرباً نووية، فحرب كهذه لا يجب أن تحدث أبداً. إن القضية التي ينادي بها ريغان طالب بها أسلافه لمدة عقدين لكن صداقة ريغان وقربه من غورباتشوف جعل هذا الأمر يتحقق. لقد كان لإصرار الرئيس الأمريكي علىٰ إعادة بناء الدفاعات الأمريكية أثر كبير علىٰ إنجاح قمة جنيف. فعندما جاء ريغان إلىٰ البيت الأبيض كان الجيش الأمريكي عبارة عن خرائط فقام بتقييدها مما جعل السوفييت يقدِّرون قوة الأمريكان ومن ثم الجلوس علىٰ طاولة المفاوضات.

تحقق حُلم ريغان فقد كانت رغبته منذ البداية هي جعل السوفييت يطالبون بالسلام كما يطالب به هو، وقد لاحت له الفرصة مع وجود قائد متفهم مثل غورباتشوف والذي بالرغم من ذكائه كان لا يعرف الكثير عن أمريكا. وبما أن عدم الثقة سوف يُطرح بعيداً فلا بُد للخرافة أن تبعد. لقد كان علىٰ الرئيس السوفييتي أن يُدرك أن التكنولوجيا العسكرية الأمريكية منذ عام ١٩٨١ أصبحت أفضل من نظيرتها السوفيتية، وأنّ أمريكا حتماً ستسبق السوفييت لو لم يتم الاتفاق علىٰ خفض الأسلحة، فقد قال ريغان لغورباتشوف إن سباق التسلح سباق لا يمكنك الفوز به فكانت محاولات ريغان تسعىٰ لتحقيق السلام. واتفق الإثنان في النهاية علىٰ عقد قمتين إضافيتين في واشنطن وموسكو.

ومن الملاحظ أن شولتز كان محدوداً في أهدافه ولم يكن يقدِّر المواهب العظيمة للرئيس.

عَرف الرئيس أنه لم يتغير ولكن العالم هو الذي تغير نحو الأفضل. وكما قال في سيرته إن العالم يقف علىٰ عتبة يوم جديد ويمكننا أن نجعله أكثر أمناً وأفضل الآن وحتىٰ القرن الحادي والعشرين، صحيح أن فرانكلين مات وهو يعرف أنه قضىٰ علىٰ دكتاتور كان ينوي تدمير العالم إلا أن الرئيس ريغان بالرغم من أنه لم يفعل بالأسد والقذافي والشيوعيين في غرينادا مثل ما فُعل بهتلر فقد ظهر كصانع سلام عظيم.

لقـد كان ممثـلاً نجمـاً ولعب الشعب الأمـريكي دور المشجعين له، فبتضحيات الشعب الأمـريكي الـذي شعـر بأهمية البنـاء العسكـري وبتحـديه لاعتـراضـات الـديمقـراطيين استطاع تحويل الاتحاد السوفييتي إلىٰ القضايا الاقتصادية ومن ثم جعله يسعىٰ نحو هدنة سياسية.

لقـد كانت قصة تامة وكان الممثل فيها عبقرياً فحساباته كان لها علاقة كبيرة بالواقع، فحين حث في موسكو علىٰ تحطيم سور برلين وجـدنـا هذا الحوار بعد عام ونصف وكذلك خطابه فيما يتعلق ببوابة (براند بيرغ). لقد كان الرئيس متواضعاً فقـد كان مستعداً لمشاركة هذا الإنجاز مع الرئيس السوفييتي الذي شعر بضرورة إحداث تغيير.

ترك الرئيس ريغان رسالة لخليفته بوش قال فيها: لا تجعل الفاشلين يُسقطونك. وكتب له يقول: عزيزي جورج سوف تمر عليك لحظات تستخدم فيها هذا القرطاسية فاصـغ إليهـا. جورج إني أختزن ذكرياتنا ولن أنساها وأتمنىٰ لك الأفضل، سوف أُصلي من أجلك، فليباركك الله أنت وباربرا، سوف أفتقد لتناولنا طعام الغذاء أيام الخميس. لقـد سلَّم الرئيس العصا لرجل دربه ووثق به وهذا سوف يكون لصالح الأمريكيين كما كان يحرص علىٰ أن يكون دائماً.

الرئيس بوش: مرحلة الإعداد والتلمذة

أصبح جورج بوش رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية بتاريخ ٢٠ ـ كانون ثاني ـ ١٩٨٩. واقتضىٰ المخطط الغبي الذي وضعه ريغان أن يلف بوش نفسه بالعلم الأمريكي، وأن يلقي مواعظ أخلاقية، وفي الوقت الذي يعمل فيه قليلاً عليه أن يتظاهر بكثرة مشاغله في إعادة الولايات المتحدة إلىٰ فلك السياسة التقليدية الفاضلة، لكن الرجل الذي تعلم الكثير أثناء عمله لمدة ثماني سنوات في البيت الأبيض نحىٰ جانباً (في الثمانية عشر الأولىٰ التي تولىٰ فيها منصبه) كل ما اكتسبه خلال فترة تلمذته وإعداده.

ومن حسن حظه أنه تمكن من تعويض ما خسره وتبع سيده في مهمة خارجية أظهرته كجمهوري ريغاني من الطراز الأول، ولقد استعد وخاض حرباً سهلة يثبت فيها رجولته تظهره كابن بار لأبيه السياسي (ريغان).. والذي يهمه خوض حربه ضد أعداء أضعف منه مما يمكنه من تحقيق نصر رخيص وسريع ناجح باسم الحفاظ علىٰ السلام، ففي تلك الحرب الاستعراضية المظهرية حارب بوش وحقق انتصاراً لم يمت فيها من الأمريكيين أكثر من هؤلاء الذين قتلوا من الأمريكيين في صباح يوم مأساوي في الهجوم الإرهابي عليهم في بيروت.

وبعد أن تعلم الدروس التي تجعله محبباً في نظر الرجال البيض، الذين يمثلون مجموعة لها وزنها في الانتخابات الأمريكية، إن لم يكن لدىٰ الشعب الأمريكي بأسره. فلم يعرف بوش إلا القليل حول كيفية تسيير الشؤون الدولية في حال نبذ سياسة الحرب الباردة التي نهجها نيكسون وريغان. ولاعتقاده بأنه يستطيع عبور

مستنقع الشرق الأوسط دون مخاطر اعتماداً علىٰ إقامة تحالف جديد مع دول عربية مما يمكنه من تحقيق إنزال الهزيمة (بالدكتاتورية الشريرة!) في العراق. في الوقت الذي يمارس فيه ضغطه علىٰ الحليف القديم (إسرائيل) ورسم لنفسه خطة (سيناريو) لا يختلف عما حاول سلفه (ريغان) أن ينفذه.

كان الرئيس لا يعرف إلا القليل عن الشرق الأوسط خلال فترة الثماني سنوات التي قضاها في البيت الأبيض، وقد عيّن صديقه المقرب الذي يعرف أقل منه عن الشرق الأوسط في منصب وزير الخارجية. وقد عاش الاثنان علىٰ وهم أن الظروف الدولية الجديدة تخلق فرصة ناجحة لإجراء محادثات السلام في الشرق الأوسط. فقد اعتقدا أن صداقتهما للرئيس السوفييتي تمكن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي كل من جانبه من الضغط علىٰ حليفه ـ الإسرائيليون والعرب ـ وتحقيقاً لمصالح الجميع في التوصل لإقرار السلام.

بالغ الرئيس في القوة الأمريكية وتجاهل نقاط الضعف الأمريكية والسوفييتية، كما بالغ في تقدير مكاسب التعاون الأمريكي ـ السوفييتي خاصة في منطقة الشرق الأوسط. الأخطر من ذلك تجاهل أيضاً كيف أن الموقف تغير عما كان عليه يوم أقسم اليمين عند توليه منصب الرئاسة الأمريكية.

لقد كان سعيداً بالإرث السياسي الذي آل إليه دون جهد منه والمتمثل فيما حدث في وسط وشرق أوروبا عام ١٩٨٩. تلك التطورات التي أظهرت قوة الديمقراطية الأمريكية وتفوق الاقتصاد المرتبط بها.

فشل بوش مثل ريغان في إدراك الظروف التي دفعت غورباتشوف لخوض تجربة سياسة الإصلاح والمكاشفة (البيروسترويكا والغلاسنوست). كما تجاهل مدىٰ قوة الدور الأمريكي في ترويض الاتحاد السوفييتي ليكون أكثر مسالمة، وأغفل أيضاً المتاعب التي لا تنتهي التي أصبحت تواجهها دولة هشة غير قادرة علىٰ التعامل مع

اقتصادها الذي يترنح (أي الاتحاد السوفييتي). وعندما لاحت للرئيس بوش الفرصة لم يكن لديه أدنىٰ فكرة عما يجب عليه أن يفعله، فلم يكن في حياته ما يؤهله لمغامرة دبلوماسية تتطلب تغييراً جذرياً في سياسته.

تشكلت شخصية بوش منذ البداية علىٰ التعامل أكثر من اللزوم مع الأمور السهلة. إضافة إلىٰ نشأته التقليدية، وبتقدير غير كاف لأهمية الذكاء.. وعندما أصبح بالغاً كان لديه الاستعداد الزائد للقبول بالأمور الأخلاقية ولم يفهم مدىٰ التأثير السيء المدمر عندما يعمل تحت إمرة رجال وضيعين مجردين من الأخلاق.

مع أن بوش ينتمي إلىٰ عائلة غنية مرموقة ومحافظة حيث عاش والداه في كونِّكتِكت، فقد اعتمد كلية في حياته علىٰ نفسه.. لكن في خياله فقط. وقد التحق بوش بمدارس جيدة كما انضم لأحسن النوادي الرياضية، واهتم بالرياضة كثيراً كما كان يفعل أبناء طبقته الاجتماعية، مما جعله رجلاً أجوف، فارغاً ينقصه التعليم وشمولية التصور. وعاش دائماً ـ وهو في صمت ـ خائفاً من التغيير.

وخير ما يوصف به بوش علىٰ أنه من أعضاء الحزب الجمهوري ـ أغنياء أواخر القرن العشرين الذي تمكن من تحقيق نجاحه عن طريق الوراثة. إن بوش الوارث الأكبر من كونكتيكت يتفاخر ويتظاهر أنه عصامي من تكساس. نال بوش تربية ملتزمة تمنعه من التظاهر بما آل إليه من ثروة عن فترة عمله القصيرة في شركة نفط تكساس. مكنته هذه الثروة من حرية التمتع بالمزايا المناسبة التي يتمتع بها من هم في مركزه وطموحه الاجتماعي والسياسي. علىٰ خلاف الرؤساء الجمهوريين أمثال: كوليدج وهوفر وأيزنهاور وريغان فإن بوش لم يبدأ من الصفر حتىٰ يصل إلىٰ القمة. ولم تكن هناك جوانب خفية من قصة لينكولن في ملفات حياة أسرة بوش. ولم تسمح له نفسه حتىٰ ولو رغب في هذا بأن يقتدي بأستاذه ليصبح الفتىٰ الأمريكي بكل معاني الكلمة.

حقق جورج بوش فائدة كبرىٰ من ظروف الحرب العالمية الثانية وفترة الحرب الباردة. وقد كان ينتمي إلىٰ طبقة اجتماعية مميزة التي تُعرف وفق التحديد الأمريكي بأنها تنتمي إلىٰ ما يعرف باصطلاح «العملة القديمة». . وهكذا نرىٰ أنه بدأ حياته بميزات كثيرة.

كانت عشيرته صغيرة وانعزالية تنتمي إلىٰ البروتستانت (الأنجلو- سكسون) البيض الذين ينحدرون من «أصل جيد». ومعنىٰ ذلك أنهم ورثوا دخلاً كبيراً مكّنهم من التمتع بوضع اجتماعي مميز في فترة الصنف الثاني من القرن التاسع عشر ومعظم القرن العشرين. ولدّ جورج بوش في هذا الجو المميز في سنة ١٩٢٤، وظل متمتعاً به لم ينفصل عنه أبداً بالرغم من أن من يقومون بتلميع صورته سياسياً نصحوه أن يتحاشىٰ الإعلان عن ارتباطه بهذا العالم علناً.

علىٰ الرغم من أن لا ثيودور روزفلت ولا وليام هوارد تافت فقدا مصداقيتهما السياسية عندما قدّما أنفسهما بصفة السادة المحترمين (الجنتلمان). كانا ينتسبان إلىٰ نوادي بورسليان وسكل وبونز، وقد اقتضت الضرورة ألا يتباهيا بهذه الامتيازات لأن ذلك كان يتعارض مع تقاليد الطبقة التي ينتميان إليها في كل الأحوال. وقد عبرا عن ذلك باحترامهما للتعلم وحب القراءة والاطلاع وبالفصاحة المؤثرة دون تكلف. ورغم أن بوش ينتمي إلىٰ نفس الطبقة ويمكن الإعلان عن ذلك دون صعوبة بأنه من فئة سكل وبونز إلا أنه كان يفتقر إلىٰ الميزات الأخرىٰ التي أكسبه إياها تعليمه المميز. ولم يستطع أن يكتسب هذه الميزات في منتصف عمره أثناء فترة حكم ريتشارد نيكسون ورونالد ريغان.

علىٰ أي حال فقد التحق بمدرسة متوسطة مُميزة، ثم قضىٰ فترة خدمة مُميزة أيضاً كضابط بحرية أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها في جامعة ييل، لكنه لم يكتسب كأبناء طبقته حب الاستطلاع الثقافي - الذين يخجلون من وصفه ذلك بأنه

شيء غبي. ولنفس الأسباب فإن آخرين ينتمون إلىٰ نفس طبقته نراهم يَحتقرون التعلم ويتباهون أنهم عاديون وأن ذلك جزء من إثبات رجولتهم. لكن بوش كان لديه سبب قوي آخر ليجعله يُظهر غير ما يُبطن. كان يطمح لأن يكون سياسياً في عصر يُتوقع فيه من الزعيم السياسي أن يُركز علىٰ إبراز الأمة الأمريكية، أو علىٰ الأقل الادعاء بأنه يمتلك هذه الصفات. وفي هذه النقطة وغيرها الكثير فقد أفصح عن نفسه باحتقاره للشعب الأمريكي الذي لم يؤمن بأن العنف هو من مبادئه العليا أو الوحيدة.

إن أرستقراطية طبقة البروتستانت (الأنجلو ـ سكسون) [WASP] لم تكن معروفة لأكبر المعلقين الأوروبيين (أليكس توكفيل) في أوائل القرن التاسع عشر عن أمريكا، الذي أكد علىٰ أن الأرستقراطية في المفهوم الأوروبي ليست موجودة في عالم مجتمع أمريكا الشمالية، وأن الولايات أظهرت فقط طبقتين: الأغنياء والفقراء وأما الطبقة الأرستقراطية فلم تظهر للوجود إلا بعد الحرب الأهلية. وكغيرها من الظواهر في مجتمع الولايات المتحدة فإن عمرها كان قصيراً كما أنها فقدت الكثير من الثقة بالنفس (وهي طبقة قامت في أزهىٰ فترات ظهورها بدعم المؤسسات الاجتماعية) ويمكنها أن تفخر بأنها ساهمت في خلق شهرة أمريكا كمجتمع مُتحضر ذي روح اجتماعية ملتزم بفكرة التقدم واحترام أهمية التقاليد.

وبالغت أحياناً في فرض نفسها كقوة سياسية وسط جو ممل أفرزته حروب متعددة في فترة الحرب العالمية الثانية بعضها حروب ساخنة وبعضها باردة. كان بوش كممثل لهذه الطبقة يخشىٰ أن يكشف عن انتمائه الأرستقراطي فلم يعترف بجهل لمعنىٰ الكلمة.. وكان يطمح كغيره من الأمريكيين ويتظاهر بأنه جو الطيب ـ رغم أن ادعاءه وتظاهره لم يكن مقنعاً.

في أقل من نصف قرن انتقلت الأمة الأمريكية من الإحساس بالالتزام الأخلاقي إلىٰ القبول بما أفرزته الحرب الباردة من تنافس.

عندما انخرط ثيودور روزفلت في عالم السياسة ادعىٰ أن طبقته الاجتماعية هي التي أسست الجمهورية، وأن من واجبه الحفاظ عليها. وأن يصحح الانتهاكات ليخلق أمريكا جديدة أحسن وأقوىٰ. أراد جورج بوش أن يصبح الرئيس. . وكيف يمكن تفسير انحدار طموحه؟ - فلو كان بوش ممثلاً لطبقة «العملة القديمة» الأمريكية في أواخر القرن العشرين تلك الطبقة من البيض (الرجال والنساء) الذين ورثوا ثروات كبيرة تكونت في فترة ما قبل فرض ضريبة الدخل أثناء نمو المجتمع الاقتصادي الصناعي بعد الحرب الأهلية. فلماذا لم يعد يؤمن بالثقافة المميزة لطبقته؟ أم أنه كان يؤمن بها في حياته الخاصة ويتجاهلها فقط في حياته العامة. أم أنه لا زال يفضل الارتباط بمن هم علىٰ شاكلته؟ ويسعىٰ إلىٰ الخصوصية في الجيوب الاجتماعية المنغلقة في (مين "Maine") فلماذا ابتعد عن النشاطات العامة التي تتمثل في خدمات الهيئات الإنسانية والثقافية. لكنه قصَر نشاطه علىٰ الارتباط بمن هم أقل ثروة وأقل حرية. الأهم من ذلك لماذا سمح له بالانغماس الكلي في السياسة لتهيمن عليه، دون أن يتأكد أن يكشف أن تلك العلاقة أفسدته أو أنها لم تكن بحاجة لمثل هذا الفساد.

هل كانت بذور الفساد مزروعة منذ عهد ريغان أو أنها كانت موجودة في البيت الأبيض قبل ذلك؟ أم أن بوش كان يتمتع بمزايا الثروة والمركز من الولايات المتحدة لكنه بقي تقليدياً لأنه يفتقد النموذج التاريخي الذي يدفعه ليكون أفضل من ذلك؟ فهل كانت امتيازات أسرته ونشأته وضمنها مرحلة تعلمه الدراسي التي تهدف إلىٰ تهيئته وإعداده لعالم مستقر - هي التي أبعدته إلىٰ عالم متعب وخطير، وجعلته لا يُرحب أو يهتم بالاعتبارات الأخلاقية. لم يكن إلا القليل في حياته الأولىٰ الذي يوحي بأنه سيكون من نمط استثنائي بالرغم أنه اكتسب مزايا أبناء العائلات الراقية في كالفين كوليدج الأمريكية.

التحق جورج بوش في إحدىٰ المدارس الأمريكية الخاصة المشهورة وهي

فيليبس أندأوفر والتي تختلف عن أفكار جيل الأجداد «العملة القديمة» بأن المدرسة تطمح إلىٰ تعليم أبناء الأثرياء وعند الاطلاع علىٰ الكتاب السنوي الذي أصدرته الكلية عام ١٩٤٢ ـ وهي السنة التي تخرج منها جورج بوش. يلاحظ المرء أن الأموال المخصصة لبند المنح الدراسية قد وفرت بعض الأماكن لأبناء عائلات محدودة الدخل، الذين يمكنهم اختيار مواصلة الدراسة في مؤسسات تعليمية مثل (ميت "MIT") . لم يُظهر أي اهتمام بالأمور الثقافية لكن بدا اهتمامه غير الحذر في الاهتمام بالأنشطة، وقد مارس كل ما تعلمه في فترة شبابه حسب ما اعتاد عليه من أبويه ومدرسيه كما كان متوقعاً منه، وقد ظهر تفوقه في الألعاب الرياضية. وقد حصل علىٰ جائزة جون هوبكنز التي كانت تقدم للطلاب الذين لا يُشير سجلهم المدرسي إلىٰ عدم تلقيهم اللوم أو الغياب بعذر أو بدون. وقد برز بوش في السجل كطالب مطيع ومقدّر للمسؤولية.

كان بوش رائعاً في مجال الأنشطة غير الدراسية ـ فقد تولىٰ أمين الصندوق ورئاسة مجلس الطلاب لمرة واحدة، كما انتخب عضواً ورئيساً لصف عالٍ لفترة واحدة ـ ونائباً لمدير السكن الطلابي وعضواً في هيئة تحرير الصحيفة المدرسية لمدة ثلاث سنوات. كما تولىٰ منصب رئيس لجنة التحقيق، ومجلس عمل الكتاب السنوي الذي تصدره الأكاديمية، كما لم يكن فقط رئيس فريق كرة القدم بل رئيس فريق البيسبول وكرة السلة، وعمل كرجل دين ورئيساً لليونانيين وهي منظمة تضُم الجمعيات السرية في الأكاديمية. تأسست هذه المنظمة السرية في أواخر القرن التاسع عشر وكانت تضم ثلاث جمعيات تتمتع بوضع اجتماعي خاص ("Auv") التي انتخب لعضويتها بوش. كانت احتفالات قبول الطلاب الجدد راقية المستوىٰ وفق خطة منظمة وتنسجم متلائمة مع مرحلة الانتقال إلىٰ المستوىٰ الأعلىٰ ـ وعند اختيار المرشح يتم اصطحابه في جولة حول المدينة حيث يُجبر علىٰ التوقف أمام بعض البيوت ويطلب منهم الطعام كما يتبول من شرفات بعض البيوت ليخلق من حوله جواً مضحكاً ومسلياً.

لم يكـن بوش بارزاً في الـدراسـة بالأكـاديمية. فكيـف يمكنه ذلـك بعد أن شـارك بصـورة لا مثيـل لها في كل هـذه الأنشطـة الرياضيـة وغير الدراسيـة. أمـا في مجـال الاهـتـمـام بالـسـيـاسـة الـمحليـة فإن اهتمـامـه كان قليلاً ضمن مجموعـــة (أندأوفر "Andover"). وتقول بعض الحكايات الخيالية أنه تأثر بالخطاب الذي ألقاه عام ١٩٤٠ في حفل الافتتاح هنري ستيمسون أشهر خريجي الأكاديمية وذلك قبل خمسة أيام فقط من دعوة الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت له ليتقلد منصب وزارة الـدفاع. تم إلقاء الخطاب في جو يسوده الاضطراب الدولي عندما اجتاحت ألمانيا النازية الأراضي الفرنسية، أثار الخطاب روح الوطنية والتضحية وأكد علىٰ مبادىء الثقة والاحترام المسيحي التقليدي بصورة متساوية لجميع أفراد البشر.

من الصعب معـرفة الأثر الذي أحدثه الخطاب في شخصية جورج بوش كما يوحي كتاب سيرة حياته، أو أثر ذلك الخطاب فيه فيما بعد. لقد عبَّر ستيمسون عن وجهة نظر تقليدية كانت سائدة بين أبناء طبقته. إن برسكوت بوش والد جورج بوش الذي أمضىٰ حياته أثناء شبابه شريكاً في (براون برذرز هاريمان) كان سيلتزم بكل ما ورد في خطاب ستيمسـون. وكـذلـك أيضـاً سيلتـزم بها الآخرون في دوائرهم الاجتماعية في نيويورك وما حولها.

وعندما نشبت الحرب فإن الرجال أمثال بريسكوت بوش اندفعوا لأداء ما عليهم من واجب. وقد خدم بريسكوت بوش كرئيس حملة في صندوق أمريكي خُصص فيما بعد كرئيس الصندوق الوطني للمجهود الحربي. وعندما بلغ الستين من عمره انتُخب عضواً في مجلس الشيوخ عن ولاية كنكتيكوت. إن هذا الالتزام بالخدمة الوطنية صفة مميزة لطبقته وجيله، وكان مهماً من أجل احترامهم لأنفسهم ولم يكن حباً لتولي السلطة ـ فقد برزت فيه الجذور الأخلاقية والاجتماعية الأمريكية.

لم يكن صعباً علىٰ جورج بوش باعتباره الابن الثاني إرضاء والده الذي كان يعتقد أن ابنه سيحذو حذوه. كانت البداية تُبشر بالنجاح. . فقد ظهر تفوق بوش في

الـرياضـة، وخـلال الإجـازات الـدراسية كان يلتقي في جرينتش بولاية كونكتيكـوت بالآخرين ممن تربوا نفس تربيته وتلقوا نفس القيم والمبادىء. وفي فصل الصيف كغيره من شباب طبقته الاجتماعية سافر في إجازة بحرية مقررة أكسبته الخبرة، ولم يكن الهدف منها إظهار مواهبه الرياضية التي يفتخر بها ـ لكن وراء ذلك رغبة في تعليمه فن الإبحار ومتاعبه وقد كانت (مين "Maine") لهذه العائلات الراقية أكثر من منتجع صيفي ـ فقد أتاحت لهم فرصة قضاء الوقت معاً ليتمتع أبناء أجيال بهذه الفرصة التي يحرمهم منها النظام التعليمي الذي كان يقضي بإرسال أبناء هذه العائلات الراقية المنحدرة من الساحل الشرقي لتلقىٰ تعليمهم في مدارس داخلية ثم إلىٰ كليات إيفي لينغ "Ivy Lengue". وبالنسبة لعائلة بوش فإن كينيبونكبورت تمثل منتجعاً صيفياً حيث يلتقي الفتيان والفتيات.

إن أواخر العالم الفيكتوري الأمريكي الذي عاشه الأغنياء بنظم محددة ضمن مجتمع محدد ومعزول تتوفر له الحماية الاجتماعية. كانت الحياة تقوم علىٰ الامتياز الطبقي تتسم بالتنظيم والانضباط حيث يتم عزل أبناء البروتستانت البيض من غيرهم ممن ينتمون إلىٰ أصول عرقية أو دينية مختلفة عنهم علىٰ أساس أن ذلك يوفر لهم حماية اجتماعية من العامة الذين يعيشون خارج مجتمعهم ـ والتي قد تكون خطرة بصورة مؤثرة علىٰ الشباب. جرىٰ تطبيق وتعميم هذه التقاليد بين أبناء الطبقات الإنجليزية الراقية. لم يكن القصد خلق جيل من نظام المدارس الفيكتورية (مدارس الطبقة الراقية) ـ أي إن الهدف من المدارس الخاصة لم يكن إعداد جيل من فئة ممتازة (الجنتلمان) الذين يلتزمون بتقديم خدمات عامة في المجال العسكري أو المدني.

إن هذه المجتمعات المغلقة ذات الامتيازات في أمريكا في أوائل القرن العشرين ومدارسها وجدت لتجعل أبناء الأغنياء مرتاحين مع بعضهم وتخلق روابط شخصية بينهم ـ حتىٰ أن كلمة (الروابط ـ والعلاقات) تبدو خاصة بالعامة ـ هذه

الـروابط الشخصية ستكون مفيدة لهم في وقت لاحق في مجال التجارة والشؤون القانونية. . وهما المجالان المفضلان لهذه الطبقة. . وقد كان لهذه الروابط غرضاً آخراً يمكن في عرف مجتمع آخر يوصف بأنه سوق للزواج.

والتميز الدراسي بمعناه الدقيق كانت له أهمية قليلة في هذا المجتمع بالرغم من مدرسـة مثل فيلبس أند أوفر كانت تتفاخر بوجود كلية ممتازة حيث كانت تهتم بتدريس الأخلاقيات والرياضيات. وبخصوص اللغتين اللاتينية واليونانية فلا ينبغي اعتبارهما لغتين غريبتين. وأن إتمام الدراسة في حد ذاته لم يكن مقياساً للنجاح سواء للطلاب أو للمدرسين. وبالرغم من أن مستوىٰ بوش العلمي كان محدوداً إلا أن أند أوفر منحته شهادة كانت بمثابة جواز سفره الذي يحتاجه للالتحاق بجامعة ييل باعتبارها هدفه التالي. لكن هذه الخطة تعطلت وتأخرت بعض الوقت بسبب ظهور أدولف هتلر. فأمـريكا أصبحت في حالة حرب مع ألمانيا واقتضىٰ الأمر من بوش وأبنـاء طبقتـه الآخـرين أن ينخرطوا في العمل العسكري ـ فأصبح ضابطاً وانضم للبحرية وتدرب علىٰ الطيران وتخرج برتبة ملازم أول. ولو أن بوش اختار قسماً آخر حيث التدريب أقل مجهوداً ولا يتطلب ذلك إتقاناً فنياً فربما كان سيحصل علىٰ رتبة أعلىٰ.

وقد أثبت بوش إخلاصه للتقاليد التي كان يمجدها والده وجيله عندما حصل علىٰ صليب الطيران المميز بالإضافة إلىٰ غيره من الأوسمة. وفي جامعة ييل عاش حياة مختلفـة ـ لكـونه طالباً متزوجاً ـ واختلفت حياته عما كان سيلاقيه لو لم تقم الحرب وتقتحم حياته. دفعه زواجه من بربارا بيرس في أوائل عام ١٩٤٥ لأن يهتم بإكمال دراسته. وأن يدلف إلىٰ ميدان العمل الحقيقي. وحيث أنه لم يكن مميزاً في تعليمـه فقد اهتم بعضويته في مدرسة (سكل أند بونز «الجمجمة والعظام») التي أكسبته امتيازاً اجتماعياً حظىٰ بتقديره وتقدير والده، وقد أصبح علىٰ اتصال ثانية مع أبناء طبقته الذين يتوقع أن يمضي معهم بقية حياته. وليس معروفاً هل تخرجه من

جامعة ييل أو عضوية والده في مجلس الشيوخ الأمريكي هي التي أعطته الفرصة لتحقيق مستقبل أفضل. وقد كان واضحاً أنه اختار عدم مواصلة دراسة القانون أو التجارة ـ وكلا الموضوعين كانا محطة توقف مفضلة عند الآخرين الذين يشاركونه نفس الامتيازات المعيشية، لكنه قرر الانتقال إلىٰ تكساس علىٰ أمل أن يزيد ثروته مما يكسبه نوعاً من الاستقلال المالي.

إن المعلومات عن سنوات حياته في تكساس قليلة، وفي الروايات عن حياته فإنها الفترة التي اعتمد فيها علىٰ نفسه ـ لكن لا يوجد ابن لسناتور أمريكي، تخرج من جامعة ييل وله صلة مع (سكل أند بونز) ويحمل أوسمة حربية عن فترة خدمته العسكرية ولديه مواهب رياضية لا يُعقل أن يبدأ حياته وكأن أحداً لا يعرفه، أو أن يقوم بتأدية الأعمال لوحده في ولاية حدودية خطيرة ـ ولاية تكساس ـ الغنية بالنفط. الحقيقة أنه كان مشاركاً في تأسيس مؤسسة نفط (زاباتا ـ بتروليوم) ـ وأصبح مديراً لها قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره. وهناك قول بأن أمواله أو أموال والده ساعدته لأن يصبح رئيساً لمؤسسة زاباتا عام **١٩٦٥** ورئيساً لمجلس الإدارة عام **١٩٦٤** مما يعني نجاحه في مجال الأعمال.

ومثـل الكثيرين ممن عاشوا في الخمسينات والستينات ـ ومن ضمنهم هؤلاء الذين بدأوا حياتهم بمستويات اجتماعية أقل ـ فإن بوش جمع ثروة كبيرة. من الأمور التي تجدر ملاحظتها عن فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فإنه كان من السهل علىٰ الأشخاص تكوين ثروات كبيرة ليس في الولايات المتحدة وحدها ـ والانضمام إلىٰ طبقـة الأغنياء التي تتسع ويزيد عددها باستمرار. كما أن فترة الحرب الباردة ساهمت في خلق أسواق كبيرة تضمنها الحكومة الفيدرالية. ولم يقتصر التسويق علىٰ الصناعات العسكرية الصرفة بل تعداها ليساهم في زيادة الإنتاج الصناعي. كما أن زيادة عدد المواليد أدت إلىٰ خلق مدن جديدة وضواحي حول المدن مما أدىٰ زيادة الطلب علىٰ جميع السلع الاستهلاكية.

إن فترة الرخاء والثراء خاصة في الفترة الأولىٰ من بعد الحرب العالمية الثانية تختلف عن مثيلتها في عام ١٩٢٠ (بعد الحرب العالمية الأولىٰ). لقد استمدت مميزاتها البارزة من العمل علىٰ إرضاء رغبات المستهلكين وطلبات السلطات الفيدرالية (الاتحادية) لبناء أنظمة الدفاع في فترة الحرب الباردة إضافة إلىٰ تلبية نفقات الحرب الحقيقية أولاً في كوريا ثم فيتنام. وكغيره من أبناء جيله ركب جورج بوش موجة المد الاقتصادي ـ وكوّن ثروة. . بعدها استعد للعودة إلىٰ موطنه الأصلي في الشرق مع الحفاظ علىٰ جذوره في تكساس واختار المعيشة في العاصمة واشنطن. . كمدينة يعرفها من السابق.

كيف تأثر بوش بالسنوات التي عاشها في تكساس؟ هل جعلته أكثر صلة بالعالم؟ هل تأثر بطابع مدينة هيوستون الذي يتسم بالخشونة والقسوة التي يتصف بها أبناء جيله ممن عاشوا سنوات صعبة؟

كان بوش محظوظاً في كل شيء: في الوالدين والزوجة والتعليم والعمل لكن كل ذلك لم يوفر له نجاحاً سريعاً في مجال السياسة. تنافس علىٰ مقعد سناتور في مجلس الشيوخ الأمريكي لعام ١٩٦٤ لكنه فشل في الفوز به، تم انتخابه نائباً عن تكساس مرتين للمقاطعة السابعة من الولاية ـ وبذلك يكون قد عمل في الكونجرس عن الدورة ٩٠ و٩١ لكنه اكتشف أن هذه الحياة لا ترضي طموحه. نفذ صبره ووجد أن أموره لا تتلائم مع مؤهلاته في أند أوفر والبحرية وجامعة ييل وتكساس فلذلك تطلع إلىٰ عمل يكسب سلطة حقيقية ومكانة رفيعة. عندما حل في العاصمة واشنطن كرجل ثري وله علاقات جيدة في وقت كاف كانت المافيا تتباهىٰ بنفوذها في العاصمة. وباعتبارها حاصلة علىٰ جائزة سكل وبونز التي تؤهلها لإعطاء التقدير الملائم كجمعية سرية ـ فيمكنها ذلك من تقدير إمكانات نجاح الفرد.

حرص بوش علىٰ الابتعاد عن تبوّء منصب طريقه مسدود يكون فيه مقيداً بطلبات ناخبيه الكثيرة من تكساس. وأدرك أن فرصته للتحرر من عضوية مجلس النواب

تعتمد علىٰ نجاح ريتشارد نيكسون في انتخابات ١٩٦٨ . كان ذلك مصدر سعادة تامة لبوش عندما تم وأصبح الطريق إلىٰ أعلىٰ أمامه مفتوحاً. كانت هذه هي بداية الصعود السياسي لبوش من الناحية النظرية. لكن حقيقة الأمر أنها أقل أهمية في تتابع الأحداث بعد ثمانية أعوام عندما خسر جيرالد فورد أمام جيمي كارتر.

إن المناصب الكبيرة التي تولاها بوش في حياته بعد عام ١٩٧١ : سفيراً للولايات المتحدة في الأمم المتحدة ـ ومديراً لوكالة المخابرات المركزية "CIA" ، ورئيس مكتب الاتصال في الصين الشعبية ثم رئيساً للجنة القومية في الحزب الجمهوري ـ كانت ليست ذات وزن في إقناع الناس بأنه يصلح لتولي منصب رئاسة الجمهورية. ولكن ما يهم هنا رغم أنه لم يحظ بالدراسة الوافية: هو نموذج كارتر السياسي كرئيس. . الذي أوحىٰ لبوش أنه ليس بعيداً ذلك الزمن لأن يصبح رئيساً مثله.

إن كارتر لم يتول منصباً مهماً أعلىٰ من منصب حاكم ولاية جورجيا ـ وبذلك قدّم المثال أمام بوش وبمساعدة صديقه من تكساس جيمس بيكر، فقد قدّم نفسه بنجاح عن الحزب لترشيح نفسه لمنصب الرئاسة. كانت ضربة جريئة بدون مشاكل في حملة ينافسه فيها رجل كبير السن، نجم سينمائي سابق، وآخر ما تولاه منصب حاكم كاليفورنيا (رونالد ريغان).

إذا كان بوش قد خسر في تحقيق هدفه الأول ـ فإن ذلك أتاح له الفوز بالجائزة الثانية: منصب نائب الرئيس.

دخل بوش في العمل تحت إمرة رونالد ريغان ـ الرجل الذي هزمه علىٰ منصب الرئاسة والذي قيل بأن وجود جمهوريين مخلصين من تكساس يضيف وزناً كبيراً للحزب الجمهوري وهو يخوض الانتخابات. قام بترتيب ذلك كله جيمس بيكر علىٰ نحو ما قام به روبرت كيندي لأخيه. فقد نظم الحملة الانتخابية بطريقة جيدة تعجز هذه الكلمات الهزيلة أن تصفها.

إن عمل بيكر كمستشار أكسب جورج بوش شخصية قديرة فقد عرف بيكر كيف ينظم علمية الترشيح للرئاسة، واستطاع أن يتعلم الكثير من مراقبته لنجاح جيمي كارتر. وبالتالي كان يأمل الاستفادة من ذلك في وضع جورج بوش علىٰ قائمة المرشحين للانتخابات. وحيث أن بوش كانت لديه ثروة ـ أصبح بإمكانه أن يُنْفق لمدة أربع سنوات من أجل الفوز في انتخابات الرئاسة لتلبية احتياجاته المالية لاحتراف العمل السياسي ـ فإن ورقة التين التي يشيع استخدامها عند الآخرين ممن لديهم نفس طموحاته كالمحامين أمثال ريتشارد نيكسون لم تتوفر لجورج بوش. إن هؤلاء المعنيين من جمهوريين وديمقراطيين اعتادوا اللجوء المؤقت إلىٰ مؤسسات قانونية حيث يمكنهم من خلال العمل بنشاط ـ وليس دائماً في سرية. كان بوش يفتقر إلىٰ مثل هذا الغطاء المهني الواضح. ولأن ذلك كان مهماً أصبح عليه امتلاك مكتب له عملٌ وعنوان معروف ويظهر ارتباطه بهذا المكتب علىٰ أساس أنه يعمل فيه.

أصبح بوش عضواً في اللجنة التنفيذية في فيرست ناشنال بانك في هيوستن. كان هذا عملاً جيداً. . مما هيأ الفرصة لحملته الانتخابية الرئاسية أن تتقدم إذ أصبح بإمكانه الاستفادة كلية من خدمات صديقه الموهوب من تكساس؛ بيكر. . الذي كان مستعداً لتوجيهه نحو الوقود اللازم المهم لحملته الانتخابية ألا وهو تمويل نفقات الحملة الانتخابية. لم يكن بوش بالتأكيد مثل نيلسون روكفلر لا من حيث ما يملكه من أموال ولا من حيث قدرته علىٰ الإنفاق منها حتىٰ ولو كان من أجل الوصول إلىٰ البيت الأبيض الذي يتطلع إليه. وأثناء جولاته وتلبية زيارات كثير ممن سبق له معرفتهم عندما كان رئيساً للجنة القومية في الحزب الجمهوري. . تأكد بنفسه مدىٰ الصعوبة التي عليه أن يكافحها للفوز بترشيح الحزب له. كان يقف في طريقه رونالد ريغان الذي حصل علىٰ التمويل اللازم من معرفته وشهرته السابقة كحاكم ولاية كاليفورنيا السابق.

ومن خلال دراسة دقيقة لحملة انتخابات عام ١٩٦٧ (نجاح كارتر ـ فشل فورد)

ازدادت قناعة بوش بإمكانية نجاحه وعمله علىٰ نفس خطة كارتر. وقد كانت الخطوات المهمة التي مكنت كارتر من الفوز في الانتخابات الأولية لولاية أيوا حيث أهلته لدخول البيت الأبيض. اعتقد بوش أن اتباع استراتيجية مماثلة للمرة الثانية ربما تنجح.

أعلن بوش ترشيحه في أيام عام ١٩٧٩ وفي الأسابيع التي سبقت الانتخابات الأولية لولاية أيوا التي جرت في كانون أول عام ١٩٨٠ أمضى بوش وقتاً طويلاً غير عادي في التعريف بنفسه. ولم يشعر منافسه الرئيس رونالد ريغان بحاجة لمنافسة بوش بجعل أيوا المركز المؤقت للانتخابات وعند إعلان نتائج الترشيح اتضح أن بوش هزم ريغان بنسبة ضئيلة (٣١ : ٢٩).

ورغم أن هامش الانتصار كان ضئيلاً إلا أن قيمته الدعائية كانت كبيرة خاصة في وسائل الإعلام.. وهكذا خرج منتصراً علىٰ مجموعة كبيرة من منافسيه الجمهوريين البارزين مثل السناتور هوارد بيكر وآخرين أقل بروزاً مثل جون أندرسون ليبدو أمام الجميع أنه المنافس القوي. كان علىٰ بوش تخطي الحاجز الثاني في الانتخابات الأولية في نيوهامبشير وقد رأى ويليام ويب الناشر المشهور في مانشستر (يونيون ليدر) ـ زعيم الاتحاد أن تحرر وليبرالية بوش ساعدته باعتباره ليبراليا من الوزن الخفيف وأن ما أبداه من معارضة ساهمت في نجاح بوش لأنه معارضته كان سببها أنه اعتبر بوش خطراً حقيقياً علىٰ مرشحه المحافظ المفضل رونالد ريغان.

إن بعض هذه المزايا التي لا شك فيها والتي كان من المحتمل أن تكسب تأييد الليبراليين الجمهوريين والمستقلين ـ الموجودين في نيوهامبشير ـ هذه المزايا أضاعها بوش من خلال مناظرة نظمها (ناشو تلغراف) والتي كانت عبارة عن مناظرة وجهاً لوجه بين ريغان وبوش. هوارد بيكر وجون أندرسون طلبا أيضاً السماح لهما بالمشاركة. كان ريغان الواثق من نفسه كعادته راغباً في إشراكهما في المناظرة. لكن بوش وفي عرض نادر للانفعال العام أصر علىٰ الالتزام الحرفي بالاتفاق الذي وقعه

منظمو حملته مع رجالات ريغان. ولم يسمح أو يوافق. وفي النهاية كان بوش هو الخاسر في المرتين ـ منذ تمت المناظرة وطرح الأربعة آرائهم الهزيلة وبدا بوش سيئاً. . لم يكن للحادث أهمية كبيرة في حد ذاته وربما كان تأثيره قليلاً علىٰ النتائج النهائية للانتخابات الأولية في نيوهامبشير ولكن المناظرة كشفت بعض الشيء عن شخصية الرجلين. وفي عملية الاقتراع التي جرت وعلىٰ شاشة التلفزيون خسر بوش وفاز ريغان.

وفي الانتخابات التالية الأولية المهمة لولاية ماساتشوستس هزم بوش بالكاد المرشح الجمهوري (الحصان الأسود) جون أندرسون. وفاز بوش مؤثراً في كونكتيكوت إحدىٰ الولايات التي اتخذها موطناً له. كانت نتائج ولاية فلوريدا كارثة عليه فقد فاز ريغان بأغلبية (٥٧) في المئة. وحصل بوش علىٰ (٣٠) في المئة فقط. أما في ولاية بنسلفانيا وهي ولاية مهمة مثل فلوريدا فقد رفع بوش نفسه من الحضيض حيث فاز علىٰ ريغان بنسبة محترمة (٥٣ : ٤٦) ثم واصل انتصاره في ميتشغان. وبكل وضوح فقد ينال التأييد في أجزاء كثيرة من البلاد لكن كان أمامه انتخابات تمهيدية حاسمة عليه أن يواجهها في كاليفورنيا وأوهايو، وأظهرت استطلاعات الرأي العام عبر وسائل الإعلام أن ريغان سيفوز في الولايتين. هذا الأمر كان بالنسبة لكثير من الأمريكيين الذين يتلقون أخبارهم من التلفزيون بأن معركة الانتخابات قد انتهت وأن ريغان هو الفائز الذي سيُرشح باسم الحزب الجمهوري ولا توجد وسيلة تعطله عن ذلك أو توقف تقدمه.

في يوم الاحتفال «يوم الذكرىٰ» توصل بوش إلىٰ قناعة بأن استطلاعات الرأي العامة صحيحة. . واتضحت قلة الفرص أمامه لمواصلة المعركة الانتخابية. كانت الأموال اللازمة لتغطية نفقات الانتخابات الأولية في شهر حزيران قليلة لا تكفي لكن الأهم من ذلك لم يكن بوش راغباً في رؤية نفسه يهوي إلىٰ هزيمة محققة فأدرك أنه قد آن الأوان ليعلن انتهاء حملته. قام بإخطار ريغان بقراره وأضاف متسائلاً هل يوجد

هنـــاك من يود أن يشغـل منصب نائب الـرئيس إلىٰ جوار الحـاكم السـابق لولاية كاليفورنيا. وقد فهم ريغان بأن الأمر لا يحتاج لموافقته، وتجنب بوش أن يرفض دعوة ريغان ليدخل باسم الحزب الجمهوري (الانتخابات). . كان وبكل بساطة يرغب في أن يشعر الحاكم أنه لا يضغط عليه. .

إن اليانكي الأمريكي ابن كونيكتكوت، ومليونير تكساس، والمقيم في منتجع مين الصيفي، ونزيل العاصمة واشنطن الذي كان يعتمد علىٰ الآخرين في تسلمه مناصبه كان لا يرغب أن يظهر بأنه هو الذي يزكي ويرشح نفسه، وتم تأكيد ترشيح ريغان في مؤتمر الحزب الجمهوري في ديترويت. .

كان السؤال الـوحيد هو من هو المرشح لمنصب نائب الرئيس؟ مع ملاحظة العيوب الـواضحة لريغان والتي يدركها الجميع فقد تصور الكثيرون ومنهم هنري كيسنجر بأن جيرالد فورد ربما كان اختياره موفقاً. إذا أخذنا بعين الاعتبار خبرة فورد السابقة كرئيس في السنوات الصعبة التي تلت فضيحة ووترغيت فإن تقديمه كرئيس قادم للولايات المتحدة يبدو أمراً مساعداً، ويعتبر عاملاً مكملاً علىٰ أي حال.

في الحقيقة ظهرت فكرة الرئاسة المشتركة بالرغم أن الحكمة السياسية كانت تقتضي بعدم طرح أي اقتراح غريب كهذا بصورة رسمية. وإن ترشيح فورد بقيت له مزايا كثيرة فهو سيوفر التوازن الجغرافي، ويعرف رجالات الكونجرس معرفة جيدة، بحكم أنه خدم لمدة عقدين في مجلس النواب. لكن هذا لم يتم. فقد تم اختيار جورج بوش نائباً للرئيس باعتبـاره حاصـلاً علىٰ أعلىٰ الأصـوات في الانتخابات الجمهورية التمهيدية (الأولية) وقد بذل جميس بيكر جهداً كبيراً لضمان نجاح رجله باعتباره رجل المستقبل وليس كما اقترح هنري كيسنجر المرشح المهزوم في عام ١٩٧٦، وقد نجح بيكر في الحصول علىٰ موافقة رونالد ريغان.

نال ريغان شهرته كجمهوري من طراز جولد ووتر، وأن اختياره لبوش برز كاختيار

لشخص معتدل ويمثل الوسط في الحزب الجمهوري. وقد قالت جريدة النيويورك تايمز في مقال لها تعقيباً علىٰ المؤتمر بأن بوش رجل جاد وقادر ومحبوب. وقد كان رد الفعل لهذا الإطراء فاتراً. فإن الاحتجاج الإضافي بأن الاختيار الثاني لرونالد ريغان لم يكن اختياراً من المرتبة الثانية.. وقد بدا الأمر مهيناً؟ فمن هو الذي أشار بأن بوش يعتبر من المرتبة الثانية؟ وفي الحقيقة فإن صحيفة الواشنطن بوست اقتربت لدرجة كبيرة من الإعلان عن ذلك بقولها «إن من يتهم جورج بوش بأنه ليبرالي فإنه هو نفسه ليس ليبرالياً».. إن بوش لا يمثل خطراً كبيراً علىٰ الجمهورية كيساري. فهو من وسط اليمين التقليدي وشخصية حكومية أظهر المرونة ولكنه ليس رئاسياً بدرجة خاصة. لم يحقق بوش ما كان يريده لكن حقق شيئاً جيداً علىٰ الأغلب.

يعتبر الرئيس كبير السن وكان هناك دائماً احتمال من إصابته بمرض خطير أو وفاته خلال فترة ولايته. لكن الذي لم يتنبأ به أحد هو تعرضه لمحاولة اغتيال تؤدي بحياة الرئيس بعد ثلاثة شهور من توليه منصبه. وبالنسبة للعارفين بحقيقة الموقف بالتأكيد يعرفون بأن بوش لن يكون بعيداً عن تولي السلطة. في منصب الرئيس. مع أن مسألة الخلافة لم تصل إليه بسهولة أو بسرعة كان علىٰ بوش أن يتولىٰ منصب نائب الرئيس لمدة ثمانية أعوام ليقوم بما قام بفعله ريتشارد نيكسون قبل عقدين سابقين.

في عام ١٩٨٨ حصل بوش علىٰ الجائزة التي هيأها له ريغان ـ فقد فاز بالترشيح بسهولة. وواصل طريقه نحو الفوز في الانتخابات بسهولة أيضاً لكن ليس بنفس البراعة المدروسة التي اعتاد ريغان أن يقوم بها.

وعلىٰ طريقة المنافسة مع المرشح سيء الحظ مايكل دوكاكيس فقد كشف اليانكي (بوش) عن لونه الحقيقي فهو لم يكن جمهورياً بتقاليد ماساتشوستس ولا سالتوستال ولا كابوتلودج ـ فقد ظهر بنفس شخصية ليندون جونسون (تكساس) أي بالطريقة التي يوصف بها التكساسيون. إن السؤال الذي لم نصل إلىٰ إجابة كاملة عنه هل تصرف بوش وفق طبيعة اليانكي القاسية في مواجهته مع منافسه ضئيل

الجسم الـذي ينحدر من أصل يوناني ، وقد احتقره بصورة أقل من احتقاره لجيمي كارتر. أو أن سلوكه يعكس المتاعب التي تعرض لها في شبابه مع أصحابه.

إن الحملة الانتخـابية ستظل ذكراها ماثلة ليس فقط في أذهان الديمقراطيين لكن بسبب ويلي هورتـون. . الأسود الذي ارتكب جريمة قتل من الدرجة الأولىٰ ومنح إجازة لمدة أسبوع خارج السجن طبقاً للوائح العقوبات في سجن ماساتشوستس والذي ارتكب بعد ذلك جريمتي طعن واغتصاب. إن هذا نوع من التساهل الذي تحتـاج الأمـة الأمـريكية إلىٰ الحمـاية منه. وعلىٰ قنوات التلفزيون التجارية فإن الحادث صور بطريقة توحي بالعنصرية ـ وهي طريقة رمزية فهمها كل رجل أبيض وأسود. لقد كان أكثر من هجوم علىٰ حاكم ليبرالي لولاية ليبرالية وأكثر من حيلة قذرة جانبية. . تلك الخشونة التي سيندم عليها قبل وفاته المبكرة بعد سنوات قليلة. . وفي هذا كما في القضايا المعروفة بالسياسة ومن ضمنها احترام وتحية العلم الأمريكي فقد أظهر نائب الرئيس اللامبالاة التي عكست شيئاً أكثر من إثارة عرضية أو حملة انتخابية. .

لقد كان نائب الرئيس علىٰ دراية تامة بما فعله أثناء حملته الانتخابية لتشويه سمعة شخص له جانب الخبرة في الغش في (بيكون هيل) ولم تكن لديه فكرة عن الأبعاد التي ستسير عليها الأمور في واشنطن. إن جائزة الوصول إلىٰ البيت الأبيض كانت كافية لتبرير أي تصرف وأي كلمة.

لقد عكس خطاب بوش أثناء توليه المنصب ضحالة فهمه لطبيعة المنصب الذي سيتولاه. حقيقة الأمر أن خطاب بوش خلا من تحديد المضمون وبها إشارات دينية مستوحاة كما كان يفعل ريغان في العادة، فهو لم يتحدث عن السياسة الخارجية. تعلم بوش الكثير أثنـاء عمله إلىٰ جوار ريغان إن هذه الصيغة تثير اهتمام الشعب الأمريكي. وهو علىٰ معرفة بضرورة إثارة مشاهدي التلفزيون الذين ينتظرون ذلك. لقد كان علىٰ استعداد كبير لأن يتبع تقليد الرئيس السابق الذي كان جالساً علىٰ بعد

عدة أقدام منه. وأعطىٰ التصور بأن المناسبة تستدعي وجوده.

إن الخطاب الذي كتبه بيغن نونان "Peggy Noonan" الذي فرغ لتوه من كتابة خطاب الوداع لرونالد ريغان امتلأ بالعواطف، ولا يوجد ما يشابهه في تاريخ الجمهورية الطويل. تم إلقاء الخطاب من الشرفة الأمامية الديمقراطية في الذكرىٰ المئوية الثانية كان الخطاب مثيراً لكن دون إحراج ـ فقد آمن الرئيس بأن عصر التتولارية (مجموع الشعب ـ الشيوعية) قد انتهىٰ وأن أوراق هذه الأنظمة وأفكارها تساقطت مثل شجرة جافة تطايرت أوراقها. فتضمن الخطاب عبارات:

«الأسواق الحرة ـ الرأي الحر ـ الانتخابات الحرة ـ الممارسة الحرة» دون تدخل الدولة ـ هذا هو المصير المؤكد للعالم».

وبطريقته في العودة دائماً إلىٰ الخيال الديني قال الرئيس:

«لقد اخترت مرشدي وهو أمل القديس.. (في الأوقات الحرجة).. الوحدة.. في الأمور المهمة ـ التنوع في جميع الأشياء ـ الكرم». البلاد ـ الفخورة ـ الحرة ـ الكريمة المتقدمة.. تعرف أن الأمور قيمتها قليلة، الأطفال يحتاجون لتعلم ما معنىٰ الصديق المخلص.. الأب المحب. المواطن الذي يفارق بيته وجيرانه ومدينته بصورة أفضل مما وجدها عليه. وأن يساعدوا في ذلك عن طريق القلوب الطيبة والنفوس الصافية.. ذلك هدف للرئاسة الأمريكية يستحق العمل لأجله.. مع الاعتراف بصعوبة تحقيقه. أمريكا لم تكن يوماً عظيمة إلا عندما التزمت بالمبادىء العالية مما جعلها أمة أكثر لطفاً واحتراماً من غيرها من أمم العالم.

إن التشرد وإدمان المخدرات وانتشار الجريمة هي مصائب حديثة.. وقال الرئيس كان الحل القديم والطريقة القديمة في معالجة تلك المشكلات هو أن المال العام وحده هو الذي يستطيع حل هذه المشكلات. لكننا تعلمنا أن ذلك ليس صحيحاً. علىٰ أي حال فإن ما لدينا من أموال قليل ـ ونعاني من عجز علينا

تخفيضه. . لدينا إرادة أكبر. . وهذه الإرادة هي ما نحتاجه».

إن طيبة وشجاعة الشعب الأمريكي كانا المصدرين الوحيدين اللذين يصلحان عند الحاجة لأن يعتمد الرئيس علىٰ كليهما. تحدث أيضاً عن نشاطه الجديد. وهو يثير الاستفادة من الموهبة غير المستخدمة لكبار السن والطاقة المشتتة للشباب. . لنعمل سوياً تحت ألف نقطة من الضوء من المنظمات الاجتماعية للوطن. الواجب والتضحية والالتزام والوطنية التي تعبر عن نفسها في المشاركة والبدء في العمل. . هو كل ما تريده أمـريكـا. إن الأمة لا يمكن أن تستمر في المعاناة بسبب ذكريات حرب فيتنام. إن الاتفاق والانسجام هما كلمتا السر. الكونجرس والسلطة التنفيذية عليهما العمل سوياً.

إن الـرجل الذي أظهر خبرته كان مختلفاً عن منافسه حاكم ماساتشوستس ولم يتحدث إلا قليلاً عن العالم الخارجي. وما أبداه كان غامضاً ويَعبّر عن سياسة خارجية خالية من المبـادىء والأفكـار. ستظل الولايات المتحدة قوية للحفاظ علىٰ السلام نحن ملتزمون بهذه المبادىء.

ستظل الولايات المتحدة قوية لتحافظ علىٰ السلام وهي ملتزمة بكلمتها. وقال الـرئيس بصـوت مُنغم: «تشبـه الأمم العظيمة الرجال العظام في احترام الكلمة، ويجب الحفاظ علىٰ قوة الدول الحليفة، وعلىٰ التقارب الأمريكي ـ السوفييتي بما يتناسب مع أمننا وتقدمنا». وهي عبارة واضحة تماماً. اعترف الرئيس بأنه ليس أميراً ولا بابا وأنه لن يبحث عن نافذة تُطل علىٰ أرواح الناس بل يسعىٰ إلىٰ تسامح أكبر. كانت هذه كلمات الرئيس عن الأمل والوعد كما وردت في خطابه يوم ٢٠ ـ كانون الثاني ـ ١٩٨٩.

كان من المستحيل في الشهـور التالية الاعتقاد بأن الرئيس لم يكن محظوظاً بدرجـة كبيرة، لدرجـة أن أقـرب أصـدقـائـه وصفوه بـ «جورج المحظوظ». بدت إمبراطورية الشر في حالة كبيرة من التفكك بعد أن كانت توصف بأنها خطرة ـ لم

يصـل الاتحاد السوفييتي إلىٰ مرحلة الإفلاس بسبب تنافسه عسكرياً مع الولايات المتحدة كما أشاع أتباع ريغان، كما أن الديمقراطية في أوروبا الشرقية لم تنهض بناء علىٰ رغبـة الـولايات المتحدة. . الحقيقة أن الأحداث التي شهدها الاتحاد السـوفييتي ودول وسط وشـرق أوروبـا كانت نتيجة للأحداث الداخلية في العالم الشيوعي من الناحية السياسية والعقائدية والاقتصادية، وهي أكثر من إعداد من إدارة الجمهورية الأمريكية التي كانت تكافح للحصول علىٰ نفقات دفاعية أكبر.

بدأ عام ١٩٨٩ ـ العام البارز ـ بالثورة السلمية في المجر وانتهىٰ بحمام الدم في رومانيا. هنأ الرئيس العالم علىٰ حظه السعيد. . لكن لم تكن لديه فكرة عن كيفية مساعدة هذه الأقطار التي تحررت حديثاً ـ كما لم يكن لديه رد الفعل المناسب اتجاه الدلائل المتزايدة عن تنامي التمرد العام والانهيار الاقتصادي في الاتحاد السوفييتي.

أُجهد غورباتشوف في إظهار نفسه كزعيم مرموق وهو يضع لنفسه نهجاً سياسياً هذا الأسبـوع، ونهجـاً آخراً في الأسبوع التالي، وهو يستجدي لزيادة المعجبين الغربيين بسياسته، وبدا غورباتشوف عاجزاً أمام الطوفان الذي يجتاح وسط أوروبا وشرقها كعجز الذين تم إقصاؤهم عن السلطة، تظاهر غورباتشوف أنه يمسك بزمام المـوقف بينما عجز بوش، عن التفكير فيما يمكنه عمله لتسريع وتيرة الأحداث. ولضحالته في السياسة الخارجية لم يستفد بوش من الفرصة المتاحة أو يُبدِ التحدي.

كانت تنقص بوش الكلمـات والسياسـة التي من شأنها تشجيع شعوب شرق أوروبا التي حطمت مؤخراً ما يمكن اعتباره السجون الشيوعية. عبّر الرئيس تعبيراً سيئاً تجاه بولندا التي كانت تبدي إعجابها وميلها نحو الولايات المتحدة خلال فترة الحكم الشيوعي رغم شعورها بالمرارة من اتفاقية مالطا التي وقعها روزفلت. وتم إعطاء الفرصة للرئيس ليلقي خطاباً تاريخياً، لكنه لم يكن أيضاً راغباً في ذلك. إن توقعات البولنديين للحصول علىٰ مساعدة أمريكية يجب عدم تشجيعها. .

ألقىٰ الرئيس خطاباً تافِهاً، وكانت الكلمات محسوبة . . ففي ذهنه أن الولايات المتحدة فقيرة، وينبغي علىٰ البولنديين ألا يعيشوا في وهم بأن العم سام سيصلهم قريباً حاملاً حقيبة الهدايا.

لم يكن لدىٰ بوش الأموال اللازمة ولا الرغبة ولا التصور أو المعرفة في اقتراح أشياء أخـرىٰ أكثر فائدة للتعاون مع المجموعة الأوروبية، ومن أجل وضع سياسة تساهم في مساعدة دولة صديقة دمرتها الحرب وأربعة عقود من الاستغلال السوفييتي.

لم يكن لدىٰ بوش فكرة واضحة عن مقدار الأذىٰ الذي لحق بولندا أثناء الحرب العـالمية الثـانية، ولم يكن يفهم لمـاذا تبـدي ألمـانيا اهتمـاماً بتقديم الخدمات الاجتماعية لبولندا، ورغم ذلك لم تغفر بولندا للألمان ما فعلوه. كما لم يفهم بوش مدىٰ احتقـار بولنـدا الكـاثـوليكية لوجود مجتمع ملحد علىٰ حدودها. ومن مآسي البولنديين. . مذبحة كاتين، . . والتحالف السوفييتي ـ الألماني. وآلاف المعتقلين البولنديين في سجون ستالين ـ إضافة إلىٰ ذلك ما تعرض له شعبها من استغلال عبر عقود عدة، مما جعله عاجزاً أمام القوة العسكرية.

وفشـل الـرئيس بوش في تقـديم مجرد وعد لمساعدة بولندا بسبب تعقيدات الموازنة الاتحادية الأمريكية. كما فشل بوش في تقديم مفهوم لما يرغب العملاق الأمريكي في تقديمه. . مما كشف عن قِصَرْ النظر الأمريكي.

وكشف بوش بطريقة مهينة عن قصور الالتزام السياسي. . كانت بولندا نقطة التوقف في رحلة الرئيس عبر دول أوروبية مزدحمة.

أمضىٰ بوش حوالي (٢٤) ساعـة في زيارة للمجـر، وألقىٰ خطابـاً بليداً رغم التظاهر بالمشاعر الإنسانية. . بدا الرئيس أمام الجمهور المتعاطف وكأنه يتحرك وفق مفهوم «زيارة رسمية يقوم بها رئيس أمريكي».

ولم يكن لدي بوش وقت لزيارة العاصمة بودابست، ولم يكن لديه تصور للاستفادة ـ من ثورتها السلمية ـ في تحقيق أهداف أكبر. إن ذلك يعود إلىٰ جهله بالتاريخ ولسنوات العزلة الطويلة التي أمضاها أثناء خدمته مع الإدارة الجمهورية في مرحلة الحرب الباردة. وحدث في المجر نفس ما حدث في بولندا حيث فشل الرئيس ووزير خارجيته في تقديم الموقف المجري إلىٰ العالم الأوروبي أو العالم بأسره. بقي بوش كعادته متفاخراً بنفسه، جامداً، مجاملاً يشعر أنه علىٰ صواب. وفشل في تقدير كيف يمكن أن تتصرف الولايات المتحدة إزاء أحداث المستقبل التي بدأت بوادرها تتكشف. ظهرت الدلائل علىٰ بداية الأحداث في أوائل شهر تموز ثم تكررت ولفتت انتباه الأوروبيين في الشهور التالية لتصبح فيما بعد الموضوع اليومي الرئيس في نشرات أخبار التلفزيون الأمريكي التي يبثها للمشاهدين الذين حرصوا علىٰ متابعتها، إذ أن المواطن العادي لا يمكنه الوصول إلىٰ مصادر المعلومات ـ موطن الأحداث ـ. وبقي الرئيس يجلس ويتابع ويتظاهر بأنه يعي ويفهم ما أصبح معروفاً بالسنة الحرجة في التاريخ الأوروبي.

شغلت الأحداث الدائرة في الاتحاد السوفييتي وجمهوريات البلطيق الاهتمام، وازداد التوتر بعد أن اعترفت القيادة السوفييتية في بداية شهر آب بوجود معاهدة عدم اعتداء تم التوقيع عليها عام ١٩٣٩ بين السوفييت والنازية. كان أمر تلك المعاهدة معروفاً منذ زمن طويل خارج الاتحاد السوفييتي، وهذه المعاهدة هي التي أدت إلىٰ تقسيم بولندا وأطلقت يد الاتحاد السوفييتي لاحتلال جمهوريات البلطيق؛ استونيا، ولا تفيا. وليتوانيا.

قامت المظاهرات الضخمة في الجمهوريات الثلاث وتزامنت مع الذكرىٰ السنوية الخامسة عشرة لتوقيع تلك الاتفاقية. امتدت سلسلة الجموع البشرية التي يزيد عددها علىٰ مليون رجل وامرأة من تالين في استونيا إلىٰ ريغا في لاتفيا إلىٰ فيلنيوس في ليتوانيا. كانوا يتظاهرون ضد الاحتلال السوفييتي الظالم الذي جعلهم

لا يتقبلون ما يريد الكرملين.

لم تعترف الولايات المتحدة رسمياً بقرار الاتحاد السوفييتي ضم جمهوريات البلطيق.. ولم يشأ الرئيس بوش أن يعلق علىٰ هذه المظاهرة النشطة القوية التي تطالب بالانفصال. لم يكن من المؤكد أن يستقبل البيت الأبيض بوريس يلتسين في زيارته إلىٰ نيويورك يوم ٩ ـ أيلول، لأنه لم يرغب أن يزعج ميخائيل غورباتشوف، أو أن يبث رسالة خاطئة للشعب الروسي.

كانت الإدارة الأمريكية بزعامة بوش كغيرها منهمكة بإرسال الرسائل إلىٰ العالم. لقد كان العالم كله يتابع ما يرد عن البيت الأبيض باعتباره المركز السياسي للأحداث العالمية، وأخيراً وافق برنت سكاوكروفت مستشار الرئيس لشئون الأمن القومي علىٰ استقبال يلتسين.. وأمضىٰ معه بوش دقائق معدودة.. كان هناك عدد قليل في الولايات المتحدة ممن يعرف من هو يلتسين.. وماذا يمثل؟

علىٰ أية حال عندما نشرت صحيفة (لاربلبيكا) ـ الإيطالية عن يلتسين أنه من نوع الذين يشربون المسكرات كثيراً، وأنه أنفق مبالغ كبيرة في مركز تسوق أمريكي، قامت جريدة برافدا الروسية بإعادة نشر الأخبار، وأخذت الصحافة الأمريكية السبق الصحفي بإعادة نشرها.. كان الأمر كله مادة تسلية في أواخر الصيف.. لقد تم وضع هذه الأخبار بدقة محسوبة لإثارة خيال القراء حيث كانت مليئة بما يشد انتباه القارىء.

ألقىٰ وزير الخارجية السوفييتي يوم ٢٣ ـ تشرين أول خطاباً أمام مجلس السوفييت الأعلىٰ، أعلن فيه أن التدخل السوفييتي في أفغانستان يتناقض مع السلوك الإنساني ومبادىء الإنسانية.. وأقر بأن بناء محطة الرادار في كراسفو يارسك في عام ١٩٧٢ يخالف نصوص اتفاقية ١٩٧٢.

بدا واضحاً أكثر من أي وقت مضىٰ أن كلا من الاتحاد السوفييتي والولايات

المتحدة يفهم كل منهما الآخر وأن كلا البلدين ـ يقتربان من بعضهما بصورة جيدة. بدا الأمر في كلا البلدين وكأن التفاهم الأمريكي والسوفييتي يساهم بطريقة ما في تأجيج ثورة شعوب شرق أوروبا إذا جاز لنا أن نُسقط هذه العبارة علىٰ الأحداث المتناثرة التي بدا طابعها غير واضح.

إن ما كان يجري في أوروبا الشرقية لا يعتمد علىٰ الولايات المتحدة، وإنما يعتمد بصورة ما علىٰ ما يصدر من قرارات من الاتحاد السوفييتي، لكن تصريحات غورباتشوف التي يُعلن فيها احترامه المطلق لسيادة جميع الدول.. وأن الاتحاد السوفييتي لا يود التدخل في شئون الآخرين.. كل هذا كان له أثره.. مع أن ذلك لا ينطبق علىٰ أحداث شهر تشرين الأول التي جرت في جمهورية ألمانيا الديمقراطية (ألمانيا الشرقية).

كانت تتم إعادة كتابة التاريخ في دول أوروبا الشيوعية.. وقد استمرت الاضطرابات في ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا وليتوانيا ورومانيا. بدا وسط وشرق أوروبا في حالة غليان بعد الغييرات الثورية في بولندا والمجر. لم يكن هناك ما يثير اهتمام الناس أكثر من لقاء أقوىٰ زعيمين في العالم.. وهما زعيما الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة.. وإذا كانت أوروبا مشغولة بثوراتها فإن الولايات المتحدة مشغولة بالإعداد لقمة مالطا..

قدّم بوش الاقتراحات الأمريكية في قمة مالطا.. وهي اتفاقية ثنائية لحظر شحن الأسلحة النووية علىٰ السفن واتفاقية يتم التوقيع عليها في حزيران عام ١٩٩٠ لمراقبة الأسلحة الاستراتيجية، وعدم إنتاج وتصنيع أسلحة كيمائية في الولايات المتحدة عندما توقع الدول القادرة علىٰ إنتاج مثل هذه الأسلحة الكيمائية علىٰ اتفاقية دولية تحرم إنتاجها.. واتفاقية أخرىٰ بشأن حرية التجارة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي.. وتخفيف القيود علىٰ قانون الهجرة السوفييتي.. وطُلب من السوفييت إيقاف تزويد ثوار السلفادور اليساريين بالأسلحة..

كان المؤتمر جديراً بالملاحظة وذلك بسبب أحوال الطقس. . إن الذين خططوا لعقده يجهلون حلول فصل الشتاء في منطقة البحر المتوسط في وقت مبكر. . بعد المؤتمر الصحفي الذي عقد يوم ٣ ـ كانون أول، عبر الزعيمان عن سرورهما بنتائج مؤتمر القمة، ثم أنكر غورباتشوف الاتهامات الأمريكية للاتحاد السوفييتي بأنه لا يزال مستمراً في تزويد ثوار السلفادور بالأسلحة.

كان مؤتمر قمة مالطا فرصة إعلامية جيدة حيث تتقاذف الأمواج السفن مما هيأ فرصة نادرة للمصورين لالتقاط صور تختلف عن لقاء غورباتشوف ـ ريغان.

تجمع عدد كبير من الصحفيين لتغطية هذا الحدث التاريخي. . لكنهم لم يجدوا إلا القليل لنقله. . ومع ذلك استمروا في الثرثرة ساعة بعد ساعة.

تواصلت الصداقة الأمريكية ـ السوفييتية. . وقد كان من المعتقد بأن هذه الأخبار أهم من الأخبار المثيرة التي شدت انتباه العالم في أوروبا الشرقية.

أي سنة هذه؟ وأي إرث لم يستحقه قد ناله الرئيس الجديد للولايات المتحدة؟ كيف يرىٰ ذلك كله مع حلول عام ١٩٩٠؟ ثم ما المزايا والفوائد التي سيجنيها من الأحداث التي تضعف وتدمر السلطة الشيوعية في أوروبا؟ كانت بيانات الرئيس محسوبة وقليلة. لقد كان السرور بادياً عليه. . لكن خططه كانت غامضة. لقد جلب عام ١٩٨٩ للرئيس بصفة أساسية حصاداً لم يكن يحلم به وأصلاً لم يزرعه. . هل كان لدىٰ بوش إحساس بأن شهر العسل لغورباتشوف قد انتهىٰ في الاتحاد السوفييتي. . رغم استمراره في بعض الدول الأجنبية. . وأن هذا يمثل تهديداً لاستمراره في السلطة؟

رضيت الولايات المتحدة بما تنبأت بأنه سيكون الأفضل في العام القادم، لكن لم يتساءل أحد هل الانتقال للديمقراطية في وسط أوروبا سيكون صعباً أم سهلاً. . وهل الجراح التي أصابت الشيوعيين عميقة كما تبدو. وهل يفهم الرئيس عواقب

ملاحظاته المتكررة بأن الحرب الباردة قد انتهت؟ فإذا كانت الحرب الباردة حقاً قد انتهت. . فلا بد من تغيير سياسة الولايات المتحدة بصورة شاملة. . إن اهتمام الرئيس بالشئون السياسية كان في أيدي رجال جعلوا همهم الاتحاد السوفييتي، ولكن بعد ذلك ما هو الموضوع الذي سيكون محور اهتمام السياسة الخارجية الأمريكية.

من أين سيتلقىٰ الرئيس آراء المستشارين؟ ليس من وزير خارجية لأن معرفته أقل من معرفة رئيسه. . ولا من مستشار الأمن القومي. . لأن خبرته تنحصر في دبلوماسية الحرب الباردة. لقد أصبح من الضروري التفكير في المصادر الأخرىٰ: الثقافية والسياسية. إن الأمور لا تبشر بالتفاؤل. لم يعتد الرئيس علىٰ التغيير وهو معروف بعدم إطلاعه الواسع أو بالتفكير العميق.

هل سيقود جهل الرئيس في الشئون الخارجية إلىٰ الخطأ في علاقته مع الاتحاد السوفييتي أو أوروبا أو الشرق الأوسط. . أو ما يسمىٰ بدول العالم الثالث. فالرئيس بدون الدراسات التي قدمها هنري كيسنجر أو جين كيركباتريك سيبقىٰ قاصراً عن فهم طبيعة حكومات السلطة. . وغير ذلك. . كيف سيقيم علاقاته مع العربية السعودية أو الكويت أو العراق أو الاتحاد السوفييتي أو كوبا أو الصين الشعبية؟

هل كان بوسعه أن يفهم أسباب ضعف اقتصاد الدول الشيوعية ليس فقط في الاتحاد السوفييتي وهو يدافع بحرارة عن الأسواق الحرة؟

هل لا زالت تسيطر الأوهام عليه وهو يرىٰ بنفسه كيف تمكن الألمان وفي ظل النظام الشيوعي من بناء اقتصاد مزدهر؟ فكيف كان يأمل أن يفهم ويستوعب قدرة الاقتصاد الياباني ما دام يردد بأن هذه القدرة ترجع إلىٰ سياسة الاحتلال الأمريكي الذكية وأنها وراء رخاء الاقتصاد الياباني؟

هل كان بمقدور الرئيس أن يفهم أن الضعف الاقتصادي سيحدد ويُشكل

المبادرات السياسية الخارجية التي يرغب الآخرون في الضغط لاتخاذها؟

يبدو من التصريحات والتفسيرات التي أدلىٰ بها الرئيس عما حدث عام ١٩٨٩ وعما يتوقعه في عام ١٩٩٠ ـ أنه لم يفهم إلا القليل عن ديناميكية ثورة أواخر القرن العشرين. . إذا كان الرئيس عاجزاً عن استيعاب أسباب انهيار النظام الشيوعي. . ذلك النظام الذي يخفي طبيعته الحقيقية ويدعي المساواة بين أفراده بينما هو نظام طبقي يقوم علىٰ الامتيازات. . ويبرر أعماله مُضفياً عليها الشرعية بالإشارة دائماً إلىٰ عدو خارجي، بينما يعود ذلك إلىٰ انغلاقه عن العالم الخارجي. . وإلىٰ أن عقليته أسيرة مفرزات الحرب الباردة.

سعىٰ غورباتشوف يائساً لمعالجة الأمر وهو علىٰ دراية بنقاط الضعف السوفييتية كما حاول أن يخفي ما يكتنفها من صعوبة وتعقيدات علىٰ أمل أن يبقىٰ الحزب الشيوعي في السلطة، لكن بوش لم يُقر بعد بوجود مشكلة أمريكية.

رفض بوش مثل سلفه معالجة قضية التمييز العنصري المتفجرة. كان بوش حائراً مثل غيره من أبناء طبقته الاجتماعية وجيله في فهم أسباب جمود الاقتصاد الأمريكي بينما كان يأمل بكل ثقة أن يزدهر بعد الكساد الذي أصابه. كان بوش يؤمن أن الحزب الجمهوري هو حزب البيت الأبيض، كما كان طوال نصف قرن بعد الحرب الأهلية، لذلك لم يفكر لمرة واحدة كيف أثرت سياسة الحرب الباردة علىٰ مجريات الأمور مما أدىٰ إلىٰ إضعاف حرية النقاش لأن الكونجرس كان مشاركاً للإدارة في السلطة.

لم يكن لدىٰ بوش أدنىٰ تصور لمدىٰ حاجة الولايات المتحدة في إعادة تقييم السياسة الخارجية، كما أنه لم يكن يعرف من أين يبدأ، لفشله في فهم العلاقات بين السياسة المحلية والسياسة الخارجية. كان لا يزال يعيش بعقلية عصر نيكسون ـ ريغان حيث كان الانفصال قائماً بين السياساتين. إذا كان توخي الحذر مع الأعداء

قد جعل البلاد تعيش في نصر يعشش في خيالها الواسع . . ما الذي سيحرك الأمة نحو أهدافها؟ كيف ستكون السياسة الخارجية إذا تم استبعاد أخطار العدوان السوفييتي؟ وكيف ستكون عندما لا يظهر في وقت لاحق زعماء جدد علىٰ نمط هتلر؟

افترض الرئيس أن الأمور ستسير بنفس الطريقة التي اعتاد عليها في حياته السياسية. إن افتقار بوش لسعة المعرفة والخيال عكس نفسه في عجزه علىٰ استيعاب الأحداث العالمية التي ترسم معالمها قوىٰ مضادة مثل: الثورة التقنية (التكنولوجية) ووسائل الاتصال الحديثة. . والنظريات الأيديولوجية التي تؤكد علىٰ احترام حقوق الإنسان وشخصيته، وآراء أخرىٰ ضربت جذورها في المبادىء الدينية المقدسة وفي المبادىء العلمانية. . قدم بوش تفسيراً سطحياً لأسباب فشل الشيوعية حيث أعاد ذلك بصفة أساسية إلىٰ الاقتصاد الموجَّه وقال بأن الأسواق الحرة ستحل مشاكل الشعوب التي خضعت فترة طويلة لنير الشيوعية.

لم يخبر أحد الرئيس أن هذه الإصلاحات قديمة، تم اقتراحها وتقديمها بعد الحرب العالمية الأولىٰ لإعادة الرخاء للعالم مثلما كان موجوداً قبل عام ١٩١٤. لم يفكر أحد في تفسير أحوال العشرينات في كالفن كوليدج الأمريكية ولا في غيرها من دول العالم التي عانت من ويلات الحرب حيث غيرت الحرب حياة شعوبها كما غيرت الحرب الباردة حياة الكثيرين.

إن الرئيس ورجال حكومته كانوا ساذجين ويرجع ذلك ليس لأصولهم بل لتعليمهم المحدود وقلة خبرتهم في تصريف شئون البيت الأبيض. . مما جعلهم يعجزون عن فهم تيارات السياسة العالمية الأكبر. إن حصر اهتمامهم في كسب الانتخابات، وإظهار اللامبالاة نحو تعقيدات السياسة العالمية وتقلباتها خارج حدود الولايات المتحدة ـ جعلهم علىٰ حقيقتهم كرجال لا يدركون التغيير ويجهلون فهم التاريخ.

إذا كانت مشاعر الرضا والارتياح لدىٰ الرئيس قد اختلطت بمشاعر الخوف من أحداث العالم الشيوعي فإنه أخفىٰ مشاعره هذه. وفضّل الجلوس والانتظار ـ رغم صغره بالنسبة لسلفه ـ علىٰ أمل أن يحدث شيء ما . . واستمر في حالة الانتظار هذه حتىٰ عندما وقعت أحداث أوروبا الشرقية. ولم يستفد من هذه الأحداث الثورية في تحقيق أهداف أمريكية كما لم يجعل الديمقراطية أكثر قوة في العالم . . كما لم يبذل جهداً في جني مكاسبه السياسية الخارجية لتحقيق إصلاح اقتصادي واجتماعي في الداخل. كل هذا لم يخطر بباله ولا ببال وزير خارجيته لتحقيق هذه الأهداف السياسية الصحيحة.

لم يقدّر بوش مدىٰ هشاشة وضعف مركز غورباتشوف في الاتحاد السوفييتي ولم يرد أن يفهم أنه لن يبقىٰ في كرسيه للأبد. فإذا كانت الحرب الباردة قد انتهت في أحد مظاهرها فإن زعماء الكرملين الحاليين الذين يتسمون بالمرونة لن يعيشوا فترة طويلة جداً، ومن المحتمل أن تظهر زعامة جديدة أقل إيماناً بالنظام الماركسي . . وقد تعمل هذه الزعامة الجديدة جنباً إلىٰ جنب مع غورباتشوف أو بدون وجوده ـ لقيادة الشعب السوفييتي الذي يعاني من عقدة الخوف من الأجانب بعد أن عرف نمط قيادته منذ عام ١٩١٧ .

لم يشعر الرئيس بحاجة للتعامل مع المعارضة في الاتحاد السوفييتي، والتي لا يعرف عنها إلا القليل. ولو اطلع علىٰ طبيعة شخصياتها لأصابته الصدمة لما ينادون به من مبادىء. علىٰ أي حال ـ لو تعامل مع المعارضة فقد يعد هذا في نظره خيانة للقيادة الحالية الموجودة وهو يفضل التعامل معها مع أنها لم تعد تملك السلطة.

كان بوش أيضاً غير قادر علىٰ التعامل مع الصينين الذين قاموا بالثورة في ميدان (تياننمن) وفضل التعامل مع القادة العسكريين الذين أصدروا الأوامر بإطلاق الرصاص علىٰ المتظاهرين. إن الذين كانوا يؤيدون نهج الرئيس واعتبروه حكيماً كانوا يعودون باستمرار إلىٰ تلك الفترة المظلمة من السياسة غير الحكيمة التي

انتهجتها الولايات المتحدة نحو (العزل والحجر) على الصين الشعبية كدولة استبدادية وعدوانية.

إن الحكمة تتطلب التفاوض مع القوة الموجودة. لا يوجد رئيس من الذين نفذوا تلك السياسة يعارض دخول قيادة تحكم الصين القوية المستقلة التي تضم شعباً تعداده بليون نسمة. شاهد الرئيس كغيره من المواطنين العاديين على شاشة التلفزيون مقتل الطلبة الشبان الصينيين. ذكرت بعض التقارير أن أكثر من (٥٠٠٠) رجل وامرأة لاقوا حتفهم في مذبحة بكين، والآلاف أصيبوا بجراح. كما أن هناك آلافاً إضافية تم اعتقالهم لم يظهروا على شاشة التلفزيون الأمريكي. ولذلك كان الإحساس بمشكلتهم أقل. وكانت أمام الرئيس ـ عدة خيارات لكنه اختار الأسهل وهو ألا يفعل شيئاً.

إن خبرته المحدودة في الحياة يمكن أن تفسر رغبته في شغله المنصب الرفيع دون أن يكلف نفسه عناء تسخير هذا المنصب للصالح العام. ويجادل آخرون يميلون للتسامح بأن ضميره الاجتماعي وإحساسه تأثر بالفترة الطويلة التي قضاها أثناء خدمته مع ريغان، ويمكن إيجاد تفسير مقنع أفضل وهو أن بوش كأبناء جيله الأمريكيين اعتاد على جو الحرب الباردة ـ وقد شكلت شخصيته قيمها بحيث لم يعد لديه القدرة على إتيان عمل سياسي أو أخلاقي إذا أراد الابتعاد عن جرائمها الوحشية، وإذا كان السياسيون والبيروقراطيون السوفييت قد وجدوا صعوبة في الانعطاف بدرجة كاملة.. فلماذا لم يقم بذلك الأمريكيون وهم لديهم نفس الخبرة ـ وهل سيكونون أكثر مهارة من السوفييت!!؟

كان السؤال محرجاً بصورة شديدة.. لذلك لم يطرحه أحد

لقد أصاب السؤال وتراً حساساً لدى قلوب عدد من الأمريكيين، وكانت الحرب العالمية الثانية آخر احتفال عالمي يشترك الأمريكيون من جمهوريين وديمقراطيين بالنصر. وكانت الحرب العالمية الثانية هي المثل الأعلى لمجد الأمة الأمريكية،

رغم أن مديرها هو روزفلت الذي يحتقره الجمهوريون اليمنيون.

عاش الأمريكيون في وهم كبير مفاده أن الحرب توفر الحلول، حَقاً إن الحرب قضت علىٰ النازية ـ وساهم النصر الأمريكي في تحويل القوة الإمبراطورية العدوانية لليابان إلىٰ مجتمع مسالم. أصبحت الحروب في العقود التالية أقل جاذبية. . ليس فقط بسبب فيتنام، إن القوة الرهيبة للأسلحة النووية لم تعد تجعل الحرب خياراً يمكن استخدامه في الصراع الدولي مع الاتحاد السوفييتي. . وإن التعايش السلمي المبني علىٰ التسلح هو الجــواب. بقي التفكير في الحـرب مع الـدول الصغيرة المعـادية في ذهن الـولايات المتحـدة. . ووجـد الرئيس سهولة في مهاجمة بنما (وبالطبع في قضية عادلة!!) كما هاجم سلفه ريغان. . دولة أقوىٰ وهي ليبيا وجزيرة صغيرة هي غرينادا.

عاش بوش مع هذه الـذكـريات وهـذه النمـاذج ومـع غيرهـا التي يدين بهـا للديمقراطيين منافسيـه وللجمهوريين رفقائه. إن الحرب تستخدم لحل مشكلات دولية معينة كما قد تستخدم في حل المشكلات الداخلية. . إن هذا القول مجرد لفظ لذلك تعهد جورج بوش في خطابه الذي ألقاه يوم توليه الرئاسة بعد وصوله إلىٰ البيت الأبيض بحرب جديدة (حرب علىٰ المخدرات) والفقر. . كعدو ضخم ومعقد أفسح المجال لعدو داخلي يهدد مستقبل شباب الوطن. اختير وليام بينت لتولي الحملة دون معاونة أحد خاصة من الديمقراطيين اللاهين.

كان المشهد مثيراً. . فلا توجد أموال مخصصة ـ والميزانية الاتحادية الفيدرالية تعاني من عجز. . ولذلك ليس من المتوقع أن تساهم بالكثير في هذه الحملة. كان من الآمـال المـرجوة أن التهديد بإطالة فترة السجن وزيادة كفاءة متابعة الشرطة، والإجراءات الحازمة ضد المتعاملين قد تحقق شيئاً. تم التفكير في أنه عن طريق توعية مدمني المخدرات واستخدام قوة الإقناع للوصول إليهم وإصلاحهم قد تفيد. كما تم التفكير في وضع الخطط للضغط علىٰ الدول خاصة في أمريكا اللاتينية بأن

تكف عن اصطياد الشباب الأبرياء الأمريكيين. . الذين يجهلون أثر الشيطان الذي يدعـون لمعـاقـرتـه وتـدخينه. أكد الرئيس علىٰ هذه المقترحات المتمثلة في قوة الإقناع، والتوعية عن المخدرات بأنها ستساهم في علاج المشكلة.

تم إعلان الحملة قليلة التكاليف ـ وسرعان ما بدأ بينت يزعم الانتصارات التي ظهرت في مخيلته أكثر من وجودها علىٰ أرض الواقع في شوارع العاصمة. وحدث ولا حرج عما كان في نيويورك، وديترويت وكليفلاند ولوس أنجلوس ومدن أمريكية أخرىٰ تعج بالمخدرات. أدرك بينت بعد عامين أن حربه تسير بلا استراتيجية ولم تحقق أي نصر. . ولذلك قرر كغيره عدم حرق نفسه علىٰ مذبح الراتب الحكومي. . وهكذا ترك قائد الميدان أرض معركته.

وبقي جدوله علىٰ حاله دون تنفيذ. . فهل كان الرئيس لا يزال يعتقد أن حربه لا تزال مستمرة علىٰ خير ما يرام؟ يعود المرء ثانية للبحث عن إجابة سؤال يصرخ دون مجيب: هل أدرك الرئيس أنه تولىٰ منصباً، تمتع به، دون أن ينوي حل المشكلات المستعصية سواء في الشئون الخارجية أو المحلية؟

إن خطاباته الهزيلة عكست شيئاً أكبر من عجز الكُتّاب المحدودين الذين يتولون صياغة خطب الرئيس. . إن حالتهم جزء من شيء أخطر. لم تحتو هذه الخطابات علىٰ شيء يقال لأنه لم يكن هناك شيء أصلاً مطلوب منهم قوله. لم يكلف الرئيس نفسه عناء البحث عن أفكار جديدة أو مقترحات تصلح للتعامل مع الفرصة الجديدة المتاحة سواء في الداخل أوالخارج، لقد مارس بوش اللعبة كما علمه إياها ريغان.

كان يعمل ليومه فيتحاشىٰ المشكلات التي تؤثر علىٰ ترشيحه لفترة رئاسية ثانية ومعنىٰ ذلك أن طموحه في الرئاسة الثانية أسمىٰ هدف يسعىٰ إليه.

كان بوش يفتقـر كلية إلىٰ أي أفكـار بخصـوص أوروبا الشرقية، كان حديثه ـ كحـديث غيره ـ عن مشروع مارشال ـ غامضاً. . ولا يعجب أحداً خاصة أولئك

العارفين بعجز الخزانة الأمريكية. . تختلف أمريكا ٨٩ ـ ١٩٩٠ عنها في عام ٤٧ ـ ١٩٤٨ . . فالبلاد تعاني نقصاً في الموارد والإدارة المطلوبة لطرح مبادرات جريئة باهظة التكاليف في العلاقات الخارجية. علىٰ كل الأحوال لم تكن هناك أي أفكار عام ١٩٨٩ .

إن مستشاري الرئيس بوش الذين أسعدهم انتهاء الحرب الباردة لم يكن لديهم فكرة عما يخفيه لهم المستقبل.

كان فهم تطورات وأحداث عام ١٩٨٩ يتطلب النظر إليه علىٰ أنه أبعد من مجرد كونه انتصاراً للديمقراطية أو إنجازاً للسوق الحرة. . بل الأمر يفترض مراجعة دقيقة وتقديراً لكل الأحداث التي غيرت وجه العالم منذ عصر تشرشل وشارل ديجول لأن الكلام وحده والوعود عن إنجازات اقتصادية لن تطفىء النيران التي أشعلتها القومية والعنصرية ذات الجذور التاريخية العميقة التي كانت تغطيها بطبقة خادعة سياسة القمع الشيوعية.

كان بوش الذي تلقىٰ توجيهاته من رونالد ريغان وريتشارد نيكسون يعرف كيف يسعىٰ لكسب الانتخابات والسباحة في مياه الحرب الباردة. لكن بوش كان يجهل الملاحة في بحر عالم غلب عليه زعماء جدد تحرروا لتوهم من السجون والخرافات خاصة من خرافة أن الشيوعية باقية إلىٰ الأبد.

تصور غورباتشوف أنه يعرف الحقيقة، وأن السنوات التي أمضاها في جهاز المخابرات السوفييتي "KGB" جعلته يعرف ما يدور في ذهن الآخرين ويعرفونه.

كانت هناك حاجة ملحة لتغيير اقتصادي جذري. . فاختار غورباتشوف عبارة [(البيروسترويكا) إعادة البناء] ليعلن عن حملة تهدف إلىٰ إصلاحات جذرية في مجال الإنتاج الاقتصادي. . ويتم تحقيقها عن طريق إعادة البناء.

جرىٰ استخدام اللفظ للتعبير عن معان أخرىٰ واستخدمت دون تمييز للتعبير عن الحاجة إلىٰ إصلاح شامل (راديكالي) ثوري، وتغيير ثوري، وطرق تفكير جديدة.. ونشر للديمقراطية.

كان يتوقع أن يؤدي الانتعاش إلىٰ خلق روح جديدة في الشعب السوفييتي.. أي أن يقوم رجال ونساء الاتحاد السوفييتي بتأدية أعمال لم يعملوها في عقود سابقة. إن أفضل الأسرار عن الشيوعية السوفييتية الأوروبية أن العمال كانوا يتلقون أجوراً باخسة وبالتالي يؤدون عملاً أقل، مما ساهم في خلق مجتمع بلا عمل يعاني الملل.

تعود بداية الأحداث السوفييتية إلىٰ عهد خروشوف وما كشفه عن الستالينية.. وها هي قد وصلت إلىٰ نقطة لم يتنبأ بها إلا القلة، فقدت النظرية الشيوعية الإعجاب بها لدىٰ الذين آمنوا بها.. تحول النظام القائم علىٰ حكم الحزب الواحد ـ والرقابة الأمنية المشددة إلىٰ حطام، وثارت القوميات التي كانت توصف عبر الأجهزة السوفييتية ـ بأنها شعوب متساوية.. وبدأت تطالب بالتحرر من النير السوفييتي.

ابتكر غورباتشوف شعارات جديدة لمواجهة المقاومة التي انطلقت من كل جانب.. وكان يود أن ينظر إلىٰ جهوده بأنها من أجل نشر الديمقراطية في الاتحاد السوفييتي. وحظي غورباتشوف بالإعجاب خارج بلاده لكن جهوده في الداخل لم تُسفر عن شيء. ظهرت معارضة يسارية اقترن عملها بالغموض وعدم الانضباط.. وكانت علىٰ استعداد للمجادلة أن البيرويسترويكا عاجزة وأن ما يحتاجه الاتحاد السوفييتي هو إجراء إصلاحات اقتصادية واجتماعية بعيدة المدىٰ. وبدأ في الاتحاد السوفييتي ظهور مجتمع متمدن من الرجال والنساء نظموا أنفسهم بطريقة مستقلةً ـ وطالبوا بالإصلاح السياسي.. إن مثل هذا النشاط لم يكن معروفاً سابقاً في الاتحاد السوفييتي.. شقت البلاد لها مخرجاً من الشيوعية.. لكن ذلك لم يكن أمراً سهلاً..

هل كان الرئيس بوش يدرك مدىٰ هشاشة النظام السوفييتي؟ . . وهل كان يوجد ضمن دائرته من هو قادر علىٰ تقديم صورة حقيقة عن حجم قوة غورباتشوف؟ كان باستطاعة مسئول ذكي في الخارجية الأمريكية أن يتنبأ بنتائج أحداث عام ١٩٨٩ وكان بإمكانه في مثل هذه الحالة أن يهيء نفسه وبلاده للتعامل مع هذه الأحداث.

لم يكن الرئيس بوش قادراً علىٰ أن يفهم أو يتنبأ بما يجري ولذلك لم ير داعياً لإعادة التأكد والاطمئنان علىٰ النتائج. كان تفكير الرئيس يقوم علىٰ أنه إذا ساءت الأمور في الاتحاد السوفييتي فإنه سيعود إلىٰ ممارسة أحد الأساليب السياسية القديمة، لكنه لم يفعل شيئاً في بداية عام ١٩٩٠ ليتعرف علىٰ خطورة وضع غورباتشوف في السلطة.

كانت تنقص الرئيس أفكار حول كيفية التعامل مع بلد لا يعرف عنه إلا ما اطلع عليه أثناء علمه في الأمم المتحدة والمخابرات المركزية (قبل توليه رئاسة الولايات المتحدة) وبدا عجز الرئيس جلياً عندما تطلب الأمر وضع سياسة للتعامل مع دول وسط وشرق أوروبا الشيوعية سابقاً. ومرة أخرىٰ يتبادر التساؤل كيف يمكن أن تكون الحال غير ذلك؟ لم تكن هذه الدول ضمن دائرة اهتمام الرئيس وكانت أمورها لا تنال إلا القليل أثناء مناقشة السياسة الخارجية أثناء عهد الرئيس ريغان إضافة إلىٰ أنها كمجموعة ليس لها وزن في حسابات القوىٰ الدولية.

لم يكن الرئيس بوش مرتاحاً عندما تطلبت منه الظروف أن يتعامل مع فاسلاف هافيل الرئيس المنتخب لتشكوسلوفاكيا. . ليس بسبب ثقافة الرئيس التشيكي وخبرته السابقة ككاتب مسرحي تحول إلىٰ العمل السياسي. . لكن مبعث عدم ارتياح الرئيس كان يعود إلىٰ شيء آخر أكثر أهمية، كانت مشكلة بوش أنه اعتاد علىٰ التعامل زعماء شيوعيين في السلطة وليس مع هؤلاء الذين عانوا من هذه السلطة الشيوعية. كان هافيل زعيماً ليس محسوباً علىٰ المنشقين القدامىٰ من الشيوعيين الذين تدعوهم الولايات المتحدة في زيارة مجاملة والتقاط صور تكسب رضاء

الجمهوريين اليمنيين. لقد حدث شيء أكثر خطورة فهؤلاء المنشقون القدامىٰ أصبحوا يتولون السلطة. . وبالكاد عرف بوش كيف يخاطبهم أو يتفاوض معهم.

منحت مجلة التايم الأمريكية غورباتشوف لقب (رجل العقد) وهو شخص يمكن للرئيس بوش أن يتعامل معه. كانت إنجازات غورباتشوف تحظىٰ بتقدير الرئيس. . لم يسبق للرئيس بوش أن قرأ المسرحيات التي كتبها هافيل ـ ولم يعرف عن قصته المأساوية، لم يعرف إلا ما رددته وسائل الإعلام التي عرضت المسرحيات وقصة حياته بصورة مشوهة سطحية. . حيث تحرص وسائل الإعلام فقط إلىٰ تصويرهم كضحايا سجنوا بسبب أرائهم العلنية، وتحويل تلك البطولات إلىٰ نشاط سياسي مارسوه. ذهب هافيل إلىٰ الولايات المتحدة ليكون شاهداً علىٰ مساوىء النظام الشيوعي، ويتحدث أمام الكونجرس الذي يرحب به بعد أن كشف ما اقترفه النظام الأممي في عدة عقود سابقة بحق المجتمعات التي كانت تفتخر به.

كان هافيل يعرف ما سيقال. . وما يمكن التلميح إليه. جاء إلىٰ الكونجرس ليشهد علىٰ الحياة التي عاناها ليس بصفته الشخصية. . لم يكن دافع هافيل هو الانتقام بل التسامح لأنه يدرك أن أي موقف آخر لن يفيد لا من الناحية السياسية ولا من الناحية الأخلاقية، فإذا كان الرئيس بوش غير قادر علىٰ فهم ما ورد في خطاب هافيل أو لم يعتقد بضرورة فهم ما قاله فمعنىٰ ذلك أنه لم يوجد في البيت الأبيض المسئول القادر علىٰ ذلك. لذلك اعتبرت زيارة هافيل كحدث أقل أهمية من حيث المستوىٰ، وهكذا نُظر إلىٰ (المتسولين) الآخرين في أوروبا.

لم يذكر هافيل اسم الرئيس السوفييتي إلا مرتين في خطابه أمام الكونجرس في الوقت الذي كان فيه غورباتشوف ينال التقدير العالي في الولايات المتحدة. تكلم هافيل عن الأممية وهو النظام الوحيد في دول أوروبا الشرقية الذي عرفه أبناء جيله.

كان لا بد أن يرد في خطابه شيء عن بلاده وعن الاتحاد السوفييتي فقال: «إن

النظام الشيوعي القائم علىٰ الأممية قد خلّف للأمتين؛ التشيك، والسلوفاك كما خلّف للقوميات الأخرىٰ في الاتحاد السوفييتي وخارج الاتحاد السوفييتي التي خضعت لنفوذه إرثاً لا حصر له من الضحايا، ومدى لا حدود له من المعاناة الإنسانية، وتدهوراً اقتصادياً مدمراً، وفوق ذلك كله الإذلال الإنساني الفظيع. لقد جلب لنا أهوالاً، من حسن حظكم أنكم لم تجربوها».

يبدو من الصعب معرفة فيما إذا كان الذين استمعوا لها قبل في واشنطن قد فهموا إشارته (للقوميات الأخرىٰ في الاتحاد السوفييتي). كان الرئيس التشيكي يعرف أن مطالبه لا يمكن إهمالها ووضعها علىٰ الرف بعكس قادة أوروبا الغربية والولايات المتحدة الذين كانوا يودون إعادة النظام والاستقرار إلىٰ أوروبا الشرقية خشية أن يتجاوز المنشقون حدودهم ويطالبون بالاستقلال ورأىٰ الرئيس التشيكي هافيل أن أي نظام يحاول عبر نظام وسائل تعسفية إقامة اتحاد سياسي لا يُمثل إرادة الشعوب عبر ثقافاتهم المتعددة سيواجه التحدي والخطر.

أكد الرئيس التشيكي الذي يتسم بالإيجاز أن أحد أسباب التوتر في الاتحاد السوفييتي التي لا يمكن تجاهلها بسهولة، هو أن غورباتشوف كان يود تجنب مواجهة هذه المشاكل لحين حلول الوقت المناسب، وأشار إلىٰ رغبة الاتحاد السوفييتي في نيل تعاطف الولايات المتحدة إذا كان ذلك سيؤدي إلىٰ إقامة مجتمع يقوم علىٰ التعددية. وأطرىٰ هافيل علىٰ الرئيس بوش واقتراحه بشأن تخفيض عدد القوات المسلحة الموجودة في أوروبا، مما يُسهم في تخفيض حدة التوتر الدولية. كانت تلك أمور ثانوية قياساً علىٰ ما يوليه من أهمية وهو الحفاظ علىٰ قوة الدفع لإجراء الإصلاحات الديمقراطية في الاتحاد السوفييتي وفي دول أوروبا الشرقية.

كانت الهوة واسعة بين ما طرحه هافيل ومقترحات الرئيس بوش، لقد تغير العالم الذي نعرفه في عام ١٩٨٩، ولم يحاول الرئيس بوش الاستفادة من هذه التغيرات الدولية رغم ما اشتهر عنه من خبرة في الشئون السياسية الدولية. كانت الأولوية عند

بوش هي إجراء محادثات ثنائية للحد من التسلح التقليدي بإشراف خبراء من البلدين. . مثل هذه المحادثات يمكن أن تنال التأييد عبر مؤتمرات العملاقين وعبر الإعداد الجيد وتسليط الأضواء الإعلامية عليها. . لكن بوش ركن إلىٰ كرسيّ الرئاسة كالمعتاد ينتظر ما سيحدث.

كان بوش يتبع أسلوب سلفه ريغان فيما يمكن وصفه تأدباً بالإجراءات البوليسية الاحترازية. . إن هذه السياسة فاشلة بكل معنىٰ الكلمة فهي التي دفعت الولايات المتحدة ذات القوة الهائلة إلىٰ تسخير قوتها ضد عدو أضعف منها، مما يشكل انتهاكاً للقانون الدولي ويقدم الدليل كيف تصرفت الولايات المتحدة في مواجهة المشاكل. إن أعمالاً من هذه النوعية في ظل ظروف مناسبة تنعدم فيها مخاطر التدخل الخارجي ساعدت إلىٰ ظهور ما يسمىٰ بالحل الأمريكي دون أن يتطلب ذلك تضحيات أمريكية. . قام بتنفيذ مثل هذه الأعمال العسكرية رونالد ريغان في غرينادا وفي ليبيا، والإجراءات البحرية ضد سوريا، مما جعل بوش يرىٰ ضرورة تنفيذ مثلها في بنما حيث يحكمها دكتاتور يتاجر في المخدرات ويكره الأمريكيين. . ولا بد من ردعه بأقل التكاليف وأقل عدد من الضحايا الأمريكيين وهو المقياس الحقيقي لنجاح العمليات العسكرية.

علىٰ أثر الغزو الأمريكي لبنما لجأ رئيس بنما البائس إلىٰ مقر البعثة البابوية في العاصمة البنمية. . غادر نوريغا راضياً ملجأه يوم ٣ ـ كانون الثاني ـ ١٩٩٠ وسلم نفسه للأمريكيين.

تم نقل نوريغا جواً تحت حراسة مسئولي مكافحة المخدرات إلىٰ قاعدة هوم شيد الجوية في ولاية فلوريدا تمهيداً لبدء محاكمته وتقديمه للعدالة الأمريكية.

كان هذا نصراً ثانيا للرئيس. . وشدت الأحداث وسائل الإعلام الأمريكية وتمت تغطيتها إعلامياً بصورة كاملة لمدة أسبوعين. إن وجود نوريغا سالماً خلف القضبان أفقد الأحداث ما نالته من زخم وتغطية بالصور. وها هي بلاده (بنما) التي كانت

مسرحاً للفوضىٰ أصبحت تنعم بالاستقرار بفضل الاحتلال الأمريكي.

أبدت بعض الصحف القليلة في الولايات المتحدة وغيرها نوعاً من النقد؛ كيف تم تنفيذ هذه العملية بمثل هذا النجاح؟، لكن الرئيس بوش لم يكترث لذلك لأن ضحايا الغزو من مدنيين وعسكريين لم يكونوا أمريكيين.

إن ما كان يشغل بال الرئيس في مجال السياسة الخارجية موضوعين رئيسيين هما: الوحدة الألمانية والزيارة المرتقبة التي سيقوم بها الرئيس السوفييتي لعقد لقاء قمة الزعيمين. كان الرئيس يعتقد أن تحسين العلاقات مع ألمانيا مستقبلاً يعتبر مهماً من جميع النواحي، ووضع الرئيس بوش في وجدانه استغلال هذه الأهمية لألمانيا. . وكان يعتقد بأنها أهم أعضاء المجموعة الأوروبية وستزيد أهميتها في المستقبل قبل نهاية هذا القرن. لم يكن يتطلب الأمر من الرئيس أي مخاطرة فالرؤساء الأمريكيون السابقون علىٰ مدار الأربعين عاماً التي خلت كانوا يؤيدون الوحدة الألمانية ـ ولذلك بات عليه تأمين علاقات جيدة له مع حكومة بون في ألمانيا ـ التي كانت قد ضمنت الموافقة السوفييتية علىٰ تلك الوحدة وأخرجت الموضوع من يدي الرئيس.

وقع بوش وغورباتشوف اتفاقاً ثنائياً تتناول بعض منها اتفاقيات للحد من التسلح وأموراً أخرىٰ وذلك أثناء لقائهما في واشنطن في أواخر شهر أيار، كما تم الاتفاق علىٰ تخفيض الأسلحة النووية الاستراتيجية وتطبيع العلاقات التجارية. كانت الاتفاقيات مهمة لكنها لم تعد تشد اهتمام الشعب الأمريكي بنفس القوة التي حظيت بها المفاوضات السوفييتية ـ الأمريكية في عهد الرئيس ريغان. إن ما كان يبدو شيئاً وحدثاً غريباً أصبح الآن أمراً عادياً. وصفت وسائل الإعلام المؤتمر علىٰ أنه شيء مهم، لقد كان تصوير السفن المتأرجحة علىٰ مياه البحر في جزيرة صقلية، وغورباتشوف يتعثر في خطواته كمثل حيوان يسير في شوارع العاصمة واشنطن ـ كان يثير فضول المصورين لالتقاط مشاهدة تلفزيونية مثيرة.

بعد عدة أيام من تردد صدىٰ اجتماع غورباتشوف وما آل إليه من نجاح وصلت الأنباء هذه المرة تحمل أخباراً سارة فقد فاجأ وزير الخارجية السوفييتي زملاءه وزراء الخارجية في مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي ببيان أعلن فيه أن الاتحاد السوفييتي علىٰ استعداد من جانب واحد لإزالة أسلحته النووية المنصوبة في أوروبا. تبع ذلك بعد بضعة أيام بيان من أعضاء حلف وارسو المجتمعين في موسكو يعلنون فيه أنهم لم يعودوا يعتبرون الغرب عدواً تقليدياً لهم. رحب وزراء حلف الأطلسي (الناتو) واعتبـروا أن ما صدر عن حلف وارسـو يعتبر إيجابياً. واتسعت أبعاد «عصر النوايا الطيبة» وشغلت فترة مهمة، ودفعت هذه الروح قادة دول حلف الناتو الذين اجتمعوا في لندن في أوائل تموز لإصدار (بيان لندن) واقترحوا فيه أن يصدر حلفا وارسو والناتو بياناً مشتركاً يعلنان فيه انتهاء العداء بين دول الحلفين. . كما وجهوا الدعوة للرئيس غورباتشوف وزعماء دول حلف وارسو لزيارة مقر قيادة حلف الأطلسي في بروكسل من أجل إقامة علاقات دبلوماسية واتصالات منتظمة بينهم.

بذلك تكون الحرب الباردة قد انتهت أو هكذا بدت الأمور علىٰ الأقل، ولكن ماذا كانت تفعل الإدارة الأمريكية في المناطق الملتهبة الأخرىٰ مثل الشرق الأوسط؟ هل كان يتم دفع عملية السلام في الوقت الذي شهدت تلك الشهور المحادثات الأوروبية ـ السوفييتية الناضجة؟

للحقيقة فإن وزير الخارجية الأمريكي رغم جولاته الكثيرة لم يجد الوقت الكافي لزيارة منـطقة الشرق الأوسط. . تلك المنطقة المضطربة. توقعت وسائل الإعلام ـ التي نوهت بقدرة بيكر التفاوضية وأطرت علىٰ مواهبه كمحام ـ أن يساهم بدور نشط في الشرق الأوسط. . ويعتمد نجاحه علىٰ الإسرائيليين إذا ما وافقوا علىٰ خططه بشأن مؤتمر السلام، ومما يساهم في ذلك تغيير الحكومة بحيث يتولىٰ السلطة حزب العمل من جديد.

يبدي المهتمون بشئون الشرق الأوسط تفاؤلاً أقل. . بينما لا يوجد نموذج يمكن

اعتماده في معالجة أمر تشترك فيه ستة مجتمعات غير مستقرة، وكل منها قادر علىٰ خلق المشاكل. فمثلاً أعلن إسحاق شامير رئيس وزراء إسرائيل في أوائل كانون الثاني أمام تكتل الليكود. . بأن الهجرة الواسعة ليهود الاتحاد السوفييتي تقتضي أن تكون إسرائيل كبيرة المساحة أيضاً، وأضاف قائلاً بأن إسرائيل ستكون بحاجة للاحتفاظ بالأراضي المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة لاستيعاب وتوطين المهاجرين. ومعنىٰ ذلك أن إسرائيل تعلن عن نيتها في الاحتفاظ بالأراضي المحتلة. واعتقدت وزارة الخارجية الأمريكية التي اعتادت علىٰ التهوين من الأحداث. . أن ملاحظات رئيس الوزراء الإسرائيلي ليست مشجعة. ووردت المشكلة المختلفة تماماً من الكويت حيث قامت الشرطة المزودة بخراطيم المياه والغاز المسيل للدموع بتفريق الآف المتظاهرين المسالمين الذين يطالبون بإعادة الديمقراطية وعودة مجلس الأمة الذي حلته السلطة في عام ١٩٨٦.

مثال ثالث في لبنان. . الذي اختفت أخباره من الصفحات الأولىٰ للصحافة الأمريكية خاصة بعد أن سحب الرئيس ريغان جميع القوات الأمريكية فقد استمرت الأزمة تعصف بهذا البلد، وتسهم مشاهد العنف من جديد في توتر العلاقات بين القوات المتحاربة لكل من المسلمين والمسيحيين. . وتخلق توتراً يهدد بخرق اتفاقيات إطلاق النار التي اعتادوا علىٰ إعلانها ثم خرقها.

ظلت القوات السورية والإيرانية تقوم بدور نشط في لبنان. . وحام الشك حول مستقبل لبنان عام ١٩٩٠ بصورة أكبر مما كانت عليه عندما أصبح بوش سيد البيت الأبيض. ونموذج آخر في العراق. . حيث وقع حادث لا يمس الولايات المتحدة مباشرة. . فقد اتهم بازوفت الصحفي البريطاني ـ وهو إيراني المولد ويعمل لحسابه الخاص بالتجسس وحكم عليه بالإعلام رغم الوساطات والنداءات من البريطانيين وغيرهم لإطلاق سراحه. . ردت بريطانيا بإجراء انتقامي حيث استدعت سفيرها من بغداد. .

لم تحظ هذه الأحداث عن طابع السياسة العراقية بالاهتمام الأمريكي إلىٰ أن جاء يوم ٢ ـ نيسان وأعلن فيه الرئيس صدام حسين أن لديه الأسلحة الكيماوية المتطورة وهدد بحرق نصف إسرائيل إذا تجرأت وهاجمت المنشآت الكيماوية العراقية (وفق ما تسميه إسرائيل بالهجوم الوقائي) وأعلنت مارغريت توتوايلر الناطقة بلسان وزارة الخارجية الأمريكية ما يلي :

«لقد اطلعنا علىٰ هذه التقارير . وإذا ما ثبتت صحتها فإنها تعتبر مثيرة وغير مسئولة وفظيعة» . كانت كلماتها قوية لكن لم يتبعها أي إجراء ، فقد كان صدام مشهوراً بتهديداته (لكن يدخل الأمر ضمن التصريحات العربية!) . . وعلىٰ مدىٰ أربعة شهور تالية لم يجر أي تعديل في السياسة الأمريكية يزيد عن توجيه اللوم العلني ، وذلك للرد علىٰ هذه التصريحات .

كان هناك حقيقة اهتمام بالقضايا التقليدية في وسائل الإعلام . . خاصة تجدد العنف في الأراضي الخاضعة للاحتلال الإسرائيلي . إن المراقبين عن كثب للقدس! ركزوا علىٰ فشل شمعون بيريز في تشكيل الحكومة الإسرائيلية وعلىٰ نجاح شامير في إعادة تشكيل الحكومة بعد أن ضمن تأييد الأحزاب الدينية الصغيرة المعروفة بمعارضتها إجراء مفاوضات مع الفلسطينيين . . وقد اقترح شامير وضع مبادرة بيكر لإجراء المفاوضات بين إسرائيل وجيرانها العرب ـ علىٰ الرف . . أبدىٰ شامير رفضاً عنيداً لإجراء مفاوضات مبكرة وفقاً للخطوط التي اقترحها الأمريكيون لأنه يعلم أن ذلك سيؤدي إلىٰ انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة . استمرت الاحتجاجات الضخمة في الشوارع بين جماهير الأرض المحتلة والتي ينظمها الشبان الفلسطينيون . وقامت وسائل الإعلام الأمريكية بتغطية كبيرة للمواجهات اليومية العنيفة بين راجمي الحجارة من الشبان وبين القوات العسكرية الإسرائيلية .

اجتمع وزيرا خارجية العراق وإيران في أوائل تموز في جنيف لإجراء أول محادثات مباشرة منذ نهاية الحرب بين البلدين عام ١٩٨٨ . . أعرب كلاهما عن

تفاؤله في التوصل إلىٰ تسوية سلمية دائمة بين البلدين . . كانت للحدث أهمية كبيرة ـ لكن الإدارة الأمريكية كانت تولي العلاقات بين الأردن وإسرائيل أهمية أكبر من التي توليها للعلاقات العراقية ـ الإيرانية . . لاقت هذه التطورات اهتماماً أقل . .

وردت إشارة تستحق المزيد من الاهتمام في نظر واشنطن وهي لقاء الرئيسين السوري والمصري . . حيث أعلن الأسد عن استعداده للانضمام إلىٰ عملية السلام العربية ـ الإسرائيلية، وكان تطبيع العلاقات العربية الإسرائيلية حدثاً مهماً تلقته الإدارة باهتمام كبير.

وقعت في الأسبوعين الأخيرين من شهر تموز عدة حوادث أوحت للرئيس بوش ووزير خارجيته بأن أموراً خطيرة أخذت تجتاح الشرق الأوسط فجأة. لكنهما لم يتعرفا علىٰ ما يجري رغم كثرة الزيارات الدبلوماسية ذهاباً وإياباً من وإلىٰ الشرق الأوسط. ألقىٰ الرئيس صدام حسين خطاباً يوم ١٧ ـ تموز انتقد فيه بشدة دول الخليج العربي متهماً إياها بالتآمر لتخفيض أسعار النفط.

وأرسل الرئيس صدام خطاباً يوم ١٨ ـ تموز إلىٰ الجامعة العربية يقول فيه بأن الكويت تسرق النفط من حقل نفط الرميلة المتنازع عليه. تزامن مع هذا الخطاب . . طلب من وزير الخارجية العراقي طارق عزيز بشطب الديون العربية ومقدارها (٣٠) بليون دولار. طار طارق عزيز إلىٰ القاهرة لإجراء محادثات مع حسني مبارك ثم وصل ملك الأردن للقاهرة، وقدّر الرئيس المصري خطورة الوضع بناءً علىٰ ما استمع إليه أثناء المحادثات فقرر القيام بزيارة كل من الكويت والعراق والعربية السعودية حالاً .

بدت التهديدات العراقية للرئيس حسني مبارك بدرجة خطيرة لم تظهر لهؤلاء الذين يتابعون الموقف من بعيد من واشنطن. وبدا رضاه وسروره واضحين عندما أعلن أن العراقيين والكويتيين وافقوا علىٰ عقد محادثات في جده في المملكة العربية السعودية بهدف مناقشة الخلافات بين البلدين، وتقرر عقد الاجتماع في يوم الأول

من آب لكن المحادثات انهارت بعد الجلسة الأولىٰ التي استغرقت ساعتين.

لا يمكن الاقتناع بأن الولايات المتحدة بما لها من وجود دبلوماسي ذي وزن في القاهرة ليست لديها معلومات كيفية مما جرىٰ في المحادثات في وقت كان الرئيس مبارك علىٰ اطلاع كامل بمجريات الأمور. من ناحية أخرىٰ لم تفهم أبريل جلاسبي سفيرة الولايات المتحدة لدىٰ العراق ما كان يحدثها به صدام حسين وقصرت جهدها في توضيح موقف الرئيس الأمريكي حيث أبرزت شكواه من وسائل الإعلام الأمريكية ـ وحرصت علىٰ أن تقنع الرئيس العراقي بألا يهتم كثيراً بما توجهه له الوسائل الإعلامية الأمريكية من نقد، وعلىٰ عكس ذلك فإن سوء التقدير الذي برز ـ لم يتصف به فرانك ويزنر سفير الولايات المتحدة في القاهرة الذي كان يتابع الاهتمام المصري بالخلاف العراقي ـ الكويتي. كان البيت الأبيض علىٰ علم ولديه التحذيرات المسبقة عن قدرات العراق وتهديدات رئيسه إن لم يكن من السفيرة الأمريكية، فهناك مصادر حسنة الاطلاع ومنها المخابرات الإسرائيلية.

إن الأخطاء المنسوبة إلىٰ السفيرة جلاسبي ذات النية الحسنة والخبيرة في الشئون العربية لم تكن هي التي ارتكبتها، ولكن ذلك تم علىٰ أعلىٰ المستويات، حيث لم يُنظر للعراق نظرة جادة، كان العراق في نظر الإدارة الأمريكية دولة راديكالية (متطرفة) لا يستحق الاهتمام كغيره من الدول السيئة!

كشفت الأحداث عن الكذب وقلة الأمانة في عرض الرسائل الدبلوماسية والنواحي الإدارية لوضع تبعة الأخطاء التي ارتكبتها الإدارة وإلقائها علىٰ السفيرة جلاسبي وإظهار الأمر علىٰ أنها ارتكبت الأخطاء بمفردها.

ظهر القصور وانعدام الرؤية لدىٰ الإدارة الأمريكية خلال سنوات الحرب العراقية ـ الإيرانية الثماني وتلاها أيضاً عام ونصف خلال حكم الرئيس بوش. . مما يبين مدىٰ الاشتراك في معالجة أمر العراق من منظار واحد لأناس يقرأون التاريخ من زاوية واحدة. .

كان رجـال الإدارة يلتـزمـون بنهج اتبعه الرئيس نيكسون، ومن الواضح عدم فهمهم له. لم تفهم الإدارة تغييرات الجغـرافيا السياسية لمنـطقة الشرق الأوسط وتطوراتها وألزمت نفسها بالسياسة القديمة التي بدأها كيسنجر وشجع عليها الرئيس نيكسـون وبعده فورد علىٰ أمل أن تثمر المفاوضات التي طبقها الرئيس كارتر في كامب ديفيد، ولو كانت الإدارة أكثر مرونة لوضعت خطة عمل تتناسب مع التغيرات التي حدثت في عام ٨٩، ١٩٩٠ ووضعت في الحسبان انهيار الاتحاد السوفييتي وأثر ذلك علىٰ الطموحات العسكرية لكل من العراق وإيران. إن اهتمام الإدارة الأمريكية بالهجـوم والمشـاكل العربية في الأراضي المحتلة كان يمكن أن يكون أكثر فائدة وعقـلانية لو وضعت في إطار أوسع. فشل الرئيس ووزير خارجية في البحث عن صيغة لإقامة علاقة سياسية من نوع ما مع دولة كانت صديقة وهي إيران ـ زاد علىٰ ذلـك فشلهمـا في كيفية التعـامـل مع العـراق. كان العـراق يعـاني من الإفلاس الاقتصادي والسياسي والعسكري، والأمر غير مستقر!

لم تأخذ الإدارة هذه الأمور بجدية كافية وإلا لما تنافست بغداد وطهران علىٰ كسب إدارة ركزت تفكيرها علىٰ موسكو وبون. إن إيران والعراق قوتان حقيقيتان في المنطقة، وفي أسواقهما مجال كبير للاستثمار وإدارة الأعمال.

إن نهاية الماركسية ـ علىٰ فرض أنها ماتت ولو أنه أمر مشكوك فيه ـ لم يتبعه انهيار القـومية بل علىٰ العكس نمـا الشعور القومي. كان الرئيس ووزير خارجيته يسعيان إلىٰ صياغة عالم جديد وأغفلا ما يجري. إن التعامل مع هذه الإمكانيات لا بد له من عقلية متفتحة يفتقران إليها ـ ورأس مال اقتصادي مدخر إذا كان متوفراً، وإرادة سياسية تضـع في اعتبـارها التغييرات العقائدية وحقائق الجغرافيا السياسية والتي لم تكن موجودة زمن شاه إيران أو بريجنيف. لم يكن تجنب الهجوم العراقي يوم ٢ ـ آب ممكناً ـ لو وجد في العراق سفير أمريكي أكثر كفاءة. . إن صدام ـ كما زعم مبارك عدة مرات ـ ضلل القادة العرب، ولم يكن بإمكان أي أمريكي معرفة ما

يدور في ذهن الرئيس العراقي من خلال جلسة. .

أظهر الرئيس بوش نفسه ممثلاً قديراً. . فهو لم يعد قلقاً من العناد أو التدخل السوفييتي - وكان المندوب الأمريكي لدىٰ الأمم المتحدة علىٰ ثقة بأن مجلس الأمن سيدين الغزو ويأمر بالانسحاب العراقي الفوري. . إن إمكانية استخدام الفيتو السوفييتي منعدمة تماماً. . لأن غورباتشوف كان بحاجة ماسة إلىٰ الدعم الأمريكي. ليثبت قدرته الهشة وقوة سلطته.

أصدر مجلس الأمن قراره يوم ٦ - آب ويتضمن فرض العقوبات بينما طلب الملك فهد ملك المملكة العربية السعودية المساعدة العسكرية الأمريكية من الولايات المتحدة الأمريكية فتم نقل قوة تتألف من (٢٣٠٠) من المظليين الأمريكيين وطائرات الإنذار المبكر (الأواكس) وقاذفات القنابل "B-52" وطائرات "F 111" واستجابت بريطانيا إلىٰ طلب مماثل قدمه! الملك السعودي - فقررت إرسال مجموعة من القوات الجوية والبحرية البريطانية إلىٰ منطقة الخليج.

أعلنت الولايات المتحدة وأكدت بأن مهمة القوات الأمريكية دفاعية محضة - لكن الرئيس مبارك - الزعيم المصري أدرك أن هذه المشكلة ستؤدي إلىٰ تدخل عسكري غربي علىٰ نطاق واسع. كان الرئيس المصري يأمل أن تشارك قوة مصرية تستخدم ضمن مظلة عربية تُسهل عملية انسحاب العراق من الكويت، وإذا تمكنت الدول العربية من توحيد كلمتها وإقناع الرئيس العراقي صدام حسين بالانسحاب من الكويت فإن مركز الرئيس وصورته ستتحسن بشكل كبير في العالم العربي.

فشل الرئيس مبارك في مسعاه ووافقت (١٢) دولة عربية من أصل (٢١) دولة هي أعضاء الجامعة العربية علىٰ إرسال قوات تشترك في الدفاع عن العربية السعودية. وعارضت القرار الدول الأخرىٰ.

فكر الرئيس بوش في عدة خيارات: وقد كان علىٰ علم تام - ليس فقط من

مصادر المخابرات ـ بالقدرات العراقية التي ساهمت الولايات المتحدة ودول حلف الأطلسي (الناتو) في بنائها:

الخيار الأول: لو وافق الرئيس صدام حسين تحت أي غطاء علىٰ الانسحاب ـ فإن ذلك سيجعل الرئيس بوش بطلاً لأنه حشد معارضة الأمم المتحدة خلفه ضد العراق.

الخيار الثاني: إذا اختار الرئيس صدام حسين البقاء في الكويت فإن الرئيس الأمريكي سيعمل علىٰ تعبئة قوات إضافية. إن نقل القوات والمعدات الأمريكية من أوروبا إلىٰ منطقة الخليج يمكن أن يتم بسرعة أكبر مما لو جرىٰ نقلها من قواعدها في الولايات المتحدة، خاصة أنه لم تعد هناك حاجة لهذه القوات الأمريكية في أوروبا. كانت الفرصة مواتية تماماً أمام بوش للقيام بمغامرة سياسية وعسكرية دون مخاطر. إن الاحتياط مطلوب والحذر سيساعد علىٰ نجاح بوش في خططه، لأن إثارة الشكوك من البداية حول أهداف الرئيس سيؤدي إلىٰ جدل عام بين الشعب الأمريكي وقد يؤدي إلىٰ تعطيل خططه.

أصدر مجلس الأمن يوم ٩ ـ آب قراراً شجب فيه ضم العراق للكويت واعتبره لاغياً وباطلاً، أعلن الملك فهد في نفس اليوم أن الغزو العراقي عدوان آثم ـ بينما أعلن الرئيس صدام الحرب المقدسة (الجهاد) ضد الغزاة وربط بينهم وبين دول النفط الخليجية الفاسدة.

وبعد أن هاجم الغزاة من الخارج والمسرفين المبذرين الأغنياء من داخل الوطن العربي الذين لا يكن لهم العرب أي تعاطف، وضع صدام تصوراً (سيناريو) للأحداث، كما توقع أن تسير وتنطلق المظاهرات في المدن العربية. ووجه خطابه إلىٰ الذين أذلهم الغرب، ضحايا الاستعمار الغربي والعدوان الصهيوني للوقوف معه باعتباره يلبي مطالب العرب وصوت العزة الإسلامية الناطق بلسان من سلبت

أراضيهم ويرفضون الخضوع للهيمنة الأمريكية التي تسعىٰ للسيطرة علىٰ العالم. وتوعد المعارضين بأن الأرض ستبتلعهم وستفشل مؤامراتهم الدنيئة. كان خطاب صدام موجهاً للعالم الإسلامي، وخطاب الرئيس بوش موجهاً للعالم.

بدأ المسئولون الأمريكيون منذ العاشر من آب يتحدثون عن إمكانية زيادة عدد القوات الأمريكية في المنطقة لتصبح مائة ألف خلال شهور قليلة. وانضمت قطع من البحرية الأمريكية بعد السادس عشر من آب إلىٰ قوات التحالف التي تفرض الحظر البحري علىٰ العراق تنفيذاً لقرار العقوبات ضد العراق. أُصيب العالم بالصدمة عندما أعلن الرئيس العراقي قراراً غير متوقعاً بأن (٣,٠٠٠) من الأمريكيين و(٥,٠٠٠) من الأوروبيين الذين كانوا في الكويت والعراق وقت نشوب الأزمة لن يسمح لهم بمغادرة العراق. أصبح الرهائن بأعدادهم التي لم تكن معروفة في السابق تحت رحمة الرئيس العراقي. شجب الرئيس الأمريكي من منتجعه في كينبونكبورت الإجراء العراقي ووصفه بأنه عمل يرقي إلىٰ البربرية.

تركز الاهتمام الأمريكي علىٰ الرهائن ـ وقد كان موضوع الرهائن أمراً مألوفاً خلال العشر سنوات الماضية منذ أزمة الرهائن في إيران ولبنان، حيث كشف أمر احتجازهم عن رغبة شيطانية يُتلذذ بتنفيذها دون أن يخطر ببال الشعوب المتحضرة أنها ستحدث مطلقاً.

أصبح سجل صدام وتاريخه العنوان الرئيس لنشرات الأخبار، وأعيد بعث المسألة الكردية من جديد بعد أن فشل الديمقراطيون أثناء حكمهم في جذب الانتباه لقضية الأكراد خلال الفترة التي سبقت دخول الجيش العراقي للكويت.

أعلن الرئيس صدام حسين يوم ١٧ ـ آب أن الرهائن الغربيين يعتبرون (ضيوف العراق) وسيجري توزيعهم علىٰ الأماكن الاستراتيجية الحساسة في العراق من أجل حماية العراق من العدوان الخارجي. اعتبر الغرب هذه الخطوة بأنها قمة العمل

البربري الذي لم يشهد له العالم مثيلاً.

بدأت الدعاية الغربية في الترويج بأن الرئيس العراقي مسئول عن قتل أعداد كبيرة من رفاقه ومن الأكراد، وأنه استخدم الغازات السامة في حربه ضد إيران مما أدىٰ إلىٰ مقتل عشرات آلالاف منهم، وأنه قد أصاب الشيعة في العراق نصيبهم من أعماله وبدت صورته كوحش!!!

كان دخول القوات العراقية للكويت مفاجأة لكن الرئيس الأمريكي ظهر يوم ٨ ـ آب هادئاً لا يبدو عليه القلق وفي المؤتمر الصحفي سُئل بوش هل فشلت المخابرات المركزية في التنبيه للأحداث.. فنفىٰ الرئيس الأمريكي ذلك بشدة. وبرر ذلك بقوله عندما يتم التخطيط لهجوم صاعق يجري تنفيذه الساعة الثانية فجراً «بعد أن كان الرئيس العراقي قد تعهد بعدم القيام بعمل عسكري[إشارة لتصريحات حسني مبارك ـ المترجم]» فلن يتمكن أحد من صده. كانت تصريحات الرئيس الأمريكي تتناقض تماماً مع الحقائق المعروفة في الوطن العربي والدول الخارجية. غادر بوش إلىٰ مين بعد إلقاء خطابه..

لم يشأ الرئيس الأمريكي أن يحبس نفسه في البيت الأبيض، كما فعل جيمي كارتر أثناء أزمة الرهائن مع إيران، وأعلن الرئيس العراقي صدام حسين يوم ٢٨ ـ آب خبراً أشاع الارتياح في الأوساط الغربية بأنه سيسمح للنساء والأطفال المحتجزين في العراق بالمغادرة. واستمرت الولايات المتحدة في حشد قواتها.

زار جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكي الملك فهد في جده يوم ٦/أيلول وقدم طلباً لتمويل العمليات. كانت السعودية هي الممول الرئيس للعراق أثناء حربه مع إيران وها هي تُسخر الأموال لتغطية نفقات أكبر حشد عسكري في العالم.. وقد كانت نوعاً من الإعالة الاقتصادية.

كان الملك فهد يدرك حاجة الولايات المتحدة للتمويل وعلىٰ دراية بمشاكل

الميزانية الاتحادية للولايات المتحدة. وكان الملك السعودي يعرف بأن بوش لن يفرض علىٰ شعبه ضرائب جديدة في سبيل تغطية نفقات عسكرية إضافية ولن يقوم بالاقتراض. . لذلك وافق الملك فهد علىٰ دفع مبلغ (٥٠٠) مليون دولار شهرياً لتغطية نفقات نشر القوات الأمريكية في الخليج. رحبت الولايات المتحدة بقرار الملك فهد تقديم (٤) مليار دولار لدول العالم الثالث التي تضررت من الأزمة.

قابل بيكر أمير الكويت الهارب في منفاه بعد أن لجأ إلىٰ السعودية. . حيث تلقىٰ منه تعهداً بدفع مبلغ (٣) مليار دولار مساهمة في النفقات العسكرية الأمريكية. . هكذا وافقت دولتان عربيتان من دول النفط الغنية. . أحداهما محتلة والثانية تخشىٰ من هجوم عليها علىٰ المساهمة بالدعم الاقتصادي اللازم لتمويل العمليات العسكرية لإدراكهما أنهما عاجزتان عن حماية نفسيهما.

علىٰ ضوء ذلك يمكن القول بكل أسف شديد أن القوات الأمريكية غدت مرتزقة تحارب لصالح دول عربية علىٰ استعداد للدفع للإنفاق عليها.

كان الاعتقاد بأن الحرب علىٰ وشك أن تنشب، وأصبحت الحرب يتم التعامل معها علىٰ هذا الأساس. . وحلت الولايات المتحدة محل العراق في الاستفادة من أموال السعودية والكويت. . لكن العملية تتطلب إشراك ممولين آخرين. كانت اليابان باعتبارها دولة صناعية كبرىٰ تعتمد علىٰ نفط الخليج - إحدىٰ الدول المرشحة لتمويل وتأمين النفقات الإضافية التي أصبحت فيها شرطاً سياسياً ودبلوماسياً لإظهار التضامن.

كانت الولايات المتحدة تتوقع من اليابان مساهمة كبيرة علىٰ أساس أن الولايات المتحدة تقوم بكل فخر بالدفاع عن المصالح اليابانية في الخليج - مع أن اليابان لم تطلب منها ذلك وبإمكان اليابان تأمين أمورها بطرق أخرىٰ، بدت المساهمة اليابانية مناسبة خاصة لأولئك الأمريكيين الذين يعرفون حجم الشعور القومي الياباني. كان

المبلغ الذي قدمه اليابانيون في بداية الأمر تافهاً ثم زيد المبلغ بعد ضغط شديد لا يخلو من الابتزاز. . وحتىٰ هذا الرقم الجديد لم يصل إلىٰ ما كان ينشده الأمريكيون. كان الدستور الياباني الذي صدر بعد الحرب العالمية الثانية وأشرف علىٰ صياغته الأمريكيون يحظر علىٰ اليابان الاشتراك في الأعمال العسكرية. كان الدعم المالي هو كل ما تستطيع اليابان تأديته. . لكن الكونجرس الأمريكي اعتبر المساهمة اليابانية دون المستوىٰ. .

وكان الأمريكيون أيضاً مستائين من المساهمة الألمانية، وحيث إن الدستور الألماني يمنع نشر القوات الألمانية. . فقد وعدت ألمانيا بتقديم (٢) بليون دولار لصالح العمل العسكري المشترك.

تعلل الألمان بالالتزامات المالية الكبيرة التي كانت تستثمرها ألمانيا الغربية في أوروبا الشرقية وفي ألمانيا الشرقية. لكن الأمريكيين المشغولين في التفكير بهذه المشكلة لم يرق لهم ذلك واعتبروا أن المبالغ التي تعهدت كل من ألمانيا واليابان بتقديمها غير كافية لا تتناسب أبداً مع المطلوب. .

اتجهت الأنظار للدعوة إلىٰ مؤتمر قمة استثنائي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي لبحث الأزمة. واجتمع بوش وغورباتشوف في هلسنكي (فنلندا) علىٰ مدىٰ ست ساعات لبحث الموقف في الخليج، وصدر بيان مشترك يدين العراق لدخوله الكويت ويطالب بالانسحاب العاجل وغير المشروط.

اعترفت الولايات المتحدة صراحة بمصلحة السوفييت في جهود السلام بين العرب وإسرائيل، وقالت إنه سيكون للاتحاد السوفييتي مكان في المفاوضات المقبلة. نوهت البيانات التي صدرت في المؤتمر الصحفي عن وجود خلافات في وجهات النظر الأمريكية والسوفييتية في كيفية التعامل مع الرئيس العراقي حول موضوع الانسحاب، وأثنىٰ جيمس بيكر أثناء اجتماعه مع نظرائه وزراء خارجية حلف

الناتو (الأطلسي) خلال اجتماعهم في بروكسل بعد سفره من هلسنكي ووصفهم بالشركاء الذين يمكن الاعتماد عليهم. وأكثر من المديح لهم.

ألقىٰ الرئيس بوش بياناً في جلسة مشتركة للكونجرس الأمريكي يوم ١١ ـ أيلول.. تعهد فيه بإسقاط الرئيس صدام حسين.. ويتنافىٰ هذا التعهد مع الأهداف السابقة التي كانت تُبرز رغبة الولايات المتحدة في جعل العراق ينسحب من الكويت.. وبالطبع فإن ما أورده الرئيس لا يعتبر مجرد ملاحظة عابرة وبريئة.. وافترض أعضاء الكونجرس أن تلك الملاحظة جزء من حملة تضخيم ومبالغة تقليدية صادرة عن الرئاسة.

أعلن وزير الخارجية السوفييتي إدوارد شيفارنادزة أمام هيئة الأمم تصريحاً بالغ الخطورة مفاده أن الاتحاد السوفييتي سوف يدعم أي عمل عسكري ضد العراق توافق عليه الأمم المتحدة. أصدر مجلس الأمن قراره في اليوم التالي بأغلبية (١٤) صوتاً مقابل صوت واحد يوسع فيه قرار الحظر علىٰ العراق ليشمل النقل الجوي.. في هذه الأثناء أعلنت كل من بريطانيا وفرنسا عن عزمهما علىٰ إرسال المزيد من المعدات والقوات العسكرية إلىٰ العربية السعودية.

أعلن الرئيس بوش أثناء إلقاء خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة أن الانسحاب العراقي من الكويت ربما يوفر الفرصة المناسبة لتسوية الصراع العربي الإسرائيلي. قال الرئيس بوش بعد ذلك في (تارتيل باي) كلاماً معقولاً عن إيجاد صيغة للتوفيق بين المطالب العربية والمصالح الأمريكية في إيجاد تسوية مبكرة للقضية الفلسطينية، لكنه لم يُلزم الولايات المتحدة باتباع سياسة محددة.

شغلت هذه الأحداث اهتمام الشعب الأمريكي خلال شهر أيلول، وظهرت علىٰ صفحات (الواشنطن بوست) مقابلة صحفية دفعت ديك تشيني وزير الدفاع الأمريكي إلىٰ إصدار أمره بفصل الجنرال مايكل دوغان قائد سلاح الطيران من منصبه

بعد أن تحدث بصراحة نادرة عن الخطط الأمريكية لمهاجمة العراق إذا أصر علىٰ عدم الانسحاب من الكويت. كانت لدىٰ الوزير ديك تشيني وكولين باول رئيس هيئة الأركان المشتركة الأسباب الكافية للحنق علىٰ مايكل دوغان لإفشاء الأسرار العسكرية ودور سلاح الطيران إضافة إلىٰ أسباب أساسية أخرىٰ، كشف الجنرال دوغان عن أمور لم يفترض أن تصدر عن المسئولين الأمريكيين وهي أن العراق في الحقيقة ليس إلا «نمراً من ورق» تلك العبارة لم يتفوه بها دوغان ولكنه أوضحها بصورة أخرىٰ حينما قال أن قدرات سلاح الطيران العراقي محدودة. وقال دوغان خلال مقابلة استمرت عشر ساعات خلال طيرانه من وإلىٰ السعودية بأن دور الجيش العراقي في حربه مع إيران لم يكن متميزاً، وأنه غالباً ما أخطأ العراقيون في إصابة أهدافهم بعدة أميال!!

ووصف الجيش العراقي بأنه لم يكن كفؤاً علىٰ أساس أنه بامتلاكه (٥,٠٠٠) دبابة فقد كان المتوقع أن يفعل شيئاً أفضل. كما زعم أن العراقيين رغم الدعاية التي أطلقوها لم تكن لديهم القدرة العسكرية.. هذه المعلومات كان يعرفها الأمريكيون والإسرائيليون. قال الإسرائيليون.. طالما أن العراق يُسيِّر أموره شخص واحد فمن الحكمة جعل الرئيس صدام وأسرته وحرسه الخاصة أهدافاً رئيسية لضربها. وادعىٰ الإسرائيليون بأنه في حال تنفيذ ذلك فإن المشكلة ستنتهي.

قال دوغان بأن تحقيق هذه الأهداف ليس أمراً سهلاً.. فلا يوجد ضمان حول إمكانية قصف المكان الذي يتواجد فيه الرئيس العراقي ـ وخلال المحادثة صرح دوغان بأن القوة الجوية كفيلة بالقضاء علىٰ مقاومة العراقيين وإجبار الجنود علىٰ الانسحاب وترك ميدان القتال. هذه الخطة التي كشف عنها قائد سلاح الجو هي ما جرىٰ تنفيذه بالضبط بعد (٤) شهور. حتىٰ أنه دعا إلىٰ استمرار الدعم الأمريكي للحرب حتىٰ بعد نقل أكياس جثث القتلىٰ.

لم يكن لدىٰ الرئيس بوش اهتمام بآخر التطورات.. وروىٰ قائد الطيران

المعزول لقراء الوشنطن بوست الأسباب التي من أجلها صدر قرار لم يكن له داع ؛ فقد أعفي من منصبه لأنه قال الحقيقة ووصف بدقة متناهية ما يستطيع الطيران الأمريكي تحقيقه بغض النظر عن المساعدة العسكرية التي سيقدمها التحالف والتي أجهد الرئيس بوش في مناشدتها وطلبها عبر أحاديثه التليفونية ورحلات وزير خارجيته الطويلة لضمانها.

كشف الرئيس السوفييتي المعروف بحساسيته الدائمة من الرأي العام الدولي خاصة في أوروبا عن نواياه في محاولة منه لإقناع حليفه الصعب ليسلك سلوكاً أكثر عقلانية ومسئولية ـ وردت ملاحظات غورباتشوف أمام مجموعة من أصدقائه الأجانب. ألمحت الصحافة في تقاريرها أن السوفييت علىٰ وشك إحراز تقدم في محادثاتهم. نشرت وكالة أنباء نوفوستي السوفييتية يوم ١٤ ـ تشرين الأول تقريراً بأن العراق قد يكون راغباً في الانسحاب من الكويت مقابل الاحتفاظ بسيطرته الكاملة علىٰ حقل نفط الرميلة وعلىٰ جزيرتين في مدخل الخليج العربي [جزيرتا وربة وبوبيان ـ لتسهيل المرور البحري أمام الملاحة العراقية ـ المترجم].

جاء الرد سريعاً من بيكر وزير الخارجية الأمريكي، بأن هذا الحل المقترح غير مقبول، ولم يكن بوش أمام أعضاء الحزب الجمهوري أقل فظاظة عندما أعلن أن الحل الوحيد المقبول هو الانسحاب الكامل لجميع القوات العراقية من الكويت.

أظهرت استفتاءات الرأي العام التأييد للرئيس في خطواته وإصراره علىٰ ألا يجني المعتدي (العراق)! أي مكاسب.

أصدر مجلس الأمن يوم ٢٩ ـ تشرين الأول بمبادرة أمريكية قراره بأغلبية (١٣) صوتاً مقابل لا شيء وامتناع اثنين قراراً يلزم العراق بدفع التعويضات الكاملة عن الخسائر المالية والإصابات والدمار الذي سببه دخوله الكويت.. ثم اجتمعت في نفس اليوم لجنة الشئون العسكرية التابعة لمجلس الأمن وذلك لمناقشة الأزمة.

طار وزير الخارجية إلىٰ الشرق الأوسط فالاتحاد السوفييتي ثم إلىٰ غرب أوروبا ليتأكد بنفسه من التزام الجميع بعدم تقديم أي تنازلات للعراق والالتزام بقرارات الأمم المتحدة الأساسية التي تنص علىٰ الانسحاب العراقي غير المشروط من الكويت.

قابل بيكر أثناء وجوده في القاهرة كيان كيشن وزير خارجية الصين الشعبية الذي أكد له أن بلاده لن تستخدم حق النقض (الفيتو) في مجلس الأمن ضد قرار يصدره المجلس يخول حق استخدام القوة العسكرية ضد العراق. يفترض في مثل هذه الحالة أنه تم تقديم بعض التنازلات للصين من أجل ضمان تعاونهم وبدت مثل هذه التنازلات ثمناً بخساً لدىٰ الرئيس بوش الذي بدأ في هذه الوقت يكيف نفسه علىٰ الحل العسكري..

انتهت انتخابات الكونجرس.. وأعلن الرئيس بوش للشعب الأمريكي يوم الثامن من تشرين الثاني أن القوات الأمريكية بلغ عددها في منطقة الخليج (٢٠٠) ألف جندي وسيجري زيادة هذه القوات في المستقبل لتصل إلىٰ (٤٠٠) ألف جندي في مطلع عام ١٩٩١ ـ كضمان لتحولها إلىٰ قوة هجومية رادعة.. لم يتطرق الرئيس إلىٰ شرح الأسباب التي ستجعل الهجوم أمراً ضرورياً لا مفر منه.

لقد تم إقرار إرسال القوات العسكرية أصلاً لأغراض دفاعية لحماية السعودية مع فرض عقوبات اقتصادية قاسية لإجبار العراق علىٰ الانسحاب من الكويت لكن هذه العقوبات بات يُعتقد أنها ليست كافية.

دعا زعماء الكونجرس إلىٰ جلسة خاصة لمناقشة ما رأوه تغييراً كبيراً في سياسة البيت الأبيض، لم يسفر كل ذلك عن شيء في النهاية لأن الكونجرس أصبح يضم أعضاء ضعفاء. ونظراً لأهمية القضية وما قد تسفر عنه المناظرة التي ستجري فإن الكونجرس الجديد الذي عُقدت عليه الآمال لإجراء نقاش مناسب قد جعل الكثير يعتقدون أن الولايات المتحدة ماضية في طريقها إلىٰ الحرب.

قام الـرئيس الأمـريكي أثنـاء عيد الشكر بزيارة القوات الأمريكية في العربية السعودية، واجتمع مع الملك فهد وشيخ الكويت ثم طار للقاهرة واجتمع مع الرئيس مبارك، وبعدها اجتمع مع الرئيس السوري حافظ الأسد في جنيف.

كان الـرئيس بوش حريصـاً بصـورة أساسية علىٰ ضمان التزام حلفائه العرب بسياسته. . كان من النادر أن يكشف أي زعيم لتحالف عسكري في القرن العشرين عن قلق أكثر منه، وبدا وكأن التحالف هش لا يصمد أمام أي هزة أو صدمة.

كان وجود الحلفاء العرب للرئيس الأمريكي أمراً بالغ الأهمية: من هم؟. . ماذا يمثلون؟. . لمـاذا انضموا للولايات المتحدة في التحالف ضد العراق؟ كل هذه التساؤلات كانت لديه ثانوية. . ليست ذات بال.

كان حافظ الأسد في الحقيقة العدو اللدود لصدام حسين منذ عدة عقود ولديه من الأسبـاب التي تجعله يود رؤية العـراق مهزوماً في الميدان العسكري. . ولم يلتفت أحد إلىٰ ما فعله الأسد قبل شهور في لبنان. . عندما أحكم قبضته وسيطرته الكاملة علىٰ بلد كان يمثل دولة مستقلة.

تركزت الجهود الأمريكية علىٰ إبقاء التحالف فعالاً وقوياً. . هذا هو المفتاح لنصر مؤكد ضد الرئيس العراقي صدام حسين. تصور الرئيس أن بإمكانه أن يكسب إلىٰ جانبه قلوب وعقول المسلمين، أوعلىٰ الأقل جزءاً من العالم الإسلامي الكبير عن طريق ضم دول عربية رئيسية إلىٰ التحالف.

كانت غلطة الرئيس العراقي صدام حسين تتمثل في اعتقاده بأن المسلمين في المغـرب وبلاد أخرىٰ سيهبون ثائرين تأييداً له. . وكانت تلك أيضاً غلطة مشابهة ارتكبهـا الـرئيس بوش عندما استغل النية الحسنة عند العرب وجيَّرها لصالحه. . وتصورها أنها علىٰ المدىٰ البعيد ستسهل عليه الأمور عند فرض تنازلات علىٰ إسرائيل.

إن أهم قرارات مجلس الأمن كان هو القرار الصادر يوم ٢٩ ـ تشرين الثاني بعد محادثات ومداولات مكثفة قام بها وفد الولايات المتحدة في أروقة مجلس الأمن. فجاءت نتيجة التصويت (١٥) صوتاً مقابل لا شيء ونصّ القرار علىٰ حق استخدام جميع الوسائل الضرورية لتحقيق الانسحاب الفوري وغير المشروط للقوات العراقية من الكويت. . أعطي العراق مهلة حتىٰ الخامس عشر من كانون الأول ١٩٩١ لتنفيذ القرار والاستجابة له. وفي حال الرفض يصبح من حق قوات التحالف استخدام القوة والعمل العسكري.

تأكد الرئيس الأمريكي بوش من إخلاص حلفائه العرب. . وأصبح في يده تفويض من الأمم المتحدة باستخدام القوة العسكرية إذا لزم الأمر بعد الخامس عشر من كانون الثاني.

كان أمام الرئيس العراقي أحد خيارين: الانسحاب من الكويت ـ أو مواجهة الهزيمة هناك. أصبح الرئيس الأمريكي بعد إجراء حساباته الدقيقة والوصول إلىٰ هذه الخطة والسيناريو ـ واثقاً من الفوز والنصر أيا كان اختيار الرئيس العراقي.

أصبح من السهل علىٰ الرئيس الأمريكي بعد هذه التطورات أن يقدم للعراق عرضاً أخيراً بدعوته للتفاوض. تمثلت الأمور علىٰ النحو التالي: لم يكن واضحاً ما الذي سيجري بحثه أثناء المفاوضات فتم اقتراح دعوة وزير الخارجية العراقي لزيارة واشنطن ومناقشة الأزمة. . ثم سافر وزير الخارجية الأمريكي إلىٰ بغداد لنفس الغرض. . قبل العراق (فكرة الدعوة واللقاء) وفي يوم السادس من كانون الأول أعلن عن نيته في إطلاق سراح جميع الرهائن في العراق والكويت. بدأ علىٰ الفور يوم التاسع من كانون الأول رحيل أكثر من (١٠٠٠) من الرعايا الأجانب. . وبعدها خلال أسابيع سافر حوالي (٢٠٠٠) وهم بقية الرعايا الأجانب.

حذَّر وزير الخارجية الإسرائيلي بأن إسرائيل ستهاجم العراق إذا لم تقم

الـولايات المتحدة بإجبار العراق علىٰ الانسحاب من الكويت والقضاء علىٰ قوته العسكـرية. لـم يكن موضـوع القوة العسكرية العراقية. . شرطاً من الشروط التي صاغتها الأمم المتحدة ضمن قراراتها لتظهر استجابة العراق للقرارات الدولية.

أعلن بوش يوم ١٤ ـ كانون الأول أنه سيجري محادثات بين العراق والولايات المتحدة وأنه طلب من العراق استقبال بيكر وزير الخارجية في موعد أقصاه الثالث من كانون الثاني ـ ١٩٩١. تواصلت المفاوضات في الأسابيع التالية. . وكان التركيز الأسـاسي علىٰ الاتفـاق علىٰ يوم ومـوعد يُرضي الطرفين، واستحال الاتفاق علىٰ ذلـك، فقـد أصـر صدام علىٰ موعـد بعد الثالث من كانون الثاني ـ ورفض بوش الاستجابة لذلك.

عندما اقترح الرئيس العراقي يوم الثاني عشر من كانون الثاني نُظر للأمر علىٰ أنـه محـاولـة من الرئيس العراقي لمنع الولايات المتحدة من تنفيذ تفويض الأمم المتحدة لها وهو حق استخدام القوة العسكرية بعد الخامس عشر من كانون الثاني. بينمـا كانت الأحـداث تتسـارع وتقتـرب الساعة من الموعد الحاسم بدأت فرنسا والمجموعة الأوروبية والسكرتير العام للأمم المتحدة والاتحاد السوفييتي كلهم في آن واحد يحاولون إقناع الرئيس العراقي بالانسحاب. . أصبحت زيارة بغداد أمراً شائعاً خلال هذه الأسابيع وكان آخرها زيارة السكرتير العام للأمم المتحدة والتي كشفت أنه لـم يعد هناك أمل في استجابة العراق لقرارات مجلس الأمن.

كانت الولايات المتحدة مشغولة بصدام حسين خلال هذا الخريف المشحون بالأحداث لكن ظهرت علىٰ سطح الأحداث المحلية أمور جذبت وشدت الانتباه إليها. بدا الرئيس بوش حقيقة في كثير من المرات تواقاً لإلحاق الهزيمة بالكونجرس وكـأنـه يصـارع الرئيس العراقي. كانت المسألة من الناحية الفنية تتعلق بالموازنة الفيدرالية (الاتحـادية) التي نالت قسـطاً كبيراً من النقـاش، في محاولة لتخفيض العجـز. . أصبح الأمر حرباً كلامية، كما تعودت إدارة بوش علىٰ ممارسته في كثير من

الأمور وهي تبدد الأمر المهم وتعطي أهمية للجدل التافه العقيم مما يشوه جوهر الأمور. أصبح من المتوقع أن يكوّن ذلك طابعاً سيئاً علىٰ نفسية الشعب الأمريكي، وهدد الرئيس بإسقاط الحكومة مفضلاً ذلك علىٰ أن ينجح مجلس الكونجرس في تمرير مشاريعه التي تتسم بالإسراف. تم رفض مشروع للتسوية بين الطرفين في مجلس النواب بأغلبية (٢٥٤) صوتاً مقابل (١٧٩) صوتاً. ووافق مجلس النواب والشيوخ علىٰ موازنة مؤقتة للإنفاق.

اتخذ الرئيس بوش موقف المعارض ـ والتزم بممارسة حق الاعتراض وقد كان علىٰ ثقة بأن اعتراضه ورفضه سيستمر مفعولهما. وعلىٰ مدىٰ الأيام المقبلة بدا وكأن الحكومة ستكون مضطرة لإلغاء بعض الخدمات ووقف الإنفاق عليها مثل تمثال الحرية وبعض الأماكن الأثرية المهمة الأخرىٰ مثل الحدائق والمنتزهات القومية.. وقد جرىٰ إغلاق بعضها بالفعل.. ومن حسن الحظ فإن المهمات الأساسية للحكومة استمرت لكن وفق الطريقة التقليدية.

وافق الرئيس علىٰ السماح بالإنفاق من اعتمادين مؤقتين بعد نقاش حاد في مجلس النواب والشيوخ انتهىٰ برفض الموازنة الشاملة ـ وقد رأىٰ الرئيس أن يعطي المجلسين مزيداً من الوقت علىٰ أمل الانتهاء من التفاصيل.

أصبح الكونجرس قادراً علىٰ تأجيل الموضوع في النهاية إلىٰ يوم ٢٨ ـ تشرين الأول.. قبل أيام فقط من إجراء الانتخابات، وأحال عدة موضوعات إلىٰ البيت الأبيض، ووافق الرئيس علىٰ (١٣) مشروع قرار وآخر خاص بتخفيض العجز في يوم الخامس من تشرين الثاني، أي قبل يومين من موعد الانتخابات.

كان الرئيس يتحدث بغضب ويعيد ويكرر (مثل معلقي التلفزيون) الوضع السيء الذي بدا عليه الكونجرس.. وكان عاجزاً عن الموافقة علىٰ أمر حيوي مثل

ميزانية الـدولة. وإذا خذل الكونجرس الرئيس ولم يوافق علىٰ الميزانية التي جهد الـطرفـان من أجـل الوصول إلىٰ اتفاقية ثنائية فإنه بذلك يكون قد وقف خلفه في الانشغال وإقرار الحشد الأمريكي في منطقة الخليج.

أصدر مجلس النواب قراراً في الأول من تشرين الأول بأغلبية (٣٨٠) صوتاً ضد (٢٩) صوتاً وأعرب في قراره عن تأييده لخطوات الرئيس بشأن الوجود العراقي في الكويت. كما أقر مجلس الشيوخ في اليوم التالي قراراً مماثلاً بأغلبية (٩٦) صوتاً مقابل (٣) أصوات.

وافق الكونجرس في وقت لاحق من نفس الشهر بناء علىٰ طلب الرئيس بوش ويقضي بإعفاء مصر من الديون المستحقة ومقدارها (٧) بليون دولار وأدلىٰ جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكي بشهادة يوم السابع عشر من تشرين الأول أمام لجنة الشئون الخارجية في مجلس الشيوخ وشهادة أخرىٰ أمام لجنة الشئون الخارجية في مجلس النواب يوم الثامن عشر من تشرين الأول، وقد رفض بكل ثقة وشدة اشتراك الكونجرس في صنع القرارات وقال بأن تسيير الشئون الخارجية يعتبر من اختصاص السلطة التنفيذية وأنه لا يدخل ضمن اختصاصات الكونجرس التشريعية والقانونية، وصرح بأن الرئيس خلال عطلة الكونجرس يمكن أن يستشير الكونجرس لو حصل تصعيد غير متـوقـع من العراق. . وقد تم اختيار كلمة (يستشير) عن عمد وبقصد إضفاء نوع من الغموض علىٰ الموضوع.

تقرر أن يعقد مجلس الكونجرس الجديد جلسته يوم الثالث من كانون الثاني وأن يكـون موضـوع أزمـة الخليج في أول قائمة الأمور المطروحة للبحث. . لقد فرضت الأزمة نفسها. تصرفت الإدارة في هذه الدورة وكأن صلاحيات الرئاسة كانت لديهـا من الكفـاية في قضـايا عديدة سابقـة ما يبـرر قرارهـا بنشر وحشد القوات

المسلحة . . وأن الموقف قد يتطلب تكرار ذلك مرة أخرىٰ. لم يكن هناك داع طبقاً لمصادر البيت الأبيض لمخالفة الإجراءات الرئاسية التي تم العمل بها في القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

زاد النقد واللوم من قبل بعض أعضاء الكونجرس الديمقراطيين في اللجان التابعة للكونجرس. . قاد حركة النقد السناتور سام نن. . وقال بأن الموافقة السابقة علىٰ قرارات الرئيس لا تنسحب بالضرورة علىٰ ما يبدو أن الرئيس يخطط له وهو إعلان الحرب ضد العراق ولا يجوز البدء بذلك قبل أن تعطىٰ العقوبات الوقت الكافي لتثبت فعاليتها. شهدت لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ مثل هذا النقد في تشرين الثاني وأوائل كانون الأول وبدا الرفض والخوف لأطروحات الرئيس خاصة من الديمقراطيين، لكن هذه المخاوف والشكوك لم تكن كافية لإقناع زعامة الحزب الديمقراطي ليوصي بعقد جلسة خاصة للكونجرس.

زادت عداوة الشيوخ لإجراءات الرئيس وتأكدوا من الصعوبات التي سيواجهونها في عملية التصويت المقدر لها أن تحدث قبل الموعد النهائي لمهلة الإنذار وهو ١٥ ـ كانون الثاني. . لكن بالرغم من ذلك لم يفعلوا شيئاً لحماية أنفسهم. ظلت الإدارة الأمريكية علىٰ إصرارها بأن موافقة الكونجرس ليست ضرورية. . ورأت الإدارة أن الحكومة إذا اتخذت قرارها بالمضي قدماً في الإجراءات العسكرية وإعلان الحرب فإن ذلك ببساطة يتفق مع التفويض الذي منحه مجلس الأمن. أساء الديمقراطيون تقدير وحساب الأمور. . وعندما تأكد البيت الأبيض وعرف بأن الحصول علىٰ الأصوات أمر ضروري وأن الرئيس لن يخسر قضيته سواء في مجلس الشيوخ أو مجلس النواب. . عند ذلك قبل فكرة التصويت إنّ الدعم الوطني هو لأبنائنا وبناتنا في الخليج ، وإرسال الرسالة الصحيحة لصدام حسين أصبحا السبب المقنع والمقياس علىٰ عملية التصويت وفقاً لرغبة الرئيس. دُعيت الأمة بأسرها لمتابعة عملية النقاش الكبرىٰ. . حيث طُلب من الأعضاء أن يصوتوا علىٰ أحد

أمـرين: الـطلب من الـرئيس منـذ الحرب التي سمح بها قرار مجلس الأمن بعد الخـامس عشـر من كانون الثاني أو الإصرار على المضي قدماً في سياسة تطبيق العقوبات على العراق.

بدأ النقاش في الكونجرس يوم العاشر من كانون الثاني أي قبل خمسة أيام فقط من انتهاء مهلة الإنذار الذي قررته الأمم المتحدة.

شهد جميع من تابع كلّ أو بعض مناقشات الكونجرس التي نقلت عبر التلفزيون بأن ما يشاهدونه هو شيء مختلف تماماً عما اعتادوه.. لقد كان عملاً سياسياً دراميا على أعلى المستويات حرص التلفزيون على نقله.

إن نوعية المـداخـلات الفـردية.. وجدية وهيبة المناسبة شدت انتباه جميع المشاهدين في بيوتهم. وإن المتحدثين من كلا المجلسين: النواب والشيوخ كانوا يختارون ألفاظهم بعناية فائقة.. وأكدوا أنهم لم يسبق أن اشتركوا في نقاش حساس مثل هذه المرة، إن هذه الجلسة يعوَّل عليها الكثير ـ وأن الأيام التي يعيشونها بها لحظات تاريخية.. لن تمحىٰ من ذاكرة الأمة الأمريكية.

كان أمام الكونجرس قرار الأمم المتحدة الذي حدد يوم الخامس عشر من كانون الثـاني موعـداً نهـائياً لانسحـاب العـراق من الكـويت.. ولذلك طُلب من أعضاء الكـونجـرس كل على حدة بيان هل يتفق مع الـرئيس وخطته في شن الحرب ضد العراق بعد ذلك التاريخ إذا لم يستجب العراق.. ودار التساؤل هل سيجد صدام حسين الكونجرس الأمريكي مؤيداً بقوة للرئيس أو أنه سيتمكن من تضليله وخداعه معتقداً أن الشعب الأمريكي منقسم على نفسه مثل الكونجرس.

ارتفعت حدة الانفعالات والأحاسيس، فقبل اليوم الأول من انتهاء النقاش الذي استمـر (٣) أيام.. قال معلقـو الصحـافة والتلفزيون بأن الرئيس سوف يتجه إلىٰ مجلسي النواب والشيوخ.. لكن الإثارة في الموضوع تواصلت ولم تخف حدتها..

وبرزت إلىٰ السطح فكرتان؛ بالنسبة لهؤلاء الذين تساءلوا عن سياسة الرئيس ونواياه فقد كان لديهم طلب مستمر بأن تعطىٰ العقوبات الفرصة الكافية. . وأما هؤلاء الذين يؤيدون الرئيس فإن طلبهم قام علىٰ أساس أن رئيس الأركان إذا واجه ما يعتبره خطراً جسيماً فعليه ألا يحاسب من قبل الكونجرس. . وينكر عليه تصرفه.

توقع الجميع ـ مع بعض الاستثناءات والفروقات ـ بأن الحرب ستؤدي إلىٰ مصرع عديد من الأمريكيين. . وكانت ذكرىٰ فيتنام ماثلة دائماً في الأذهان. كشفت تلك الحرب أكثر من أي عنصر آخر ـ كما بدا من النقاش الدائر. . مظاهر الحذر والحيطة، المفاوضات، القيود. وأسفرت المناقشات عن إعطاء أهمية قليلة لهؤلاء الذين أصروا علىٰ مكافأة العراق علىٰ عدوانه وأن الدكتاتور الشرير! يجب ألا يتم استرضاؤه.

ليس من الإنصاف وصف مناقشات الكونجرس بأنها كانت عظيمة. . فهي في الحقيقة كانت متوسطة، هذا ما ينبغي علىٰ الأقل اعتبارها ضمنه. . إن ما كشفت عنه المناقشة وهو مدىٰ قوة الرئاسة الأمريكية في أواخر القرن العشرين وما صاحب ذلك من ضعف في الكونجرس.

كان أداء بعض النواب بصفتهم الشخصية مناسباً. . ولم ينتبه أحد إلىٰ الحقيقة الأساسية وهي ما أصاب الجمهورية الأمريكية. . كان الرئيس يمضي في خطته لشن حربه، وأوضح أنه سيعود لشم الزهور بعد أن كسبها بسهولة. لم يكن هناك أحد في وضع يمكنه من ثني الرئيس من تنفيذ ما خطط له. . إن الحرب لن تحل شيئاً وإن جميع المشكلات الخارجية والداخلية. . التي كانت موجودة قبل نشوب الحرب ستظل بالتأكيد إلىٰ سنوات بعد النصر.

وقف المتحدثون من كلا الحزبين بالرغم من ذلك يعلنون أن هذا أعظم يوم في حياتهم، ويفوق كل ما أمضوه من حياتهم النيابية. . فهم لم يسبق لهم أن تعاملوا

مع قضية خطيرة مشحونة بالأخطار الكامنة إلىٰ هذه الأبعاد، إن الجهود التي حُسبت بدقة بواسطة من خططوا للحرب والذين نشروا الدعاية لها عبر الشهور الماضية جعلوها تبدو للكثيرين أكثر من مهمة وضرورية وبالتالي تم جني النتائج المرجوة وفقاً للخطة المدروسة. وجرىٰ نقاش مستفيض خادع ومضلل وتمّ الاعتقاد بصحته. .

لم يقف أحد من أعضاء الكونجرس ليقول بأن كل مرة يجري فيها التصويت داخل الكونجرس قُصد منه التأثير علىٰ اللُحمة الاجتماعية للأمة الأمريكية. كانت تتم معالجة أمر بالغ الأهمية مما دفع أعضاء مجلس الشيوخ: نن، وبيرد، وبيل، وبورين وميتشيل وليفن أن يقترحوا علىٰ الرئيس أن يعطي العقوبات الفرصة المناسبة.

وتمت صياغة مشروع القرار بطريقة لا توحي باختلاف كبير مع وجهة نظر الرئيس؛ «لندع الرجال والنساء الشجعان يذهبون إلىٰ الخليج. . ونُصر علىٰ الإبقاء علىٰ مواصلة الضغط الاقتصادي والدبلوماسي ضد العراق ـ مع الاحتفاظ بحرية العمل العسكري»، وطالبوا بمواصلة الجهود لزيادة الدعم العسكري والمالي لقوات التحالف.

اختار الديمقراطيون خط الهجوم والمجابهة مع الرئيس. . هؤلاء هم المواطنون المخلصون للبلاد الذين لم يرغبوا في اتخاذ أي عمل من شأنه إحراج الرئيس لكن يضر بالأمريكيين الشجعان وحدهم. . كان اهتمامهم الأكبر ينصب علىٰ أن الرئيس غير خطة لعبه بعد الثامن من تشرين الثاني عندما تحول من الموقف الدفاعي إلىٰ الموقف الهجومي. . كان ذلك في نظرهم خطأ قاتلاً.

إن اتخاذ هذا الخط خاصة الركون إلىٰ الجانب الذي أراده الرئيس ويساعده فيه وزير خارجيته تمثل في محاولة منع الكونجرس من التصويت علىٰ قرار شن الحرب مدعين أن هناك مائتي حالة مشابهة مرت في تاريخ الأمة حين أصدر الرؤساء

الأمريكيون قراراتهم بتنفيذ أعمال عسكرية دون الحصول علىٰ موافقة صريحة من الكونجرس. . لقد فشلوا حينما لم يضعوا في اعتبارهم أن الرئيس قد غيّر سياسته وأنه وافق علىٰ النقاش الموسع عندما توقع وبناء علىٰ ما قدمه له مساعدوه من تقارير. . بأن الكونجرس في حقيقة أمره سيؤيد خطواته. . وأنه لن يوافق علىٰ قرار يحمل أسماء مجموعة صغيرة من أعضاء الحزب الديمقراطي البارزين الممثلين في مجلس الشيوخ.

شجع الرئيس الكونجرس علىٰ الاستمرار في النقاش والثرثرة التي ستجري أثناء الجلسة والتي من الممكن حدوثها في أي ظرف ـ لأنه فهم بأن عدداً كافياً من الديمقراطيين في كلا المجلسين (النواب والشيوخ) سوف يؤيد خطواته ويدعمه مما يعطيه أغلبية الأصوات التي يحتاجها ويسعىٰ إليها. كان في اعتقاد الرئيس أن المناقشة هي فقط لتسجيل مواقف. . ولن تُغير من الأمر شيئاً.

كانت المناسبة تاريخية، ويجدر الاهتمام بها فهي فرصة ذهبية لكل من الجمهوريين والديمقراطيين علىٰ السواء للتحدث إلىٰ الشعب الأمريكي ونشر آرائهم ودعايتهم لمبادئهم. . وتشكل فرصة أهم بكثير من المناسبات التي يبثها التلفزيون عبر نشراته اليومية.

فشل الحزبان في عملهما، فلم يكن أي من المجلسين هو الملاذ الآمن أو المناسب لأناس سواء من الرجال أو الإناث الذين يودون طرح آراء بعيدة عن المناقشة التي استغرقت وقتاً جيداً من الحوار.

كان الرئيس في طريقه إلىٰ حربه. . فلماذا لا يعترف بذلك صراحة؟ لم تكن هناك حاجة لتقدير عدد الضحايا بدقة تامة فلا أحد يمكنه أن يتكهن بذلك.

إن القوة العسكرية التي وجدت أصلاً في أوروبا لردع أو إلحاق الهزيمة بالهجوم السوفييتي المفترض علىٰ دول أوروبا ـ ثم نقلها بصورة كبيرة إلىٰ الشرق الأوسط

لردع أو إلحاق الهزيمة بدولة من الفئة الثالثة عسكرياً لم تستطع أن تحقق نصراً على مدى أعوام ضد دولة بمفردها معادية لها من دول الشرق الأوسط. .

لقد كان الهدف من ذلك هو التوافق مع أهداف الرئيس في تحقيق نصر سريع وحاسم على غرار نصر الفوكلاند. . هذا النصر الذي سيبين شيئاً بدهياً تعرفه شعوب العالم: إن الولايات المتحدة تتفوق عسكرياً على العراق، وإن الاتحاد السوفييتي عاجز عن مساعدته حلفائه القدامى في الشرق الأوسط.

أجبرت السياسة الرئيس على الادعاء بأن هذه الحرب لها أهمية عالمية كونية، وأن الولايات المتحدة تؤكد دورها كحامية للقانون الدولي، وعلى استعداد لأن تخاطر في سبيل الدفاع عن المبادىء. . وتطلبت الدبلوماسية من حلفائه أن ينغمسوا في أحلامه مع أنهم في نفس الوقت لاذوا بصمت حصيف وحرص بالغ على كيان اقتصادي منهار ـ وأما الاتحاد السوفييتي فكان لا زال مُعترفاً به كقوة نووية صلبة.

الحرب والسلام

أتىٰ الإعلان عن بدء القصف الجوي علىٰ بغداد في البداية حيث قطعت النشرة الإخبارية المسائية التي يبثها التلفزيون العراقي لإعلان بدء القصف الجوي. وبعد ساعات قليلة خاطب الرئيس صدام الشعب العراقي بينما كان العالم يغط في سبات عميق حيث تم إعداد هذا الخطاب قبل عدة أيام تحسباً من وقوع الحرب.

بعد انتظار، متعب، بدأت الولايات المتحدة وحلفاؤها الحملة العسكرية لإجبار العراق علىٰ الخروج من الكويت حيث بدأ الرئيس بوش بعمل ما لم يستطع (نيفيل شامبرلين) عمله في الثلاثينات لإيقاف الدكتاتور الألماني هتلر.

لم يكن للولايات المتحدة وحلفائها خيار إلا الهجوم وهذا ما أعلنه (مارلين فيتزووتر) متحدثاً باسم الرئيس بعد بدء العمليات مباشرة معلناً بوضوح واختصار: «إن عملية تحرير الكويت قد بدأت».

أتت الغارات الجوية علىٰ أهداف في العراق والكويت من القاذفات التي انطلقت من قواعد غير معروفة، وأُطلقت صواريخ كروز من السفن الحربية في المنطقة. بعد ساعات قليلة بثت وكالات الأنباء في الغرب خبراً يقول إنه لم تفقد أية طائرة أمريكية. في الوقت نفسه حث الرئيس صدام العراقيين علىٰ حمل السلاح والقتال معلناً عن بدء «أم المعارك» متهماً الرئيس بوش بأنه «مجرم منافق»، وجاء ذلك في خطاب ألقاه الرئيس صدام عبر الإذاعة العراقية. في هذه الأثناء، كان الرئيس بوش أكثر ارتياحاً في مكتبه حين أعلن أن الهدف من الغارات هو «ليس احتلال العراق بل تحرير الكويت وتدمير القدرة النووية والكيماوية العراقية».

في وقت متأخر من تلك الليلة أكد وزير الدفاع الأمريكي ديك تشيني أن قوات التحالف تعمل كل ما يمكن عمله لتجنب الأهداف المدنية. ولمّا كانت ردة الفعل الإعلامية العراقية محدودة اعتقد الكثير من المحللين الغربيين بأن القوة الجوية العراقية قد دمرت مما دعا وزير الدفاع الأمريكي ديك تشيني أن يحذر من التفائل المفرط مؤكداً أن الحرب ستستمر لفترة طويلة غير أنه أكد أن كل شيء يسير وفق ما خُطط له.

كانت هذه الحرب تسلية كبيرة تقدمها محطات التلفزة الأمريكية للجمهور من خلال التقارير المطوّلة التي كانت تبثها، وعندما لم تتوفر الصور كانت تلجأ إلىٰ المحللين العسكريين القدامىٰ والمسؤولين المدنيين للتعليق علىٰ مجريات الحرب.

كان هؤلاء المحللون والمراسلون في الشرق الأوسط وقادة التحالف هم النجوم الجدد علىٰ شاشات التلفزيون وكان نورمان شوارسكوف قائد القوات الأمريكية أحد أبرز هؤلاء النجوم وأصبح اسمه علىٰ كل لسان وكان هو المثال الواضح للإنسان الأمريكي المتأكد من النتيجة دائماً.

وكنتيجة لهذه التقارير أصبح المواطن الأمريكي متسمِّراً أمام التلفاز لفترة طويلة وأثّر ذلك في آراء المشاهدين حيث كانت تعرض أفلام عن مقاتلات ستيلث أو «الشبح» وقاذفات "F15" والصواريخ المضادة والطائرات وقدرتها التدميرية وكان كل هذا يُنسب إلىٰ قوات التحالف بالرغم من أن معظمه كان أمريكياً حيث حرصت وزارة الدفاع الأمريكية علىٰ إعطاء نصيب لطائرات التورنادو البريطانية والسعودية وللطائرات المقاتلة الكويتية المختلفة. حقاً لقد شاهد العالم عروضاً لا سابق لها للأسلحة المتطورة ذات القدرة القتالية الفائقة لتحالف ضخم صنعه الرئيس بوش ووزير خارجيته المحنّك.

في الليلة الأولىٰ للحرب، ظهر علىٰ شاشات التلفزيون جميع اللاعبين

الأمريكيين الرئيسيين في الحرب ما عدا وزير الخارجية. كان أحد هؤلاء الجنرال «كولين باول» رئيس هيئة أركان قوات التحالف الذي قال في مؤتمره الصحفي إنه ليس هناك مقاومة عراقية تذكر. وأضاف آخرون في وزارة الدفاع تفاصيل أخرىٰ اشتملت علىٰ البحث عن الطائرات العراقية في مخابئها المحصنة. وتحدثت تقارير أخرىٰ عن تدمير بطاريات صواريخ سكود القادرة علىٰ الوصول إلىٰ إسرائيل والسعودية.

باختصار، كان اليوم الأول يوم نشوة ومعنويات عالية، بدون إصابات ولم يُذكر شيئاً عن مقارنة هذه الحرب بما حصل في فيتنام. واعتقد الجميع أن هذه الحرب ستمحو العار والهزيمة والخسائر الأمريكية في فيتنام وسيكون الأمريكان فخورين الآن بما حققوه في هذه الحرب.

بعد أربع وعشرين ساعة، زالت حالة النشوة هذه في إسرائيل حيث أطلقت عليها وعلىٰ السعودية صواريخ سكود العراقية. في حين تم اعتراض الصاروخ الوحيد الذي أطلق علىٰ السعودية من قبل صاروخ باتريوت، سقطت سبع صواريخ علىٰ الأقل في إسرائيل وتحديداً في تل أبيب وحيفا. لم تعترف إسرائيل بأي خسائر في الأرواح ولكنها اعترفت بعدد من الإصابات وزالت مخاوف الإسرائيليين من الصواريخ التي تحمل الرؤوس الكيماوية التي كانوا يعتبرونها أخطر سلاح يمتلكه صدام حسين.

كانت الولايات المتحدة تخشىٰ علىٰ ثبات واستمرار التحالف لذلك توسلت إلىٰ إسرائيل بعدم الرد علىٰ هذه الصواريخ خشية أن تصبح المعركة بين أمريكا وإسرائيل من جهة ضد العراق مما يعني إمكانية انسحاب بعض الدول العربية من التحالف أو التهديد بالانسحاب. قام الرئيس الأمريكي ومبعوثوه بحث إسرائيل علىٰ الصبر وعدم إفشال الخطة الموضوعة بإحكام والتي استدرجت السعودية ومصر وسوريا والكويت إلىٰ تحالف دولي كبير، وبالفعل احتفظت إسرائيل لنفسها بحق الرد

علىٰ هذه الصورايخ .

بالرغم من التحذيرات الأمريكية بأن الحرب ستكون صعبة وطويلة إلا أنه حسب الخطة الموضوعة فالحرب ستكون قصيرة وبأقل الخسائر، انعكست حقيقة هذه الخطة علىٰ الوضع المالي في بورصة نيويورك حيث انخفض سعر النفط في اليوم الأول للقصف بمقدار (١٠) دولارات للبرميل وهو أكبر انخفاض في يوم واحد شهده سعر النفط وارتفع مؤشر داو جونز للأسهم بمقدار (١١٤) نقطة وهذا يرجع إلىٰ اقتناع الأمريكيين وافتخارهم بفاعلية تكنولوجيا أسلحتهم في حرب الخليج وكذلك فإن الحرب عادة، تفتح مجالات معينة للاستثمار وتخليق أسواق موازية، فعلىٰ الرغم من تهديدات الرئيس صدام واتهامه للرئيس بوش. . وبرغم الصواريخ التي سقطت علىٰ إسرائيل كان الأمريكيون مقتنعين تماماً بقدرة أسلحتهم وجيوشهم. استمع لخطاب الرئيس بوش بين السادس عشر من كانون ثاني أكبر جمهور في أمريكا، وكذلك اشتهرت محطة "C.N.N" أكثر من غيرها لإذاعتها تقارير علىٰ مدار الأربع وعشرين ساعة يومياً.

بحلول يوم السبت ـ بداية العطلة الأسبوعية ـ بدت المطاعم والنوادي خالية من الأمريكيين حيث فضل الغالبية مشاهدة أحداث الحرب ولكن الأخبار لم تكن مشجعة كثيراً بسبب تزايد الضربات الصاروخية التي تلقتها إسرائيل وكان من الصعب تدمير القواعد المتحركة لإطلاق صواريخ سكود وتوالت صور الدمار الخاضعة للرقابة الإسرائيلية وكانت هذه بمثابة إشارة للإدارة الأمريكية بأن إسرائيل لا يمكن أن تسكت أكثر من ذلك. وبعد ذلك أعلن بعض المقربين من الإدارة الأمريكية عن أملهم في استمرار التحالف العربي مع أمريكا في حالة قيام إسرائيل بأي رد غير ضروري علىٰ الصواريخ العراقية. في إحدىٰ مؤتمراته الصحفية، قال الجنرال شوارسكوف إن الجهود مستمرة لمحاولة اكتشاف مواقع القواعد المشتركة لإطلاق صواريخ سكود وتدميرها.

عند إعلان الخسائر الأمريكية خلال الـ (٧٢) ساعة الأولىٰ تبين أن (٨) طائرات أمريكية قد أسقطت وقد خسر البريطانيون طائرتين وكل من الإيطاليين والكويتيين طائرة واحدة. أما صوت بغداد فقد أعلن عن إسقاط (٩٤) طائرة من طائرات التحالف بينما كانت الادعاءات الأمريكية عن الخسائر العراقية أكثر تواضعاً حيث تم إسقاط ثماني طائرات وتدمير عدد من الطائرات قبل أن تطير إلا أن الغالبية العظمىٰ من القوة الجوية العراقية لم تنخرط في القتال ولم تُدمر. ثم بدأ التساؤل عن مكان الـ (٧٠٠) طائرة مقاتلة عراقية التي حسب لها الأمريكان حساباً كبيراً قبل بدء المعركة الجوية. كان الاعتقاد المقبول آنذاك أنها كانت مخبأة في مخابىء أسمنتية تحت الأرض في شمال العراق. لكن أحداً لم يسأل أسئلة محرجة مثل: هل كانت أجهزة استخبارات التحالف غير قادرة علىٰ معرفة أماكن الطائرات العراقية؟

كانت نشرات الأخبار التلفزيونية تركز علىٰ الهجمات الصاروخية علىٰ إسرائيل حيث سقطت الصواريخ علىٰ امتداد إسرائيل حتىٰ في الطقس السيء. وهذه الأخبار رافقتها تقارير إخبارية أخرىٰ أقل أهمية مثل أخبار الحماس الذي ساد الشعب الأردني لهذه الصواريخ التي ضربت الدولة الصهيونية.

كان يوم الأحد قاسيا للذين شاهدوا أخبار الحرب علىٰ أجهزة التلفزيون حيث اختار العراق هذا اليوم لعرض عدد من طياري التحالف الذين أسقطت طائراتهم علىٰ شاشات التلفزيون وكان من بينهم ثلاثة أمريكيين وبريطانيان وكويتي وإيطالي. تطور لدىٰ العامة من الأمريكيين شعور بأن إظهار بغداد لهؤلاء الطيارين علىٰ شاشات التلفزيون هو «سلوك غير حضاري»، كذلك اعتقدت وزارة الدفاع الأمريكية أن بغداد تجبر هؤلاء الأسرىٰ علىٰ قول ما لا يريدونه خاصة عندما شوهد الأسير الأمريكي «جاي هنتر» يقول «أعتقد أن هذه الحرب جنونية وكان يجب أن لا تحدث، إنني أشجب هذا العدوان علىٰ العراق المسالم»، بعد عرض بعض الأسرىٰ علىٰ التلفزيون، تم استدعاء القائم بالأعمال العراقي في واشنطن إلىٰ وزارة الخارجية

الأمريكية وإبلاغه بأن الولايات المتحدة تحمّل العراق مسؤولية انتهاك اتفاقية جنيف الخاصة بأسرىٰ الحرب.

أظهر التلفزيون الأمريكي مرارة بالغة لهذا التصرف العراقي ووصف الرئيس صدام بأنه سفاح لا يتمسك بقواعد الحرب المعروفة.

مع حلول العطلة الصيفية الأسبوعية اعتقد معظم الأمريكيين أن هذه الحرب ستكون قصيرة مثل الحرب التي خاضتها إسرائيل ضد العرب عام ١٩٦٧ والتي استمرت لمدة (٦) أيام. رغم ذلك لم تطرح الإدارة الأمريكية هذا الاحتمال أبداً خشية علىٰ مصالحها السياسية لذلك استمتع الكثير من الأمريكيين غير الحذرين بفكرة أن الحرب قصيرة.

لقد فضل الرئيس بوش ومستشاروه الاعتماد علىٰ انهيار الدفاعات العراقية التي ما زالت قوية. كذلك كان من الصعب إهمال الحرس الجمهوري العراقي المعروف بقدرته القتالية العالية. إن أحداً من المسؤولين الأمريكيين لم يتوقع نهاية وشيكة للحرب ولم يخاطر أحدٌ منهم في تخمين متىٰ يستسلم العراق، واهتمت التغطية الإعلامية التلفزيونية بمسألة انتهاء الحرب وتم التركيز علىٰ نقاط حاسمة وحساسة منها قرب عودة الصيف الحار في الخليج الذي يبدأ مع أواخر شهر آذار وكذلك قرب شهر رمضان المبارك مما دعا الحلفاء إلىٰ الإسراع في عملياتهم العسكرية. ولمّا كانت الأحوال الجوية السيئة تؤثر علىٰ فاعلية الهجمات الجوية، بدأ الحديث عن الهجوم البري الشامل علىٰ العراق وموعده يتردد علىٰ شاشات التلفزيون.

كانت الحكمة تقتضي عدم تأجيل الهجوم البري لكن كان هناك اتفاق علىٰ أن عملية إضعاف القوة العراقية عن طريق الهجمات الجوية كان أمراً ضرورياً جداً. تمّت مناقشة فوائد ونتائج التكتيكات والخيارات العسكرية علىٰ شاشات التلفزيون التي قدمت تغطية كاملة بصورة يومية لأحداث الحرب.

بالطبع تفوق البث التلفزيوني علىٰ الصحف في نقل وقائع الحرب حيث إنه يمكن أن يحدث شيء جديد يبثه التلفزيون، لكن تمتعت بعض الصحف المشهورة بتقاريرها الإخبارية ببعض الاهتمام حيث قدمت هذه الصحف تعليقات وتحقيقات عن أن الحرب الجوية كانت قادرة علىٰ تدمير العراق ولكن لا تستطيع وحدها أن تجبر الرئيس صدام علىٰ الاستسلام.

ذكرت صحيفة نيويورك تايمز في عددها الصادر يوم ٢٠ ـ ١ أن هذا الهجوم الجوي الذي يعد إحدىٰ أشرس الهجمات في تاريخ الحرب غير قادر وحده علىٰ إجبار العراق علىٰ ترك الكويت حيث تتطلب المهمة هجوماً برياً علىٰ قوات الحرس الجمهوري. وأضافت الصحيفة أنه بالرغم من السيطرة الأمريكية الجوية علىٰ جزء كبير من العراق، إلا أن الدفاعات الجوية العراقية لم تدمر بالكامل وما زالت قواعد إطلاق الصواريخ المتحركة تهدد السعودية وإسرائيل بمزيد من صواريخ سكود. وظهر مقال علىٰ الصفحة الأولىٰ تحت عنوان «الخطة الحربية الأمريكية: الحرب البرية ما زالت مطلوبة». ذكرت الصحفية نقلاً عن مصدر لم يكشف عنه اسمه في وزارة الدفاع بأن «الجميع يتمنىٰ ويصلي من أجل أن يستسلم العراقيون لكن ذلك لم يكن وشيكاً وستكون هناك ضرورة للمعركة البرية. واتضحت هذه الرسالة الموجهة للإدارة الأمريكية في الأيام القليلة التالية.

ساد الحزن أوساط الجماهير الأمريكية بسبب الإهانة التي وجهت للشعب الأمريكي بسبب عرض طياريه علىٰ التلفزيون العراقي، وبينما كان التلفزيون يركز علىٰ أحداث الحرب كل التركيز، حدثت أشياء في مناطق أخرىٰ من العالم ولكن لم يعرها أحد سواء الرئيس أومستشاروه سوىٰ القليل جداً من الاهتمام. خلال هذه الفترة اتسع الفارق بين التلفزيون والصحف اتساعاً كبيراً لصالح التلفزيون حيث أصبح التلفزيون محط اهتمام البيت الأبيض ووزارة الدفاع. كانت الأولويات التي أرادها الرئيس ومستشاروه هي التي تقرر ما يجب أن يعرفه المشاهد الأمريكي وحتىٰ

ما يجب أن يهتم به هذا المشاهد.

اهتمت بعض الصحف الأمريكية بمواضيع أخرىٰ غير الحرب حيث رأت أن العالم مليء بالأحداث الأخرىٰ ولم تركز فقط علىٰ الرئيس بوش وقادته ومستشاريه، حتىٰ عندما كتبت هذه الصحف عن الحرب اهتمت بمواضيع أهملها التلفزيون. فمثلاً كتبت نيويورك تايمز عن الأثر المطمئن الذي أحدثه وصول صواريخ باتريوت إلىٰ إسرائيل. وكتبت أيضاً عن تدمير الخدمات الأساسية في كل من العراق والكويت وكيفية بقاء بغداد صامدة رغم الدمار وتحدثت أيضاً عن الخوف من الإرهاب في أمريكا نتيجة الحرب.

بث التلفزيون الأمريكي أخباراً تتعلق بأسراهم لدىٰ العراق مما أدىٰ إلىٰ الحزن في أوساط الجماهير، كذلك بث مقابلة مع عائلة أحد الأسرىٰ واجتذبت هذه المقابلة عواطف الكثيرين من الأمريكيين بينما تغاضت محطات التلفزيون عن الدمار الذي حدث في العراق والكويت. قليلاً ما استقلت محطات التلفزة الأمريكية بآرائها حيث عكست معظمها وجهة نظر الإدارة الأمريكية ما عدا محطة "C.N.N" التي انتقدتها الإدارة الأمريكية مراراً بسبب تقاريرها الحرة المُعَدة في بغداد وبالرغم من ذلك تبنت "C.N.N" نوعاً من المراقبة الذاتية بحيث لا تعد تقاريراً محرجة للإدارة الأمريكية فمثلاً لم تجرؤ علىٰ مقابلة والديّ طفل عراقي تشوه أو قُتل أثناء القصف الجوي في الأيام الأولىٰ للهجوم حيث إن مثل هذه المقابلة كانت ستعتبر ضد أهداف الأمريكان في هذه الحرب.

كان لدىٰ تقارير "C.N.N" المعتدلة وقت لتتضمن تقارير من القادة البريطانيين وهذا كان مفيداً في البداية. ولم تكتشف محطات التلفزة إلا بعد وقت طويل بأن هناك قيوداً علىٰ إمكانية وصولها إلىٰ مصادر المعلومات من الضباط في المواقع العسكرية مما قد يساعدهم في التعرف علىٰ خطط الإدارة الأمريكية ونواياها في هذه الحرب. فهل كانت الإدارة الأمريكية لا تؤهلهم لتحمل المسؤولية؟ أم أن المراسلين

كانوا أقل وطنية وحرصاً علىٰ أرواح الأمريكيين من المواطن الأمريكي العادي؟ لم تكن هذه المرة الأولىٰ التي يتم فيها إخفاء معلومات عن الصحافة أثناء الحروب فقد حدث ذلك في فيتنام وكوريا ويمكن القول إنه تم في القرن التاسع عشر أثناء الحرب الأهلية الأمريكية حصر هذه المعلومات المعطاة للصحافة بسبب خطأ وقع فيه الصحفيون حيث خلطوا بين مشكلة حقيقية وأخرىٰ لا وجود لها. لذلك فقد تم إعطاؤهم المعلومات التي تود الإدارة الأمريكية نشرها فقط.

فشل الكونجرس في تحديد نويا الرئيس بوش قبل الخامس عشر من كانون ثاني وفشلت الصحافة في ذلك خلال الأسابيع التي تلت هذا التاريخ.

اعتمدت الإدارة الأمريكية علىٰ تمرير فكرة واحدة للصحافة وهي أن الحرب ستكون صعبة وطويلة وأن التخطيط السياسي والقدرة العسكرية الأمريكية الخارقة هما فقط اللذان يمكن أن يقصرا مدة الحرب ويقللا من الإصابات. وتقبلت الصحافة فكرة أن الذكاء الأمريكي هو الذي منع صدام حسين من التسبب بمذبحة لقوات التحالف التي تجمعت لإيقافه، ونشرت الصحافة هذه الأفكار التي مررت لها عن طريق البيت الأبيض وانطلت الحيلة حتىٰ علىٰ بعض الصحفيين المشهورين مثل جيمس رستون ـ الصحفي الشهير الذي كان يعتبر عميداً للصحفيين في واشنطن حيث ترك مقر إقامته علىٰ إحدىٰ الجزر وعاد يكتب عموداً في صحيفة التايمز لأنه اعتبر هذا عملاً مهماً في وقت تتعرض في الأمة الأمريكية لخطر كبير هو حرب الخليج.

بعد زيارته لواشنطن لمناقشة الحرب، عكف رستون علىٰ الكتابة وتوجيه النصائح للرئيس بوش كما يفعل الصحفيون العظام عادة فماذا قال رستون؟

قال إن الولايات المتحدة يجب أن لا تجامل صدام حسين بالمقاتلة علىٰ الأرض التي يختارها هو حيث إن «الجيش العراقي يعرف ساحة المعركة جيداً ولا

يعرفها الأمريكيون» لذلك كانت نصيحته الأولىٰ تجنب الحرب البرية لأنها ستكون خطيرة جداً.

وتساءل رستون: لماذا لم توجه الإدارة الأمريكية «قنابلها الذكية» علىٰ صدام حسين نفسه حيث إن هذا يمكن تبريره إذا كانت الغاية هي الحفاظ علىٰ أرواح الجنود الأمريكيين.

خشي رستون أن يكون الجيش الأمريكي ومشاة البحرية «المارينز» يضغطون علىٰ الرئيس بوش للقيام بمعركة برِّية ليثبتوا فيها كفاءتهم كما فعل سلاح الجو والقوات البحرية. وأمِل رستون أن يقاوم الرئيس هذا الضغط لأنه ليس من مصلحة أمريكا تدمير العراق ووضعه «تحت رحمة إيران وسوريا».

كانت سياسة رستون المفضلة هي إجبار الجيش العراقي علىٰ الاستسلام ليس بواسطة المعركة البرية التي قد تتسبب في إصابات وقتلىٰ أمريكيين، بل عن طريقة عملية استنزاف بطيئة وثابتة تستهدف تدمير أنظمة الاتصالات العراقية وتجويع الوحدات المقاتلة العراقية.

باختصار، كانت نصيحته تقتضي الاستمرار في القصف الجوي، لأن لها أثراً كبيراً علىٰ الجيش العراقي المتواجد في الجحور الأرضية وبذا فقد أعلم رستون الرئيس بوش بأن المعركة البرية ليست في مصلحته السياسية.

تدّل هذه النصيحة علىٰ عدم معرفة هذا الصحفي المخضرم لنوايا الرئيس بوش وسياسته تماما مثلما خدع الكثير من الصحفيين والمواطنين عندما اعتقدوا أن الرئيس بوش لا يدرك مصلحته السياسية. لقد وقع رستون في مصيدة الرئيس بوش المنصوبة بأحكام حيث لم يكن لدىٰ الرئيس بوش خطة بالدخول في حرب برِّية خطرة لأنه عرف بأنها لن تكون من الخطورة كما أظهرها للشعب.

كانت معلومات الرئيس بوش عن قدرات العراق العسكرية أدق من المعلومات التي قدمها رستون عن طريق أصدقائه العسكريين القدامىٰ في واشنطن الذين اعتمدوا التصنيف والإحصاء العسكري القديم الذي كان قائماً أيام كوريا وفيتنام. لخّص رستون أهم نصائحه في جملة واحدة «إن المعركة البرية لن تزيد في شعبية الرئيس بوش في الانتخابات المقبلة التي تتأثر بما يحدث في الاتحاد السوفييتي بشكل أكبر مما يحدث في العراق والكويت».

إن أسباب عدم فهم رستون للسياسة العسكرية للرئيس معروفه . . أنّ رستون تأثر بتحليل حرب فيتنام كذلك لم يستفد من دراسته للرؤساء الأمريكيين السابقين ولم يفهم طموحات الرئيس بوش السياسية كذلك كانت عقلية الرئيس بوش قد تأثرت كثيراً خلال خدمته في الحرب الباردة التي جعلته غير قادر علىٰ تخيل أي شيء غير الذي يفعله وما هو مقتنع به.

مع استمرار الحرب علىٰ شاشات التلفزيون، بدأ التفاؤل المبالغ فيه يخبو لكن شعبية الرئيس بوش بقيت عالية حتىٰ إن العامة سخطوا علىٰ بعض النواب الذين صوتوا ضد مشروع الرئيس للتدخل العسكري.

لقد أظهرت خطوة الحرب هذه الرئيس بوش قوي العزيمة والتصميم، وخرج الأمريكيون في الشوارع حاملين الأعلام الأمريكية معلنين تأييدهم لما يفعله الرئيس.

بينما كان معظم الأمريكيون يتغنون بوطنهم استمرت الحرب واستمر سقوط الصواريخ العراقية علىٰ تل أبيب واستمر قتل وجرح الإسرائيليين وتدمير المناطق السكنية، إلا أن إسرائيل لم تطلب التدخل والرد علىٰ الصورايخ العراقية، بل طلبت مساعدات أمريكية بقيمة (١٣) بليون دولار، ثلاثة بلايين دولار كتعويض عن الخسائر التي سببتها وتسببها الصواريخ وعشرة بلايين تقسط علىٰ خمس سنوات للمساعدة في توطين المهاجرين السوفييت في إسرائيل.

حينمـا أرسل مساعد وزير الخارجية الأمريكية لورنس إيجلبرغر إلىٰ إسرائيل أخطأ رئيس الوزراء الإسرائيلي في تقدير أهمية إيجلبرغر في إدارة الرئيس بوش حيث اعتقد أن هذه الزيارة هي رمز دعم معنوي ومادي مستمر لكن ثبت لهم أن لا أحد ينوب عن الرئيس بوش سوىٰ وزير خارجيته جيمس بيكر الذي أخذ حماسه للدولة الصهيونية يتغير ويخبو.

بالرغم من امتنان الرئيس بوش لإسرائيل لعدم إفشالها للتحالف الذي صنعه، إلا أن هذا الامتنـان، لم يتـرجم في الحال إلىٰ دعم مادي. استرجعت محطات التلفزيون بعض برامجها القديمة بعد الأسابيع الأولىٰ للحرب بينما استمرت محطة "C.N.N" في بث الحـرب علىٰ مدار الساعة معتقدة أنها تقدم خدمة كبيرة للشعب الأمريكي، كذلك وعدت المحطات التلفزيونية الأخرىٰ بقطع البرامج العادية لبث نشرات إخبارية خاصة عن الحرب. وبرز هنا سؤال مهم وهو: هل كانت هذه التغطية التلفزيونية للحرب تعطي معلومات عن الواقع التاريخي والاجتماعي للحرب وهو الذي يحتاج المواطن الأمريكي لمعرفته؟

هل تم تزويد الشعب الأمـريكي بمعلومات عن العلاقات الكويتية ـ العراقية ونتـائجهـا مما يؤدي إلىٰ فهم أكبر لهاتين الدولتين؟ هل تم إظهار إيران وإسرائيل والسعودية ومصر وسوريا والأردن بشكل كافٍ وشرح مشاكلها الخاصة التي تختلف عن مشاكل الولايات المتحدة؟

حازت محطة "C.N.N" علىٰ شهرة واسعة جداً حيث استمعت لتقاريرها أعداد كبيرة خارج الـولايات المتحـدة وداخلهـا ويعتقـد البعض أنها كانت من الرابحين البارزين من حرب الخليج، إلا أن أولئك الذين شاهدوا تقاريرها من غير الأمريكيين لاحـظوا التحيز الأمـريكي الواضح فيها، كذلك طرح بعض من تقبلوا التفسيرات الأمريكية أسئلة عن دور محطة "C.N.N" في الحرب.

فمثلاً عندما انتُقِد بيتر آرنيت مراسل "C.N.N" لبثه تقارير من بغداد بأنه بذلك

يساعد الرئيس صدام علىٰ الدعاية لصالحه، دافع عنه الصحفيون الأمريكيون والتفوا حول هذا الصحفي المحايد الذي اكتسب خبرته خلال حرب فيتنام وبرروا ذلك بأنه لا يعرف شيئاً مما انتقد بسببه. وبذلك حاولوا منعه من عمل التقارير التي لم يستطيعوا هم تقديمها بسبب الرقابة الأمريكية الصارمة.

اختلفت الآراء حول إن كان بيتر آرنيت يساهم في الجهود الحربية أم لا، ومن هذه الآراء أنه كان يقوم بـ «واجب وطني»، أما بقية الصحفيين فقد تم وضع قيود علىٰ تحركاتهم. كذلك بدأ بعض الصحفيين يتساءل عما إذا كانت وزارة الدفاع قد استفادت من سكوتهم ولم يسأل أحد السؤال الرئيسي وهو «ألم يُستخدم هؤلاء الصحفيين لخدمة أغراض الرئيس بوش؟

لقد امتدح الكثير من الأمريكيين مواهب بيتر آرنيت الصحفية وخبرته في حرب فيتنام لكنهم نسوا الحقيقة الأهم من ذلك وهي أن أخبار الحرب التلفزيونية كانت منتقاة بعناية وكانت تُختار من قبل زعماء البيت الأبيض (الرئيس بوش ووزير خارجيته) حيث كانا يقرران مدىٰ صلاحية التقارير الإخبارية للبث ويقرران ما يمكن للصحفيين من تصويره وحسب رواياتهم للأحداث. وبذلك وصفت حرب الخليج بأنها «حرب نظيفة» حيث كانت «القنابل الذكية» تسقط علىٰ المواقع العسكرية فقط من أجل إجبار الرئيس صدام علىٰ الانسحاب من الكويت ـ حسب ما أعلنه البيت الأبيض. عرف الرئيس بوش ـ تماماً مثل معلمه ريغان ـ كيفية صنع النقاشات ونشرها وكيفية الحصول علىٰ تأييد الشعب بعد تصديقهم هذه النقاشات ووجهات النظر حيث صدق الشعب الأخبار التلفزيونية التي تبث إليه بالرغم من أنها كانت مخترعة ومعدّة لنشر أفكار وعواطف وطنية بسيطة. حتىٰ إن الاحتفالات «بانتصار» التحالف لم تكن عفوية بل كانت معدّة مثلما كانت معظم الأحداث خلال حرب الخليج.

سيطر البيت الأبيض علىٰ مجريات الأحداث وكأن الكونجرس في إجازة حيث لم يسأل أحد عما كان يفعله النواب الذين ربما كانوا منشغلين بمشاكل المواطنين

وهذا بالطبع لا يمكن إدراجه في نشرات الأخبار.

كان الرئيس الأمريكي وحده يرد علىٰ تهديدات الرئيس صدام وكان هذا يتصدر نشرات الأخبار. كتبت صحيفة نيويورك تايمز في يوم ٢٥ ـ كانون ثاني عن أحداث العالم وعن القضايا التي تغرق الشعوب بجرأة وذكاء أكثر مما كانت تقدمه محطات التلفزيون في أسبوع.

فمثلاً نشرت هذه الصحيفة تقريراً عن خطاب الرئيس حسني مبارك في القاهرة خلال اجتماع ضم مجلس النواب الجديد والمجلس الاستشاري، حاول الرئيس مبارك أن يخفف من الانتقادات الداخلية لاشتراك مصر مع الحلف مبدياً تعاطفه واهتمامه بالشعب العراقي. وقال إن مستقبل الرئيس صدام ليس مهماً بالنسبة له حيث يحدده الشعب العراقي بنفسه، وتطرق الرئيس مبارك للسؤال الذي كان يشغل بال الكثير من المستمعين والشعب هو: لماذا أبدت الولايات المتحدة حماساً سريعاً لإدانة العراق وقتاله ولم تبدِ أي شيء من هذا حيال إسرائيل التي قتلت وشردت الشعب الفلسطيني؟ وأجاب الرئيس مبارك بأنه تلقىٰ وعوداً من الرئيس بوش بحل القضية الفلسطينية بعد الانتهاء من حرب الخليج

هل كان هذا صحيحاً؟ وبماذا وعد الرئيس بوش أن يفعل بالضبط؟ أم هل كان الرئيس مبارك مضطراً لقول أي شيء يخلِّصه من الضغوط السياسية الداخلية؟

ودافع الرئيس مبارك أيضاً عن قراره بإرسال قواته إلىٰ السعودية لأن ذلك جاء «التزاماً بمعاهدات محددة» يجب اعتبارها بأهمية قصوىٰ. أخطأ الأمريكيون عندما فسروا ذلك بأنه التزامٌ بميثاق الأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن حيث قالت صحيفة التايمز أن قصد الرئيس مبارك هو التزامه بمعاهدة الدفاع المشترك المنبثقة عن الجامعة العربية التي كان ملزماً وجدياً بالنسبة للرئيس مبارك.

إن قرار إرسال قوات مصرية للسعودية لم يتخذ لأن الرئيس صدام «كذب» علىٰ

الـرئيس مبـارك بخصوص الكويت وإنما اتخذ التزاماً بالمعاهدات وخصوصاً لبلد عربي غني طالما سعىٰ الرئيس مبارك للحصول علىٰ صداقته، لقد أراد الرئيس مبارك أن يثبت نفسه كصديق وشريك مخلص.

لم تفلح تبريرات الرئيس مبارك في منع انتقاد أحد النواب له وهو المتحدث باسم ثمانية أحزاب معارضة، والذي لمحّ إلىٰ أن عريضة ستوقع قريباً مطالبة بإيقاف حرب الخليج التي وصفها هذا النائب بأنها هجوم بربري أمريكي علىٰ الشعب العراقي.

ذكرت صحيفة تايمز أن جميع أحزاب المعارضة في مصر باستثناء حزب الوفد عارضت الحـرب بشـدة. ورأت هذه الأحزاب أنه إذا كان لا بد من وجود القوات المصـرية في السعـودية فإنـه يجب تحـريكهـا إلىٰ الغرب وذلك لحماية الأماكن المقدسة في مكة والمدينة.

خلال تقـرير مدتـه (٣) دقائق بث علىٰ التلفزيون عن الـ (٤٥) ألف جندي مصري في التحالف لم يذكر شيء عن الأصوليين الإسلاميين الذين كانوا يبرزون بسرعة علىٰ الساحة السياسية في شمال إفريقيا والشرق الأوسط.

لم تكن محاولات كبت الأخبار صريحة وواضحة حيث كانت الأخبار تتكلم نفس اللغة التي استخدمها الرئيسان رونالد ريغان وجورج بوش، لذلك لم ينشغل كبار المحررين بقضايا هامة حول الحرب بل اهتموا بعمل الإحصائيات والتصنيفات العسكرية.

لو اهتم صانعو الأخبار التلفزيونية قليلاً بالانشقاقات داخل العالم الإسلامي وما قد تفكر أو تقوم به بعض الدول الإسلامية مثل الجزائر والباكستان لكان الحماس في أوروبـا الغربية لقوات التحالف أقل، ومن الممكن اعتبار جميع الدول الإسلامية أعضـاء في التحـالف (لأنهـا لم تقم بعمل يعارضه) وثلاثة منها أعضاء مشاركون

بقوات، لكن هذه الحقيقة لم تثر إلا القليل من الأمريكيين ليسألوا أو يستفسروا عن أوضاع هذه الدول.

أدت المظاهرات المعادية للحرب في ألمانيا ـ علىٰ ذمة صحيفة نيويورك تايمز ـ إلىٰ «هز» الوحدة الأوروبية ضعيفة الأساس لكن هذه الفكرة لم تطرح أبداً من خلال وسائل الإعلام. لم يستطع أولئك الذين اهتموا فقط بأحداث الحرب اليومية في الصحراء أن يتخيلوا النتائج الأخرىٰ والقضايا المهمة التي كانت تطرحها الحرب، حيث لم تكن هذه القضايا السياسية التي تدعمها آراء العامة في العواصم الأوروبية ـ من ضمن ما قدمه التلفزيون الأمريكي من تقارير حول الحرب.

لم يفشل التلفزيون في تقديم الأحداث الخارجية، بل فشل في إظهار الأحداث الداخلية الأمريكية أيضاً حيث كانت التقارير المحلية المتعلقة بقضايا سياسية واجتماعية موجهةً نحو عواطف المواطنين والتأثير عليها عن طريق اختيار الصور المؤثرة.

مثلًا: عن التصدي لموضوع استدعاء قوات الاحتياط من النساء للخدمة ركزت الأخبار علىٰ الصعوبات التي تواجهها المرأة عند تركها لبيتها وأسرتها والانضمام إلىٰ الخدمة، وركزت أيضاً علىٰ المهام التي تقوم بها المرأة في القوات المسلحة، وأهملت الحقيقة المهمة التي كان يمكن معرفتها عند زيادة المواقع ومشاهدة النساء في ساحة المعركة.

كتبت صحيفة نيويورك تايمز أن ربع الجيش الأمريكي في الخليج هم من السود بينما يشكل السود ثُمن (١/٨) الأمريكيين لذلك تم زج السود في حرب الخليج.

إن وضع السود في أمريكا هو وضع تعيس للغاية حيث تزداد بينهم نسبة البطالة وقلة الدخل وتزداد المشاكل الاجتماعية ويكثر الأبناء غير الشرعيين الذين غالباً ما يجدون أنفسهم بين خيارين؛ إما العمل في مهنة وضيعة، أو الانضمام إلىٰ القوات

المسلحـة وإنقـاذ أنفسهم من البقـاء في الشوارع. إن بعض السود دخل القوات المسلحة لتحقيق طموحات معينة والبعض الآخر دخلها بسبب الحاجة المادية، ولا أحد يعلم بالضبط كم نسبة هؤلاء بين المقاتلين في حرب الخليج.

كتبت صحيفة نيويورك تايمز علىٰ الصفحة الأولىٰ مقالاً بعنوان «السود يتوجسون خيفة من عددهم الكبير في الخليج» وتطرقت الصحيفة فيه إلىٰ الاستياء والغضب الذي ساد بعض السود لأن مجتمع السود سيخسر نسبة أكبر من البيض في حال وقوع خسائر في حرب لا يؤيدها العديد منهم، والأهم من ذلك في هذا المقال أن العديد من السـود يعـارضـون هذه الحرب تماماً، ويبقىٰ السؤال المهم هنا: هل أشارت محطات التلفزيون إلىٰ هذه الحقيقة.

في استفتاء للرأي قامت به محطة سي بي إس وصحيفة نيويورك تايمز تبين أن نسبة البيض الذين يفضلون العمليات العسكرية علىٰ الاستمرار في العقوبات هي (٤ : ١) بينما كان نصف السود يؤيد العمليات العسكرية والنصف الآخر مع استمرار العقوبات، إن أيّاً من المحطات التلفزيونية الباقية لم تشر إلىٰ هذا الاستفتاء، علىٰ كل حال، كم من الأمريكيين يعرف أن جميع النواب السود كانوا معارضين لاستخدام القوة وفضلوا الإبقاء علىٰ العقوبات؟! كذلك ذكرت صحيفة التايمز أن السود كانوا يشكلون جماعات لإقناع السود الآخرين بعدم الانضمام إلىٰ القوات المسلحة.

إن هذه الـظاهـرة تطلبت تفسيراً فمثـلاً: ربمـا كان غضب السود من الإدارة الأمريكية بسبب فشلها في حل مشاكل الجريمة والمخدرات المتفشية في مجتمعات السود ـ أثار أكبر معارضة في السود لهذه الحرب. ومن المحتمل أيضاً أن تكون قلة استجابة الحكومة لمطالب الأقليات العرقية بالذات قد أثارت حنق هذه الأقليات.

في نفس المقـالـة ذكرت الصحيفة أن بعض السود فخورون بأن رئيس هيئة الأركان ـ الجنراك كولين باول ـ أسود، وأبدىٰ آخرون تأييدهم للرئيس جورج بوش حيث لم يكن لأمريكا خَيار إزاء التهديدات العراقية للشرق الأوسط.

لقد صرح مساعد وزير الدفاع الأمريكي مثنياً علىٰ السود حين قال إن أحداً لم يجبرهم علىٰ الانضمام للقوات المسلحة وقال ـ إنهم ليسوا ضحايا، إنهم أمريكيون وطنيون أحرار. وهل أراد السود أكثر من هذا الوسام من وزارة الدفاع!!

يتساءل البعض هل أراد ابن مارتن لوثر كنج أن يحرض الجنود علىٰ أن لا يقاتلوا حينما قال مستخدماً نفس كلمات وزير الدفاع «يجب أن يقول كل جندي أسود: اصنعوا ما شئتم، أما أنا فلا أريد القتال لأن هذه الحرب ليست حربنا».

إذا كان السود قد انخرطوا في القوات المسلحة ليهربوا من الفقر كما يصر الجميع، فهل يجب عليهم الآن المخاطرة بحياتهم من أجل المجتمع الأمريكي؟

لقد انضموا إلىٰ مؤسسة أمريكية ضخمة متكاملة وتلقوا وعوداً بالتعليم والتدريب وتوقعوا أن يرقوا في القوات المسلحة. كذلك يمكن لبعضهم أن يمارس سلطات طالما حرم منها علىٰ بعض البيض إذا كان أعلىٰ منه رتبة. إنّ هذا مثال آخر علىٰ اضطهاد السود من عناصر القوات المسلحة بينما يتم إبعاد البيض قدر الإمكان عن العمليات الخطرة.

واحتدم الحوار حول هذا الموضوع وارتكز دائماً علىٰ قول القس جيسي جاكسون: «إن السود يتواجدون في الخليج بكثرة لأنه لم يكن لديهم مكان آخر للعمل، حيث أجبرتهم قلة الفرص الاقتصادية المتاحة لهم علىٰ مواجهة مصيرهم الذي يكرهونه؛ أي الحرب».

لم تستمر مناقشة هذا الموضوع طويلاً حيث رجع الناس إلىٰ أجهزة التلفزيون عندما قام العراق بضخ كميات هائلة من النفط الخام في الخليج من مرفأ كويتي مما هدد بكارثة بيئية كبيرة في الخليج تشبه الحادثة التي وقعت في محطة تابعة لشركة إيكسون عام ١٩٨٩.

اهتمت محطات التلفزيون العالمية والأمريكية بالخطر المحدق بالحياة البرية

والثروة السمكية، وإتلاف النباتات في السعودية وكذلك ما تضمنته هذه العملية من تهديد لقوات الإنزال البحرية التي كانت في مرحلة تحضير للقتال ولم يستبعد أن يقوم العراق بإشعال النار في الخليج مهدداً بذلك السفن الأمريكية.

علّق الرئيس بوش علىٰ ما قام به العراق بأنها فعلة «مريضة» لرجل بائس، وازداد عداؤه للرئيس صدام خلال ظهوره علىٰ شاشات التلفزيون

كانت هذه القضية الشغل الشاغل لمحطات التلفزيون حينما ظهرت قضيّة أخرىٰ وهي سر لجوء الطائرات العراقية إلىٰ إيران، فهل كان طيارو هذه الطائرات يفرّون من القائد صدام حسين أم هل كانت هذه حيلة أخرىٰ من حيل الرئيس صدام؟ وإذا كانت كذلك فما هو المغزىٰ منها؟ بهذا تكون الحرب قد وصلت لمرحلة جعلت الكثيرين يتكهنون بما سيقوم به كل من العراقيين والأمريكيين.

كان من السهل علىٰ المحللين في واشنطن أن يعكسوا خطط الرئيس بوش عندما حضر الرئيس بوش إلىٰ قاعة اجتماعات الكونجرس «الكابيتول» لإلقاء خطاب، هتفت الجماهير لهذا الرجل الذي وعد بأن تقوم الشخصية الأمريكية «التي لا تقهر» بتذليل كل الصعاب الداخلية والخارجية.

بدأ الرئيس بصوت تعلوه النشوة وقال: «لقد قاومنا مصيدة التخاذل والسخرية والعزلة التي أغرت المتغطرس، إن الشعب الأمريكي الذي حمل عبء الحرية يتحمل الآن مسؤولية قيادة العالم لمواجهة الأخطار التي تتعرض لها الكرامة والإنسانية، إن ما نواجهه الآن ليس قضية دولة صغيرة بل هي فكرة كبيرة تتعلق بنظام عالمي جديد تجتمع فيه الأمم المختلفة لتحقيق آمال الإنسانية في الأمن والسلام والحرية وسيادة القانون، إن عالماً كهذا جدير بكفاحنا وبمستقبل أطفالنا». ورد بوش علىٰ أسئلة أحد النقاد حول سياسته في جمهوريات البلطيق قائلاً: «كان انتهاء الحرب الباردة نصراً للإنسانية جمعاء، لقد أصبحت أوروبا حرة وموحدة وساهمت

القيادة الأمريكية بشكل فعّال في ذلك، إن علاقتنا بالاتحاد السوفييتي مهمة للعالم كله كما هي مهمة بالنسبة لأمريكا حيث ساهمت هذه العلاقة في صنع هذه التحولات التاريخية. إننا نهتم مثل الآخرين بالوضع القائم في البلطيق وقد أبلغنا ذلك للقيادة السوفييتية».

ماذا فعل الرئيس بوش ليعبر عن اهتمامه هذا؟

لقد قال الرئيس: «إن المبدأ الذي وجّهَنا بسيط؛ هدفنا مساعدة شعوب البلطيق علىٰ تحقيق آمالهم وليس معاقبة الاتحاد السوفييتي، توصلنا من خلال مباحثاتنا مع القيادة السوفييتية إلىٰ عروض إذا ما تحققت ستؤدي إلىٰ انسحاب بعض القوات السوفييتية واستئناف الحوار مع هذه الجمهوريات وإيقاف أعمال العنف».

ووعد الرئيس بوش بأن يبقىٰ علىٰ اطلاع دائم بتطورات الوضع هناك، وعبّر الرئيس عن ثقته بالقيادة السوفييتية قائلاً: «سنواصل الاتصال مع القيادة السوفييتية لتشجيع الالتزام بالديمقراطية والإصلاحات».

إذا استمعنا لهذا الخطاب فكم سنعرف عن مدىٰ التغيرات في الاتحاد السوفييتي وجمهوريات البلطيق؟ هل سنعرف عن مدىٰ التغيرات في الاتحاد السوفييتي وجمهوريات البلطيق؟ هل نستطيع الحكم أيضاً بأن البيروسترويكا «إعادة البناء» كانت فاشلة.

تحدث الرئيس كثيراً في خطابه عن الحقائق المتناقضة مع خطابه الافتتاحي عند توليه الرئاسة، وبالرغم من ذلك فإن هذا الخطاب قوطع لأكثر من أربعين مرة بالتصفيق والاستحسان وكذلك باحتضان زوجات الجنرال باول والجنرال شوارزكوف من اللواتي حرص الرئيس علىٰ تقديمهن، لقد كان تمثيلاً مسرحياً متقناً يناسب التلفزيون، ولم يتطرق الرئيس في خطابه إلىٰ الحديث عن السلام الذي سوف يلي طرد العراق من الكويت أو إلىٰ ما تعنيه عبارته المبتذلة (النظام العالمي الجديد).

كان حديثه إلهاميا، وبسبب التقاليد المتبعة في التلفزيون تمكن الديموقراطيون من الرد، ولكن دون مستمعين واعين، أخذ النائب جورج ميتشل رئيس الأغلبية هذا الالتزام محمل الجد، وعلىٰ عكس خطاب الرئيس جاء خطابه واقعياً واضحاً ومبرراً فيما لا يجب أن يكون، وقد حاول توضيح موقف الديموقراطيين من الحرب فيما يتعلق بمعارضته في الكونجرس لاستخدام القوة قبل أن يبدأ القتال فعلًا، وفي تطرقه الوحيد للسياسة الخارجية ذكّر ميتشل مستعميه بأن الدكتاتور الذي تساعده اليوم يمكن أن يوجه أسلحته إلينا غداً، وقال ميتشل مستذكراً؛ لقد كان العراق ولعشر سنوات مضت البلد المفضل لدىٰ الولايات المتحدة، ودعا إلىٰ عدم تكرار مثل هذا الخطأ.

دار بقية الخطاب حول المسائل المحلية التي عالجها الرئيس في تلك الليلة ولم تدر أي نقاشات علىٰ التلفزيون، لقد عرف الرئيس تماماً كيف يستغل هذه الوسيلة الإعلامية، أما النائب فلم يستغل المناسبة لإجراء حوار مع الرئيس.

بعد أن وضعت الحرب أوزارها في شهر شباط، وافق الألمان علىٰ دفع خمسة مليارات ونصف إضافية معربين عن تضامنهم مع أمريكا والتخفيف من الانتقادات الخارجية. وقد بدا أن الإسرائيليين بدأوا يفقدون صبرهم لبطء سير الحرب وكان كثير يؤمن بأنه لو فتح مجال أمام الطيران الإسرائيلي لانتهىٰ كل شيء بسرعة، وقد أعرب معلق تلفزيوني خلال لقاءٍ مع وزير الدفاع الإسرائيل موشي أرينز عن شعورٍ عام في إسرائيل هو أن الأمريكيين يقصفون المنشآت ولكن دون أي تأثير كبير، فبينما يشاهد الأمريكيون البولنغ يجلس الإسرائيليون داخل الملاجىء وطرقهم مغلقة، وقد رد وزير الدفاع بأن الحالة هذه لن تستمر طويلاً لا لشهرين ولا حتىٰ لشهر، وقال: أتوقع هذا الوضع الذي يقف فيه محاربون غيرَ عاملين، وكذلك عدم وضع حدٍ لقدرتهم علىٰ ضربنا بالصواريخ، كل هذا لن يستمر لوقت طويل، إن الإسرائيليين يتطلعون إلىٰ إزالة لجامهم، فالأمريكيون فقط هم الذين يمنعونهم من الرد وإنهاء تدمير

مُدنهم». حدث كل هذا في حين كان المتعصبون الأتراك يطالبون بخروج تركيا من هذا التحالف لأن المشكلة يجب حلها عن طريق المسلمين وليس الأجانب. لم يكن هذا ما سمعه مشاهدو التلفزيون في أمريكا، وبدلاً من هذا سمعوا قصصاً عن انتصارات جديدة للأمريكان في سماء العراق والكويت.

ومرة أُخرىٰ هيأت الصحافة الطرق لمثل هذه التحقيقات التلفزيونية المنحازة والهـزلية. بيّن وليم سافير (وهـو كاتب في جريدة نيويورك تايمز) أن الطيارين الأمريكان يربحون والدبلوماسيين يخسرون، فإذا كانت مصادر سافير موثوقة فإن هذا يعني أن وزير الخـارجية قدم تنازلات لوزير الخارجية السوفييتي الجديد الكسندر بسمارتنخ في محادثاتهما الأخيرة في واشنطن. وكان الظاهر أن كليهما مستمر في الاعتقاد أنه يمكن وقف الهجمات لو أن العراق قدمت التزاماً واضحاً بالخروج من الكويت.

وقـد اعتبـر سافير كلمة «مستمر» إهانة لكنه أيضاً اعتبر أن فكرة تقديم العراق للالتزام كافية، ومن وجهة نظره إن الخطأ الكبير هو الاقتراح القائل إن العراقيين لو قبلوا بالخروج فستتم مناقشة أسباب عدم الاستقرار في المنطقة وكذلك الأسباب التي أدت إلىٰ الصراع.

وبرأي سافير فإن وزير الخارجية السوفييتي استطاع الحصول علىٰ موافقة من وزير الخارجية الأمريكي تسمح «لجزار بغداد!» بتحويل الهزيمة إلىٰ انتصار، صرح وزير الإعلام الأمريكي بأن تشاور الرئيس مع وزير الخارجية قد أُسيء فهمه وأنه ليس هنـاك تغيير في السياسـة الأمريكية إلا أن سافير شك في ذلك وخاصة عندما قال الرئيس إنه «لا خلافات» بينه وبين وزير خارجيته.

يمكن تلخيص غضب سافير الذي لم يشاركه فيه سوىٰ القلة بما يلي: «يجب أن لا نخـدع أنفسنا، إن هدفنا هو ليس إخراج صدام من الكويت بل إبعاده عن

السلطة والتخلص من خططه وبرامجه النووية، وإذا كانت اللباقة الدبلوماسية وعلاقات الدول العظمىٰ وحساسية التحالف تمنعنا من إظهار هذه الحقيقة فإن أقل شيء يمكن أن يفعله وزير الخارجية بيكر هو أن يسكت ويمتنع عن تبرير الهدف الذي تقاتل قواتنا في الخليج من أجله».

كان هذا حديث صحف ولم يكن حديث تلفزيون حيث لم يقل التلفزيون كلمة واحدة عن أن الرئيس وضع لنفسه رسالة كانت من الغموض والجبن بحيث تحتقر عقل الشعب الأمريكي، إن أحداً لم يقل ذلك ولم يكن يصدقه.

كانت الحرب تسير علىٰ ما يرام ـ علىٰ الأقل جواً ـ وكانت النعوش العائدة إلىٰ أمريكا قليلة وتبدد الخوف من الاتحاد السوفييتي، وفي الثالث من شباط ظهر مقال علىٰ الصفحة الأولىٰ من صحيفة التايمز عن الأربع سنوات التي حكمها غورباتشوف في الاتحاد السوفييتي وتحول الأمل في إنقاذ الاتحاد السوفييتي إلىٰ وهم حيث لم تنجح التجارب الاقتصادية السوفييتية وفشلت الإصلاحات التي وعدت بها الحكومة، وكان الحزب الشيوعي يحتضر ولم يصبح الاتحاد السوفييتي دولة ديموقراطية.

ساد الاعتقاد في الغرب وأمريكا بالذات بأن التنفيس عن الاتحاد السوفييتي لا يتم إلا عن طريق إجراء محادثات قمة مع الرئيس غورباتشوف. ساد القلق كذلك الكونجرس الأمريكي حول ما سيحصل في جمهوريات البلطيق، استنتج البيت الأبيض أن بوريس يلتسين لم يتفهم المشاكل الحقيقية للاتحاد السوفييتي ولن يعطي الرئيس غورباتشوف فرصته، وتذكرت الإدارة الأمريكية المزايا والأعمال التي قام بها غورباتشوف في جعله رئيساً سوفييتياً فريداً من نوعه ويستحق التقدير إذ أنه أخرج القوات السوفييتية من أفغانستان وقلص الأسلحة السوفييتية الموجودة في أوروبا وكسر عقيدة الرئيس بريجنيف مما سمح لأوروبا الشرقية بالابتعاد عن الاتحاد السوفييتي، وأهملت محطات التلفزيون المظاهرات والاحتجاجات المتزايدة في الاتحاد

السوفييتي وكانت الحرب هاجس وسائل الإعلام الرئيسية.

قلّت الأخبار والصور المثيرة عن الحرب وقد تكررت نفس الأخبار ويبدو أن العامة ابتعدوا قليلاً عن متابعة أخبار الحرب علىٰ شاشات التلفزيون وقلت رحلات الطيران إلىٰ أوروبا حيث أدرك رجال الأعمال الأمريكيين مخاطر «الإرهاب العربي».

بشكل عام بدأت الحياة تعود إلىٰ طبيعتها وبدأت محطات التلفزيون تفقد اهتمام الجماهير. عبَّر الرئيس الإيراني عن أمنيته في أن يتباحث الأمريكيون والعراقيون للوصول إلىٰ تسوية مناسبة لكن وزارة الخارجية الأمريكية رفضت ذلك بسرعة علىٰ لسان مارغريت توتوايلر التي قالت «علىٰ ماذا نتفاوض؟» سنكون مسرورين لو أن أحدا ممن لهم اتصال مع صدام حاول إقناعه بالالتزام بقرارات مجلس الأمن الإثني عشر وهذه هي الوساطة الوحيدة الممكنة».

كان هذا خبراً سريعاً ولم تعط أي فرصة لمناقشة ما يدور بذهن رفسنجاني ولا لماذا يحاول الوساطة في هذه المرحلة بالذات. ولو أن هذه الوساطة جاءت من الاتحاد السوفييتي لما رفضت بهذه السرعة بالرغم من ضعف الاتحاد السوفييتي.

مع نهاية الأسبوع الأول من شباط، بثت رسالة جديدة عبر التلفزيون وهي أن الرئيس بوش أبدىٰ شكوكه حول كفاءة الهجمات الجوية لإخراج صدام من الكويت. بدأ الكونجرس بالاقتناع بأن الهجمات الجوية قد أثرت علىٰ العراق لكنها لم تضعف الحرس الجمهوري القوي بشكل كبير.

لم يقل الرئيس صراحة إن الحرب البرية ضرورية لكنه اكتفىٰ بإرسال وزير دفاعه ورئيس هيئة أركان قوات التحالف للاجتماع بالجنرال شوارزكوف وهذا أشار إلىٰ أن الحرب البرية ستناقش.

أشار الرئيس إلىٰ أن قرار الحرب البرية سيكون صعباً لكنه مستعدٌ لاتخاده،

وأشار الرئيس بوش إلىٰ أن أحداً لا يمكن أن يُملي هذا القرار عليه إلا إذا أشار القادة العسكريون بأنه القرار الأفضل، وانتظر الشعب اجتماعات هؤلاء القادة وبدأ النقاش حول حسنات وسيئات المعركة البرّية.

ظهرت مقالات أخرىٰ في صحيفة نيويورك تايمز كان منها أخبار عن زيادة الدوريات العسكرية السوفييتية، وتشديد القصف لست وثمانين مدينة وازداد الاهتمام الأمريكي بقضية فتور السوفييت نحو تقليص الأسلحة. وبدا أن هناك ضغوطاً من العسكريين في موسكو علىٰ الرئيس غورباتشوف مما أفشل زيارة وزير الخارجية السوفييتي لواشنطن، في الوقت ذاته ازدادت الجرائم الاقتصادية وجرائم الشوارع في موسكو لكن المعارضة تنبهت إلىٰ أن هذا مجرد تمويه ومقدمة لفرض إجراءات قاسية علىٰ الشعب السوفييتي.

قال يوري أفاناسيث: «إن هناك تقرباً كبيراً من الغرب. . ونحن ـ أي السوفييت علىٰ وشك الرجوع إلىٰ نظام السلطة المستبدة» لكن هذه الأخبار لم تكن تنافس القضية الكبرىٰ وهي وقوع الحرب البرية في الخليج في وقت وشيك.

شدّت الانفجارات التي حدثت في مقر الحكومة البريطانية في لندن كاميرات التلفزيون ليوم واحد فقط عندما أُعلن أن الجيش الأيرلندي المحظور هو المسؤول عن الحادث وليس «الإرهابيون العرب». كان الجيش الإيرلندي الذي يقاتل من أجل الحرية يحظىٰ بتأييد بعض الأمريكيين الذين هم من أصل إيرلندي ولكن هذا الخبر لم يكن مهماً للعالم. باختصار كانت هذه الأحداث هامشية ولم تحظ باهتمام عالمي كبير.

بينما كان عباقرة التلفزيون يتناقشون فيما إذا كانت الحرب البرية ضرورية وفيما إذا كانت وشيكة أم لا، انتظر الجميع عودة وزير الدفاع ـ تشيني ـ والجنرال باول وهما الإثنان اللذان يقدمان المشورة للرئيس لكن القرار النهائي يعود له وحده.

ظهر وزير الخارجية بيكر علىٰ إحدىٰ محطات التلفزيون في برنامج «واجه الأمة» رد فيه علىٰ تصريحات الرئيس غورباتشوف بأن الهجوم البري علىٰ العراق «حدث علىٰ نطاق واسع وبشدة كبيرة»، ويشير هذا التصريح إلىٰ أن هذا الهجوم تعدىٰ وتجاوز تفويض الأمم المتحدة باستخدام القوة.

قال بيكر في رده الصريح : «يدعو تفويض الأمم المتحدة إلىٰ استخدام كافة الأساليب الضرورية لتطبيق قرارات الأمم المتحدة التي تدعو إلىٰ انسحاب فوري وغير مشروط من الكويت وإعادة القيادة الكويتية إليها. لذلك فإننا عندما نقصف أهدافاً في العراق فإننا نسير نحو هذا الهدف، كما أننا نقوم بذلك علىٰ هذا النحو لتخفيف خسائر وإصابات قوات التحالف».

وعندما سُئل بيكر عمّا إذا كان حديث الرئيس غورباتشوف يعني تغيراً في السياسة السوفييتية التي قبلت مسبقاً القيام بتحالف ضد العراق أجاب بأنه واثق تماماً بأن هذا لم يحدث، وفي رأيه أنّ غورباتشوف كان يسعىٰ للتهدئة واستمالة الفعاليات السوفييتية المحلية، ولبيان مدىٰ قوة العلاقة بين الاتحاد السوفييتي وأمريكا أضاف بيكر قائلاً: «لقد وجّه الاتحاد السوفييتي انتباهنا إلىٰ هذه الجملة وهي هل يمكن لهذه الصداقة أن تأخذ شكلاً أكثر تماسكاً، إذا لماذا تكلم غورباتشوف بتلك الطريقة؟».

وأضاف بيكر: «إن الموقف السوفييتي وهو الموقف المبدئي الذي أيد الولايات المتحدة لم يلق ترحيباً بين جماهير الاتحاد السوفييتي وخاصة في الجمهوريات المسلمة وكان قسماً من الجيش يعارض هذا الموقف، فإما أن تكون المخابرات الأمريكية في الجمهوريات السوفييتية قد بالغت. . أو أن غورباتشوف أخبر أصدقاءه بأكثر مما كان يحدث. في كلتا الحالتين لم يتطرق أحد لسؤال مهم وهو: هل كان الرأي العام الذي تحدث عنه فعلاً موجودا في الاتحاد السوفييتي، وكيف تمكن هذا الرأي من التعبير عن نفسه؟».

في برنامج «واجه الصحافة» أظهر السيناتور روبرت دول زعيم الأقلية في مجلس النواب احتراماً أكبر لما قاله الرئيس غورباتشوف لكنه بقي مع ذلك مؤيداً للرئيس بوش حيث يشارك الرئيس غورباتشوف قلقه حول ما إذا كانت الولايات المتحدة تتجاوز ما حددته قرارات مجلس الأمن غير أنه عبّر عن ثقته بأن الرئيس بوش لم يقصد ويتعمد تجاوز هذه القرارات. وقال بأن هذا نتج عن الواقع حيث اضطرت الولايات المتحدة إلىٰ ضرب أهداف في العراق ولم ير (دول) أي خطأ في ذلك.

تساءَل النواب الجمهوريون في نفس اليوم: كيف يمكن إخراج العراق من الكويت بغير ذلك؟ وكانوا ـ علىٰ عادتهم ـ يرددون حكمة سياسة الرئيس بوش.

لم يكن هناك ديمقراطيون ليستاءلوا عما ستقترحه الولايات المتحدة عندما يُهزم الرئيس صدام؟ إن هذا السؤال يعتبر تحدياً لأهداف الرئيس بوش السياسية حيث يدل علىٰ أن الرئيس ماضٍ في المعركة حتىٰ النهاية مهما كلّف الأمر وهذا يظهر الحرب بأنها مغامرة خطرة.

بعد اجتماعه بالمبعوث الخاص للرئيس السوفييتي (يفغيني بريماكوف)، أعلن الرئيس صدام بعد ذلك بأيام أنه مستعد للتعاون مع السوفييت لإنهاء الحرب وهذا أعطىٰ دليلاً علىٰ ضعفه عسكرياً.

أصدر بريماكوف وصدام بياناً مشتركاً قالا فيه صدام إنه سيستمر في القتال «حتىٰ يدحر العدوان والمعتدي»، مما أعطىٰ الولايات المتحدة الحق في شجب محاولة بريماكوف.

وقال مارلين فيتزووتر ـ المتحدث باسم البيت الأبيض ـ إن صدام لم يقل شيئاً عن ترك الكويت، وأضاف إنه لن يحدث جديد إلا إذا التزم العراق التزاماً كاملاً بقرارات الأمم المتحدة.

لقد قال صدام شيئاً أكثر مما أظهره التلفزيون الأمريكي حيث ربط أحداث

الخليج بقضايا تخص منطقة الشرق الأوسط، ويعني بذلك القضية الفلسطينية، وتحدث أيضاً عن نوايا التحالف لتدمير العراق وبنيته التحتية وأن هذا جزءٌ من المخطط الصهيوني للسيطرة علىٰ المنطقة موجهاً هذه الرسائل للعالم العربي. كذلك وجّه الرئيس صدام رسالة خاصة إلىٰ الاتحاد السوفييتي والرئيس السوفييتي قال فيها: «علىٰ الاتحاد السوفييتي أن يقوم بمسؤوليته القانونية والسياسية والأخلاقية، إن اختلاف وجهات النظر العراقية والسوفييتية حول أحداث الخليج لا يبرر الصفح عن الجرائم التي ترتكبها الولايات المتحدة تحت غطاء قرار مجلس الأمن رقم (٦٧٨) أو السماح لأمريكا بالاستمرار في ذلك. المطلوب الآن هو تحرك جريء لوقف الجرائم ومنع أمريكا من استغلال الأمم المتحدة لتحقيق أهدافها الاستعمارية».

تخيّل صدام حسين المعروف في الغرب بـ «جزار بغداد» أن السوفييت يستطيعون مساعدته، وكان يجب عليه أن يعرف أحسن من ذلك، إذ لا يوجد لدىٰ غورباتشوف ما يهدد به الرئيس بوش ولا يستطيع حتىٰ أن يقنعه بالجلوس إلىٰ طاولة المفاوضات ولا توجد أي إمكانيات تؤهل الاتحاد السوفييتي لصنع السلام.

عرف الرئيس بوش ذلك وكانت خطته تقتضي الحصول علىٰ نصر كامل وأن لا يسمح للعراق أو للاتحاد السوفييتي بخطف هذا النصر منه. بعد يوم واحد فقط أسقطت طائرت ستيلث «الشبح» قنابل علىٰ بناية في حي مأهول بالسكان وقتلت المئات من المدنيين.

بعد هذه الحادثة، أخذ التلفزيون يبث مناظر جديدة ضمن تقارير الاحتجاجات في العديد من الدول العربية علىٰ ما كانت تقوم به أمريكا من تدمير العراق وظهر القلق حول تماسك التحالف، لكن هذا القلق سرعان ما تلاشىٰ.

بعد يوم واحد فقط من هذه الحادثة، أعلن مجلس قيادة الثورة العراقية عن استعداده للالتزام بقرارات مجلس الأمن، وأطلقت العيارات النارية في بغداد ابتهاجاً بوقف إطلاق النار ولاقىٰ هذا ارتياحاً في مناطق أخرىٰ من العالم لكن الرئيس بوش

حذَّر من أن يكون هذا «خدعة خبيثة»، أما القيادة السوفييتية فلم تشك في صحة هذا العرض حيث بعثت برسائل إلىٰ كل من أمريكا وبريطانيا وفرنسا. تطلب منها عدم البـدء بهجوم بري حتىٰ انتهاء المحادثات بين الرئيس السوفييتي ووزير الخارجية العراقي التي كانت مقررة بعد أسبوع من ذلك المؤقت.

حاول السوفييت مرة ثانية أن يتوسطوا إيقاف الحرب البرية المدمرة، لم يكن لدىٰ الرئيس بوش رغبة في إقناع صدام بالاستسلام، بل علىٰ العكس كان يرغب في نصر عظيم يضمن إعادة انتخابه حيث كانت الحرب في نظر الرئيس بوش إثباتاً علىٰ قدراته السياسية والدبلوماسية البارزة، وإثباتاً علىٰ قدرات وزير خارجيته وإعادة الاحترام للعسكرية الأمريكية التي هُزت في حرب فيتنام.

إن ما أراده الرئيس أيضاً من هذه الحرب هو إظهار قوة الاتحاد السوفييتي خلال الحرب الباردة بطريقة غير مباشرة. وكذلك أراد أن يقول إن الاتحاد السوفييتي الآن هو «نمر من ورق» لا يستطيع أن يفعل شيئاً حيال عرض القوة الأمريكية الهائلة.

لقد أظهرت براءة الرئيس بوش نفسها هنا حيث أنه عندما اختار طريق الحرب لم يعـرف كيف يصنع السلام لكن إذا ما قال أحد من المحللين هذا الكلام فسيكون غير مفهوم، حيث يمكن أن يفهم بأن النصر لم يخلق الظروف المناسبة للسلام في الشـرق الأوسط، كذلـك فإن اضـمحلال الإمبراطورية السوفييتية لم يمهد للهيمنة الأمريكية الكاملة.

أظهرت الأيام التي تلت مدىٰ ضعف الاتحاد السوفييتي بعد أن عرف الاتحاد السوفييتي ما يمكن أن يقبله صدام وعرف أيضاً مدىٰ عناده. وتلاشىٰ الحماس لعرض صدام حسين عنـدمـا التقىٰ الرئيس غورباتشوف مع طارق عزيز ـ وزير الخارجية العراقي ـ كان العرض السوفييتي يتمثل في وقف فوري لإطلاق النار وضمان سيادة العـراق والـدعوة لمؤتمر سلام حول الشرق الأوسط وقال المتحدث باسم الرئيس

غورباتشوف إن هذا يعكس «الموقف المبدئي الثابت للاتحاد السوفييتي» أما المتحدث باسم الرئيس بوش فقال «ستستمر حملتنا العسكرية علىٰ العراق كما هو مخطط له».

فهل رجع طارق عزيز إلىٰ بغداد ليبث للعالم كله التي تمنىٰ أن يسمعها؟ لم يدم عمر هذا الأمل حيث قال الرئيس صدام إن العرض السوفييتي «لم يقدم ما هو مطلوب» وبذلك استمرت الحرب. أظهرت بريطانيا وفرنسا شكوكها حول ملائمة عرض الرئيس غورباتشوف لقرارات مجلس الأمن. أما المسؤولين في الإدارة الأمريكية فقد قالوا إنهم تلقوا أوامر بعدم التعليق علىٰ مقترحات الرئيس غورباتشوف.

وقال وزير الخارجية جيمس بيكر أمام لجنة من الكونجرس إنه «من الخطأ وقف الحرب لغايات التفاوض»، بعد يوم واحد أبلغت بريطانيا وأمريكا الإدارة السوفييتية بأن عرضها غير مقبول لأنه لم يضع ترتيباً زمنياً لانسحاب العراق ولم يتضمن التزام العراق بجميع قرارات مجلس الأمن الإثني عشر لذلك حتىٰ لو قبل العراق العرض السوفييتي فستستمر الحرب. باتت الكرة الآن في الملعب السوفييتي وترتّب عليهم القيام بآخر محاولة. وفعلاً أعلن المتحدث باسم الرئيس غورباتشوف في الثاني والعشرين من شباط أن العراق أبدىٰ استجابة إيجابية لعرض سوفييتي من سبع نقاط لا يشتمل علىٰ أي ذكر لمؤتمر السلام في الشرق الأوسط.

كانت هذه الشروط واضحة: وافق العراق علىٰ انسحاب غير مشروط من الكويت يبدأ في اليوم الثاني لوقف إطلاق النار وينتهي في وقت محدد، وترفع العقوبات المفروضة علىٰ العراق حالما يسحب ثلثي قواته من الكويت، وتسقط جميع قرارات الأمم المتحدة حالما يسحب العراق جميع قواته من الكويت، ويتم الإفراج عن جميع أسرىٰ الحرب بعد وقف إطلاق النار فوراً، ويعين مجلس الأمن دولاً من غير المشتركة في التحالف لمراقبة انسحاب العراق من الكويت.

جاء الرد الأمريكي واضحاً علىٰ هذه المقترحات، عندما أعلن مارلين فيتزووتر أن الرئيس الأمريكي تلقىٰ مكالمة من الرئيس غورباتشوف استمرت (٣٣) دقيقة حيث شكره علىٰ جهوده المكثفة والمفيدة ولكنه أبدىٰ تساؤلات جدية حول العديد من النقاط فيها.

اقترح الرئيس بوش استشارة شركائه في التحالف وعندما سئل فيتزووتر إذا ما كان الرئيس غورباتشوف يتفاوض بالنيابة عن أمريكا رد قائلاً: «لم نطلب منه عمل أي شيء ما، لقد طلب رأينا حول وجهات النظر تلك وزودناه بها لكننا لسنا طرفاً في المفاوضات إلا أن نقدر جهود الرئيس غورباتشوف للاتصالات التي قام بها».

لم يقصد الأمريكيون أي إهانة للرئيس غورباتشوف، لكن عندما أشار الرئيس بوش أن علىٰ العراق بدء الانسحاب من الكويت بحلول يوم السبت على أن ينتهي انسحابه خلال أسبوع ـ بدا واضحاً أن العراق والاتحاد السوفييتي خسرا. كان الخبر التالي علىٰ شاشات التلفزيون هو صور آبار النفط المشتعلة في الكويت وتجاهُل صدام إنذار الرئيس بوش.

بدأت المعركة البرية بالفعل، للمرة الأولىٰ منذ أشهر صارح الرئيس بوش الشعب ووعده بأن تكون الحملة البرية خاطفة وتنتهي بنصر حاسم. بعد أربعة أيام، أوقف الرئيس بوش القتال حيث تم سحق الحرس الجمهوري العراقي! وتحررت الكويت وتم «إذلال» العراق وحافظت الولايات المتحدة الأمريكية علىٰ عهدها مع الأمم المتحدة. انتهت حرب الستة أسابيع بالطبع لم تكن بضربة قوية ولا بالبكاء والحزن علىٰ القتلىٰ، بل بالثناء المفرط علىٰ كل من ساهموا في تحقيق هذا النصر الكبير.

بعد أشهر كان من الممكن الحديث عن الحرب بأنها «نقطة انتقال في التاريخ العسكري» وأنها حملة عظيمة ذات زخم كبير لا يقل عن معارك واترلو ونورماندي . .

الـخ. لم يكن النصر في حرب الخليج مجرد سرعة نشر قوات كبيرة أو استخدام تكنـولوجيا عسكرية متقدمة بل كانت النجاح الباهر في استقطاب الرأي العام من خلال الإدارة الخبيرة لأحد أهم وسائل الاتصال في القرن العشرين وهو التلفزيون، حيث بدأت الحـرب بصـور للقصف الجـوي علىٰ بغداد وانتهت بصورة لجندي أمريكي أسود يطمئن أحد الأسرىٰ العراقيين بأنه في أمان، وأن كل شيء علىٰ ما يرام. كانت الحرب منذ بدايتها حتىٰ نهايتها قصة تم إخراجها للتلفزيون

النظام العالمي الجديد

في السادس من آذار ١٩٩١، وفي مجلس النواب الأمريكي المزين بالأحمر والأبيض والأزرق والأصفر، وصل الرئيس الأمريكي لتلقي الثناء والتقدير من الكونجرس الممتن لما فعله الرئيس من خوض حرب الخليج القصيرة وغير المكلفة العظيمة في نفس الوقت. أما بالنسبة للمشككين بالرئيس والذين كانوا يطالبونه بإعطاء العقوبات الاقتصادية فرصتها، فإنهم لن يجرؤا أن يتغيبوا عن هذا التجمع أو أن يظهروا عدم الفرح لأنهم بذلك سيكونون بدون روح رياضية.

لقد أثبت الرئيس أنه علىٰ حق، وكان علىٰ الجميع أن يعترف بذلك وهم ينضمون إلىٰ الاحتفال والاحتفاء بمقاتلي ومقاتلات أمريكا الشجعان! وبالحلفاء المخلصين والقادة العسكريين والمدنيين المتفانين ذوي الكفاءة والقدرة، كان كل هؤلاء قد تجندوا بقيادة الرجل الذي كان واقفاً أمام رجال الكونجرس ليلقي خطاباً إلهامياً مثل تلك الخطب التي تعلمها وهو يراقب الرئيس رونالد ريغان. كان ذلك التجمع أشبه بمؤتمر حزبي أكثر منه تجمّعاً لمجلسي النواب والشيوخ في احتفال خاص لإبداء الشكر والتقدير منهم للرئيس ومن الرئيس للجميع لما قاموا به.

قال الرئيس للكونجرس بصفته قائداً عاماً: «إن قواتنا المسلحة قد حاربت بشرف وبسالة»، وبصفته رئيساً قال: «لقد هُزم العدوان وانتهت الحرب». واهتز المجلس بالتصفيق عندما أثنىٰ الرئيس علىٰ دول التحالف وعلىٰ الأمم المتحدة حيث قال: «إنه نصر لم يسبق له مثيل للتعاون الدولي وللدبلوماسية بقيادة وزير خارجيتنا جيمس بيكر. وكان نصراً للقانون والحق». واستمر موجهاً شكره للوزير

تشيني وللفريق باول و«لذلك البرج الهادىء في وسط عاصفة الصحراء الفريق نورمان شوارزكوف» وذكر أيضاً الفريق السعودي خالد والبريطاني دي لا بيليير والفرنسي روكجوفرا. ولكنه لم يذكر بشكل خاص القوات الإيطالية أو المصرية فربما سيضطره ذكرها إلىٰ ذكر سوريا في ذلك الموقف.

ووصل الرئيس إلىٰ «التحدث عن العالم بعد الحرب»؛ «كان هناك الشرير وهو صدام حسين، والضحية وهي الكويت، وقد هزم الجانب المظلم من الطبيعة البشرية» وعلىٰ العالم أن «يرنو إلىٰ مستقبل أفضل» بحيث لا يسمح لنفسه أن يقع مرة أخرىٰ رهينة للقوىٰ الخبيثة. وعبر الرئيس عن حزنه علىٰ ضحايا الحرب في الكويت، وفي كل مكان، وأيضاً علىٰ شعب العراق الذي «لم يكن يوماً عدواً لنا». وقد عبر عن أمله أن يأتي اليوم الذي يرحب المجتمع الدولي بالشعب العراقي من جديد.

وبعد أن انتهىٰ من مدحة المنتصرين انتقل إلىٰ ما سماه التحديات الأربعة الرئيسية: الأولىٰ: ترتيبات أمنية مشتركة في المنطقة والتي لا بد من تنفيذها بالتعاون مع الأصدقاء والحلفاء في الشرق الأوسط. وبما أن الولايات المتحدة لن تبقي قوات برية في شبه الجزيرة العربية فمن الضروري أن تحصل مناورات جوية وأرضية مشتركة من وقت لأخر. أما بالنسبة للأسطول الأمريكي المتواجد في المنطقة منذ أكثر من أربعين عاماً فإنه سيبقىٰ هناك بالطبع. وكما قال: «إن مصالحنا الوطنية الحيوية تعتمد علىٰ خليج آمن ومستقر».

وتحدث أيضاً عن الحاجة إلىٰ «السيطرة علىٰ انتشار أسلحة الدمار الشامل والصواريخ التي تحملها». وقال: «إنه يجب تجنب سباق تسلح جديد وإنه يجب الاحتراس بشكل خاص من العراق التي يجب أن يُحرم من امتلاك أدوات الحرب حتىٰ يثبت قادته أنهم لن يستخدموا عائدات النفط في إعادة بناء وتسليح آلة حربهم المدمرة».

وعبَّر الرئيس عن أمله أن تجدد إسرائيل وجيرانها العرب الذين خاضوا للتو معركة ضد عدو واحد، الجهود لتسوية النزاع بينهم والتوصل إلىٰ الحاجة إلىٰ تقديم تنازلات من أجل السلام. وأضاف إن سياسات الإرهاب لا توصل إلىٰ شيء ولن تكون أبداً بديلاً عن الدبلوماسية. وهذا السلام يجب أن يبنىٰ علىٰ قرارات الأمم المتحدة رقم (٢٤٢) و (٣٣٨) التي تنص علىٰ مبدأ «الأرض مقابل السلام». وأعرب عن أمله في أن يؤدي تطبيق هذه القرارات إلىٰ ضمان أمن إسرائيل والاعتراف بها من جهة، وتأمين الحقوق السياسية للفلسطينيين. وقال إن إنهاء الصراع العربي الإسرائيلي وكذلك البحث عن حل لمشكلة لبنان هو أمر ملح. وفي النهاية تحدث الرئيس عن الحاجة لتدعيم اقتصاد المنطقة «الغنية بالمصادر الطبيعية وبالطاقة البشرية، والتي أنفقت الكثير علىٰ التسلح العسكري ولفترة طويلة، وقال إن الحاجة الملحة هي «تحقيق الحرية الاقتصادية والازدهار لكل شعوب المنطقة».

هذا إذن ما يقصده الرئيس لدىٰ حديثه عن النظام العالمي الجديد؟ لقد ظل يكرر هذا الكلام مقتبساً «كلمة» كان قد قالها مبدع الحرب العالمية الثانية وينستون تشرشل: «إنني أرىٰ نصب عيني عالماً جديداً يظهر، نظاماً عالمياً يتحقق فيه العدل والمساواة.. وينصف الضعيف من القوي..» ثم بدأ الرئيس يفصل الأمر بكلماته هو، واصفاً العالم الذي بدأ يلوح من خلف الأفق: «عالمٌ تحقق فيه الأمم المتحدة الأهداف التاريخية التي وضعها مؤسسوها بعد أن تحررت من قيود الحرب الباردة، عالمٌ تعم فيه الحرية واحترام حقوق الإنسان في كل الدول». إن حرب الخليج حسب تعبير الرئيس «قد وضعت العالم الجديد أمام اختباره الأول». ثم استمر قائلاً: «ولقد اجتزت أنا ورفاقي الأمريكيون هذا الاختبار، وإن لم يكن النظام العالمي الجديد قد استطاع أن يضمن سلاماً أبدياً وبما أن حرب العراق ليست آخر الحروب فليكن هدفنا هو تحقيق سلام ثابت يعيش طويلاً».

لقد فشل رئيس الولايات المتحدة في مناسبة فقدت كل معاني القدسية في

وصف العالم الذي سيولد والذي ينتظره الجميع، وفشله هذا لا يمكن أن يعزىٰ إلىٰ عدم كفاءة أو عدم موهبة ذلك الأسطول من الكتاب الذين يكتبون الخطابات في البيت الأبيض. لقد ظهر من عدم قدرة الرئيس علىٰ رسم صورة واضحة لهذا العالم الذي يتبجح به وعجزه عن توضيح كيف سيكون شكل هذا العالم ما أثبت أن الرئيس تابع وخانع كلياً لمعلمه، وقادرٌ مثله علىٰ إخفاء براءته، واختراع أساطير بجسارة توحي للإنسان إما بأنه رجل بسيط أو رجل شرير. كان بالإمكان كتابة خطاب الرئيس هذا للرئيس ريغان ليقرأه في زمانه.

ولو صدقنا الرئيس فإن الولايات المتحدة قد «تحولت» إلىٰ صورة جديدة بسبب نصرها علىٰ العراق. لقد أخبرت بطولات الأمريكيين والأمريكيات من الجنود وثقتهم وفخرهم، أخبرت الشعب الأمريكي ما هي قيم تلك الأمة. واستجابة من الرئيس لما يعرفه بين الرغبة النهمة عند الشعب الأمريكي لمدح نفسه، تحدث عن كل الإنجازات في الصحراء وعن كل ما ثبت هناك بالدليل القاطع حيث استجاب الرجال والنساء إلىٰ نداء الواجب «وأعطونا دروساً في قيمنا وعن أنفسنا». ثم وفي ثلاث جمل لو ذكرها رجل أدنىٰ منصباً من الرئيس في سياق آخر لضحك الناس عليه، حيث قال الرئيس وبنفس أسلوب ريغان «إننا نسمع عن شبابنا الحائرين في اضطرابهم، وعن صغارنا المخفقين وكيف أن مدارسنا فاشلة وكيف أن الصناعات والعمال الأمريكيين من الدرجة الثانية. حسناً، لا تصدقوا ذلك إن أمريكا التي شاهدناها في عاصفة الصحراء حملت الدليل علىٰ موهبة من الدرجة الأولىٰ».

إن رئيساً قادراً علىٰ قول هذا وهو يعرف الحقيقة يمكن أن يصدق أي شيء. إن التصفيق الحار من قبل أعضاء الكونجرس لتلك الكذبة المثيرة للشفقة عن قدرة المؤسسات التعليمية والصناعية في أمريكا، قد دل علىٰ شيء أكثر من «الأمانة والإخلاص لأولئك الرجال والنساء الشجعان» من قبل نواب الشعب. لقد أثبت ما فعلته أعوام ريغان الثمانية وسنتا بوش لأمريكا، لقد أثبت أن الحقيقة تشوه وتجد من

يصفق لها ويكافأها حين نسي الجمهور نفسه في سحر بيان الرئيس. هل يستطيع المرء حقيقة أن يشكك في حماسه لتكنولوجيا أمريكا الرائعة المتمثلة في صواريخ الباتريوت، ولأبناء الوطن المخلصين الذين صنعوها، هل يستطيع الإنسان أن يناقش رجلاً يتحدث بكل انفعال عن «الجنود الذين يعرفون ما هو الشرف وما هي الشجاعة والواجب والوطن ويدركون القوة القادرة علىٰ أن تهز العالم والمتمثلة في هذه الكلمات البسيطة»؟ لقد صفق له الجمهوريون لأنه رجلهم المنتصر الذي يقف علىٰ المنصة كقائد للأمة، وصفق له الديمقراطيون لأن كاميرات التلفزيون كانت هناك وأي إشارة قد تكون خطيرة من الناحية السياسية.

ولم يعلق أحد خلال الأيام التي تلت علىٰ تفاهة الخطاب. ولم يقل أحد ما هو واضح تمام الوضوح: وهو أن ما تخيله الرئيس كحلول للمشاكل الأمريكية لا يتعدىٰ كونه عظة تلقىٰ، وكلاماً لا معنىٰ له. لقد كشف الرئيس من خلال سذاجة اقتراحاته وبشكل أكبر كشف عن تحقيره للشعب الأمريكي، كشف مدىٰ الدمار الذي خلفته أخلاقيات أعوام ريغان الثمانية.

كان الرئيس يدرك الأثر السياسي لها تماماً وصار يمارسه في كل مناسبة. لقد كانت تلك ألطف إساءاته، أما أخطرها فهو أن هذا النظام العالمي الجديد فارغٌ بلا محتوىٰ. لقد أظهر الرئيس مرة أخرىٰ أنه قد تعلم الكثير من موقعه السابق كنائب رئيس. لماذا يثق بالكونجرس، لماذا لا يتعامل مع الأمة نفسها خصوصاً إذا كان برنامجه الذي يطرحه خالياً من المحتوىٰ ولا يحتاج إلىٰ مخصصات مالية؟ وهكذا نجد الرئيس يمارس زعامته بالأسلوب الأرخص معتمداً علىٰ رنين خطاباته وبلاغتها بدون أن يلزم نفسه بشيء يتطلب تضحية من شخص ما.

لقد كان من المستحيل عليه أن يقول بأن الخزانة الفدرالية «مفلسة»، وحتىٰ لو وجد اصطلاحاً أخف وطئاً من هذا ـ هذا إن استطاع كتّاب الخطابات في البيت الأبيض أن يجدوا واحداً ـ [وهذا مستحيل] يتحدث عن الدمار الذي خلفه هو وسلفه

وتركا الأمة تعاني منه، وكذلك فإن لم يكن يستطيع أن يروي قصة الشرق الأوسط بكل حذافيرها حيث إنها الشاهد علىٰ مسلسل فشل الإدارات الجمهورية حتىٰ ٢ ـ آب ـ ١٩٩٢، لذا لم يقل كم كان مفلساً فكرياً وسياسياً هو ووزير خارجيته عندما فكرا في العالم الجديد لدرجة أنه بدأ يرسم عنه صوراً خيالية لا مكان لها في الواقع.

لقد كانت إدارته تفتقد سياسة واضحة ليس فقط فيما يخص الشرق الأوسط بل أيضاً الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية والصين واليابان والهند والباكستان والمجموعة الأوروبية وإفريقيا وأمريكا اللاتينية. وقد فشل أيضاً في توضيح الأمور عندما تحدث عن انتهاء «الحرب الباردة»، ولم يبين ما مدىٰ المجال الذي سينتجه انهيار الاتحاد السوفييتي أمام الولايات المتحدة وماذا ستفعل إزاءه، ولم يكن نقص الصراحة فقط هو الذي منع الرئيس من ذكر بعض الحقائق الأساسية، بل كان النقص في القدرة الفكرية، ورفضه أيضاً التخلي عن أو إصلاح الاستراتيجيات السياسية الحمقاء التي تشربها من رونالد ريغان. لقد عملت هذه الاستراتيجيات ما يثير الإعجاب لأجل سلفه ريغان وبقيت تعمل بشكل جيد في عهده، وكانت ستعمل جيداً في عام ١٩٩٢ الذي كان صَدْر وطليعة خطته.

وفي مثل هذه الظروف كان من السهل عليه أن يقول ما كان هو ووزير خارجيته سيفعلونه لإحلال السلام في الشرق الأوسط، ولجعل العرب والإسرائيليين يجلسون إلىٰ طاولة المفاوضات ولفرض النفوذ الأمريكي العظيم علىٰ المنطقة ـ استكمالاً لما بدأه هنري كيسنجر واستمر فيه جيمي كارتر وتابعه جورج شولتز في الشهور الأخيرة لإدارة ريغان.

ولم يشأ الرئيس أن يذكر هذه الجهود المبكرة لإحلال السلام في الشرق الأوسط ولم يرد أن يقول إن سياساته مدينة بأي شيء، فأظهر نفس الازدراء الذي كان يظهره وزير خارجيته أحياناً لجهود سلفه جورج شولتز. لم يكن هناك أي داعٍ لأن يستشير وزير الخارجية زميله السابق شولتز ولم يكن يريد أن يتعلم منه شيئاً. علىٰ جميع

الأحوال فإن شولتز كان قد فشل في جهوده المبذولة مع شامير مما أضعف موقفه. أما بيكر فقد كان مصمماً علىٰ النجاح مدركاً أن الاتحاد السوفييتي سيساعده في مهمته. كان ينوي أن يضغط علىٰ إسرائيل بشكل لم يسبق له مثيل، وهذا في اعتقاده سيجعله يحقق مبتغاه.

لقد بالغ الوزير في تقدير نفوذه كما فعل الرئيس، وفشل الإثنان في أمر أهم وهو تقدير الفرصة المتاحة من انهيار غورباتشوف، وعجزهما عن إدارك الأخطار الجديدة التي ظهرت في العالم. لقد كان كلاهما ساذجاً يلعب في عالم لا يعرفه.

لقد كان التقدير الذي وجهه الرئيس للأمم المتحدة واهتمامه بحقوق الإنسان أمراً غريباً نوعاً ما لخروجه من فم الرئيس الذي لم يبد اهتماماً بهذين الأمرين عبر سنوات طويلة. ومع ذلك فإن التحولات ممكنة، ووجود تحول في هذا الطريق هو أمر سيسر الديمقراطيين بمجرد أن يتخيلوه، لكن الجمهوريين والديمقراطيين انتظروا كثيراً وهم يستمعون للرئيس لعله يحدد كلامه ويدخل في التفاصيل ولكن بلا فائدة. تحدث الرئيس بالاختصار الشديد وكان من المتوقع من الكونجرس أن يفهم. ولم يجب الرئيس علىٰ تساؤلات قد تظهر: فلو انتهىٰ التهديد السوفييتي، ولو أُذل صدام حسين، فأين التهديد الجديد؟ ولماذا يطلب من الأسطول الأمريكي أن يبقىٰ في الخليج؟ وما الفائدة من المناورات المشتركة مع الكويت والسعودية، وما الذي ستحققه؟

في الحقيقة إن السياسة الأمريكية المتعلقة بالشرق الأوسط والخليج تعود إلىٰ أيام إيزنهاور، وكان يفترض دائماً وجود خطر سوفييتي أو شيوعي وبما أن هذا الخطر غير موجود الآن فأين هي الأخطار؟ هل تأتي هذه الأخطار بشكل رئيسي من إيران؟ أم من الأصولية الإسلامية؟ وعلىٰ أية حال لماذا تستطيع الولايات المتحدة أن تخفف من التـزاماتها العسكرية في وسط أوروبا نتيجة أحداث ١٩٨٩ و١٩٩٠ ولا تفعل الشيء نفسه في الخليج؟

وإذا ما أثير هذا السؤال فإن علىٰ الكونجرس أن يسأل سؤالاً أساسياً أكثر: إلىٰ أي درجة تعتقد أن الولايات المتحدة معنية بالأمن الذي سيوفره نظام غورباتشوف الجديد؟ ولو كان علىٰ غورباتشوف أن يترك منصبه سواءً باختياره أو بثورة داخلية في الكرملين، فكيف سيبدو شكل الحكومة القادمة؟ وكيف ستتصرف إزاء مشكلة الشرق الأوسط أو أوروبا؟ هل كانت إدارة بوش تفكر في مثل هذه الأمور؟ ولو حصل، هل وضحوا تلك الإشارة الغريبة التي وردت في خطاب بوش عن عدم ضمان تحقيق «سلام أبدي» ولكن ما يهمهم هو تحقيق «سلام ثابت طويل الأمد»؟ ماذا تعني تلك الجملة الغامضة؟ هل حقيقة غيرت حرب الخليج الوضع في الشرق الأوسط، أم إن ذلك مجرد وهم؟ هل تنظر إسرائيل إلىٰ تهديد أمنها كما تنظر إليه الأمم المتحدة؟ وما هي الضغوطات التي ستفرض علىٰ إسرائيل لتستجيب لرغبات الولايات المتحدة؟ وهل كان رئيس الوزراء شامير يعرف ما كان يبدو أن الرئيس الأمريكي لا يفهمه ـ وهو أن المماطلة بحد ذاتها هي تكتيك تفاوضي له قيمة أكبر من الرفض القاطع للاقتراحات الأمريكية؟

وتحدث الرئيس بكل سذاجة عن التحكم «في انتشار أسلحة الدمار الشامل والصواريخ التي تحملها». هل كان يقصد أن الولايات المتحدة لن تصدر أسلحة؟ هل ستحرم نفسها وبشكل مفاجىء من فرص بيع الأسلحة في مجال لا ينقص في قيمته والأرباح التي يدرها عن مجال تصدير المنتوجات الزراعية؟ وبالتالي هل ستخفي أمريكا عجز الميزان التجاري؟ ولو حصل، فكيف ستعرّف الولايات المتحدة كلمة «سلاح»؟ هل ستوقف تصدير أسلحة معينة، هل ستتحكم أيضاً في تصدير أنظمة الاتصالات والمنتجات الهندسية الأخرىٰ التي تستخدم في صناعة الأسلحة؟ ولو افترضنا جدلاً أنها أنكرت ذاتها وقامت بكل تلك الأمور، فهل تتوقع من الدول الأخرىٰ أن تحذو حذوها؟ أم هل كان في ذهن الرئيس أن يدعو إلىٰ مؤتمر وقف تسلح عالمي يدعو إليه الاتحاد السوفييتي وفرنسا والمملكة المتحدة وألمانيا وإيطاليا وكبار مصدري السلاح الآخرين. وكذلك الصين والبرازيل والهند،

والمصدرون الجدد الآخرون، وهل سيقدر هذا المؤتمر علىٰ الخروج بأنظمة تحكم جديدة؟ هل كان يدرك كم هو صعب علىٰ الغني أن يتخلىٰ عن تجارته المربحة؟ هل كان يفهم كم سيكون متردداً بأن يفعل نفس الشيء؟ وبالطبع، هل كان يدرك كم ستكون المباحثات متعددة الأطراف تلك معقدة بشكل لا نهاية له؟ وأنها أعقد بكثير من المفاوضات الثنائية التي كانت تعقد بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي منذ الستينات، حين اقترحت المفاوضات حول أول معاهدة حظر تسلح أن يتم في النهاية إجراءات أخرىٰ لوقف التسلح؟

ولم يلمح الرئيس في خطابه إلىٰ تلك الخطط، لقد كان بالطبع، هو ووزير خارجيته غير قادرين علىٰ استيعاب الجهود العظيمة والتي كان يجب أن تبذل لتنظيم مبيعات الأسلحة، وللتمييز بين الأنظمة الدفاعية والهجومية، ولإنشاء أنظمة رقابة تضمن أن لا تتحول الأسلحة الدفاعية إلىٰ أسلحة هجومية من الناحية التكنولوجية.

إن مثل هذه الأمور تتجاوز الاهتمامات الفكرية والقدرات السياسية للرئيس بشكل كبير. والأهم من ذلك أن هذه الأمور كانت تفوق فهمه كما ينطوي عليه انتهاء الحرب الباردة المظنون، كان يفهم الأمر علىٰ أنه ينطوي علىٰ حقيقة واحدة وهي «إن الاتحاد السوفييتي لن يصبح المنافس العسكري الرئيسي للولايات المتحدة بعد أن ينهار، ولن يستمر في البحث عن زبائن ليبيع لهم البضاعة المحببة إلىٰ قلوبهم ـ [أي: الأسلحة]». لم تكن إلا أماني ولم يخطر ببال الرئيس أن يستمر الاتحاد السوفييتي الذي هو بأمس الحاجة إلىٰ العملة الصعبة في منافسة الولايات المتحدة في تلك التجارة وليس في مجرد بيع الأسلحة المستعملة، وقد ظل بعيداً عن ذهن الرئيس أن الأسلحة هذه قد تولِّد قلاقل جديدة، ليس فقط في الشرق الأوسط.

إن فشل الرئيس في تخيل كيف سيكون العالم في مرحلة ما بعد الحرب الباردة جعله يستمر في سياسات أسلافه من الرؤساء الجمهوريين، وكذلك فقد أراد وزير خارجيته أن يصنع السلام الذي تهرَّب منه سلفه شولتز. إن سياسات الرئيس في

مواجهة الاتحاد السوفييتي هي نفس سياسات ريغان. ولم يكلف الرئيس نفسه عناء السؤال إن كانت تلك السياسات في عامي ١٩٩١ و١٩٩٢ ستكون مناسبة كما كانت في ١٩٨٧ و١٩٨٨. لم يكن الأمر عدم قدرته علىٰ التنبؤ بما سيحصل في موسكو فقط ـ إذ أن الرئيس كان يتلقىٰ المعلومات من أجهزة استخبارية عجزت عن توقع غزو العراق للكويت وكان من الممكن أن تعجز عن توقع ما سيحدث في الكرملين ـ ولكن السبب في عجزه عن فهم دلالة ما كان قد حصل بالفعل في الاتحاد السوفييتي والعالم الشيوعي. ولقد سها في خضم الشعارات التي كان يرددها عن محاولة التدبر والتمييز بين ما مات وما بقي حياً في الاتحاد السوفييتي مع أنه قد لا يكون بالضرورة مهماً أو قابلاً للارتداد إلىٰ وضعه السابق.

فعلىٰ أحد المستويات كانت نهاية الحرب الباردة تعني تفكك حلف وارسو مما سيعطي حرية ليس فقط للأنظمة الشيوعية السابقة في وسط وشرق أوروبا، بل لكل أعضاء حلف شمال الأطلسي أيضاً. كان الرئيس خالي الوفاض من الأفكار حول حلف شمال الأطلسي وما سيفعل تجاهه ـ تماماً كما كان الرئيس السوفييتي خالي الوفاض من أية أفكار تتعلق بمستقبل البلاد. ومن ضمن الفشل الأمريكي في فهم مدىٰ التحول الذي أصاب الوضع الشرق أوسطي نتيجةً للانهيار السوفييتي ـ إن جاز هذا التعبير الدراماتيكي ـ أن الرئيس أراد أن يستعرض القوة العسكرية الأمريكية في المنطقة ناظراً إلىٰ أثرها علىٰ الشعب السوفييتي وليس علىٰ قادتهم العسكريين، ولم يكن يدرك كم أحدث ذلك الانهيار تغييراً في المعادلة السياسية والعسكرية في المنطقة، وفي العالم بالطبع.

لو كانت الدول العربية خائفة بالأساس من الغزو السوفييتي، ولو كانت فكرة السادات عن الكماشة السوفييتية حقيقة لا خيالاً وهي الفكرة التي دفعته للتفاهم مع الولايات المتحدة وإسرائيل ـ لو كان ذلك الخطر حاصلاً فقد تبخر ولم يعد له وجود. ما هو التهديد الذي بقي إذن في الخليج ما دام أنه لا يأتي من طرف الاتحاد

السوفييتي أو الحكومات المدعومة منه؟ هل سيكون هدف المناورات المشتركة هو رد العدوان الإيراني المحتمل؟ وهل ستصبح إيران العدو الجديد بنفس الأسلوب العراقي؟ هل كان الرئيس مصمماً علىٰ اعتقاده بأن إيران تصدر الثورات الإسلامية الأصولية إلىٰ الشرق الأوسط، وأنه لا بد من وجود الأسطول الأمريكي ليمنع ذلك؟ أم هل كان يتوقع أن تقوم القوات البحرية بحماية الكويت في حالة أن تصبح قوة المعارضة الداخلية تهديداً خطيراً للأمير؟

هل كان يعتقد، كما ألمح في خطابه، أن الظروف في لبنان مواتية لإحلال السلام، وأن وزير خارجيته الموهوب يقدر علىٰ عمل صفقة يستعيد من خلالها ذلك المجتمع المتمزق وحدته وتماسكه؟ وهل كان الانتصار الأمريكي في الخليج هو الذي سبب هذا الوضع الجديد؟ وهل تراجع القوة السوفييتية في المنطقة هو الذي سيجعل سوريا لينة أكثر؟ وهل إذلال منظمة التحرير الفلسطينية وتلك الضربات الخطيرة التي يتلقاها عرفات شخصياً سببت وجود فرص السلام في لبنان، ولو صح هذا الكلام، فما الذي كان الرئيس يتمنىٰ أن ينعاه هناك بالضبط؟ هل كان يدرك ما هي هذه «المشكلة» عندما كان يتحدث بكل حمق عن «إيجاد حلول للمشكلة في لبنان» والتي لم يعرّفها بل اكتفىٰ بالالتزام بجدول الأعمال الذي وضعه سلفه والذي كان مرتبكاً متلعثماً لا يستطيع أن يتصرف فيه؟ هل استشار أمريكيين ـ لبنانيين بارزين من الموالين له في مجلس الشيوخ لكي يعرف تماما ما الذي جلبته الحرب الأهلية والتدخل الأجنبي لأكثر من عقد لهذا البلد غير الفقر المدقع قياساً لما كان عليه قبل ذلك؟

ألم يدرك الرئيس بوش وهو الذي حضر اجتماعات مجلس الأمن القومي عندما صنعت قرارات إدارة ريغان حول السياسة الأمريكية في لبنان، ألم يدرك أن السياسة الخارجية الرخيصة التي لا تتطلب التضحية أو فقدان أرواح أمريكية هي سياسة فاشلة في الشرق الأوسط؟

من خلال ملايين الكلمات التي قيلت عن العار الذي جلبته فضيحة إيران ـ كونترا ـ كان التركيز موجهاً إلىٰ البيت الأبيض وما قام به من خداع. ولكن المزايا الرئاسية لرونالد ريغان خلصته من مواجهة التحقيق في القضية إضافة إلىٰ أنها شغلت وسائل الإعلام عن قضية أخرىٰ قد تكون أقل أهمية لكنها تبقىٰ مهمة. ما هو الأثر الذي خلفته تلك الحادثة علىٰ الشرق الأوسط خصوصاً إيران؟، بغض النظر عن العراق؟ ما الذي كشفه التملق الأمريكي لإيران وتلك المساومات المخجلة لمعادلة الأسلحة بالرهائن ثم الادعاء بأن ذلك لم يحصل، ما الذي كشفه كل ذلك عن أمريكا؟ كيف صار العرب ينظرون إلىٰ الشرف الأمريكي والمصداقية الأمريكية، والأهم، كيف صاروا ينظرون إلىٰ الحل الأمريكي؟ كانت قضية الرهائن قد سيطرت علىٰ ريغان وصار ينظر أية أنه عملية سرية لتحريرهم علىٰ أنها مبررة. وكان نائب الرئيس بأسلوبه الرقيق قد وافقه أيضاً. لم يكن يفهم أنه بالرغم من أن قضية حساسة في أمريكا، إلا أنها لم تكن تؤهله لتقرر السياسة تجاه الشرق الأوسط وذلك لأن هناك اعتبارات أخرىٰ لها ضغوطاتها في الشرق الأوسط.

لقد أخطأ الرئيس خطأ استراتيجياً كبيراً لم يعترف به الجمهوريون ولم يجرؤ الديمقراطيون أن يستغلوه. كان ذلك عندما أمر بوقف إطلاق النار في حرب الخليج وإسكات الجنرال شوارسكوف عندما بيّن بطل الصحراء هذا أن وقف إطلاق النار سابق لأوانه وطالب بأن يسمح له بدخول بغداد وأن يأتي بصدام حسين سجيناً. لقد تخيل الرئيس أن دخول بغداد هو تكرار لخطأ إسرائيل عندما دخلت بيروت الغربية: كان ذلك سيؤدي إلىٰ فقدان الأرواح الأمريكية بالجملة ويرتفع عدد الضحايا إلىٰ رقم غير مقبول. إضافة لهذا السبب لم يكن الرئيس يريد توجيه إهانات أكثر إلىٰ الاتحاد السوفييتي، وكان يريد الالتزام بحرفية قرارات الأمم المتحدة، لكن ما كان قرار وقف إطلاق النار يعني بالنسبة للشعب العراقي وللأقلية الشيعية وللأكراد، وأكثر المجموعات العرقية تعرضاً للتهديد في تلك الأرض البائسة، كل ذلك لم يكن يهم الرئيس من قريب أو بعيد.

ذلك تحرك الرئيس بكل عظمة ليفعل ما كان يريده فها هي حربه قد أوشكت على البدء.

لم يكن الرئيس يعرف نظرة العالم إلىٰ أمريكا . . ومن سيقول له الحقيقة؟ من سيقول له إن قدرة وزير خارجيته في تكوين تحالف متماسك يدوم عدة أشهر ليست بالإنجاز الدبلوماسي الكبير، وأنها لم تفعل شيئاً لتحسين صورة الديمقراطية في العالم، وإنها لم تؤمن الولايات المتحدة بمصدر ثابت ينفعها في المستقبل؟ إن ذلك التحالف لم ينفعها أيضاً عندما كانت الحاجة لمساعدة الأكراد في أوجها. من كان سيقول للرئيس إن الشيوعية التي كانت ذات يوم تهديداً خطيراً في قارة إفريقيا قد انتهت، وأن الأنظمة الفاشية بألوان جديدة وتحت رايات جديدة قد استمرت، من سيزوده بالمعلومات عن الهند وأندونيسيا وكل المجتمعات الضخمة التي لا يعرف عنها شيئاً والتي لم يزدد احترامها للولايات المتحدة لأنها أذلت رجلاً اسمه صدام حسين؟

إذن ما الـذي قدمته إدارة بوش؟ إنها لم تكن جاهزة للقيام بشيء في أوروبا الشرقية من تنظيرٍ لنظام السوق الحر وذكرٍ لبركان الديمقراطية ـ ولكنها أظهرت نفسها غير قادرة علىٰ تكييف سياساتها بما يتناسب مع التسعينات. كان علىٰ الرئيس أن يتخذ مبادرات شبيهة بتلك التي أطلقها ترومان وإيزنهاور وذلك عندما أدرك أن هناك تنافساً بينه وبين المجموعة الأوروبية والتي لم تكن علىٰ جدول أعمال إدارته نهائياً. كان المطلوب منه أن يتعرف إلىٰ عالمٍ جديد لم يكن يعرفه بعد، هذا العالم هو أوروبا الشرقية التي عرفت نظام السوق الحر في العشرينات ثم جاءت عهود الفاشية في الثلاثينات والنازية والشيوعية في الأربعينات.

إننا لا نكاد نجد مبادىء الرئيس «المحافظة» لا في نظرياته ولا في سياساتهم ولم يفعل أي شيء ليشرف به هذه المبادىء. كانت عادة الرئيس أن ينتظر وكله أمل في أن يحدث شيء يغير مجريات الأمور. لقد كان عاجزاً عن القيام بأي شيء في

عام ١٩٨٩ عام الثورات، ولم يكن حاله أفضل في عام ١٩٩٠ العام الذي كان غورباتشوف قمعياً خلاله، وعندما نجح يلتسين في انتخابات ١٩٩١ نجاحاً باهراً، استقبله بوش. . [وهو الشيوعي السابق] في البيت الأبيض بترحيب أكبر مما لقيه من قبل عدة سنين خلت، ومع ذلك لم يكن يعرف ماذا يقول وماذا يريد.

إن فشل الرئيس في تصور سياسة كريمة نحو الأمم التي كانت تحرر نفسها من الطوق الشيوعي، والمشابهة لتلك السياسات التي مارستها الإدارات السابقة نحو الدول التي خرجت من عهود الفاشية والحكم العسكري ـ إسبانيا والبرتغال واليونان ـ إن فشله ذلك يدل علىٰ شيء أكبر من الازدراء الذي كان الرئيس يمارسه علىٰ تلك السياسات والتي كان يدعي بأنها «أمور خيالية».

ومع ذلك فقد كان يؤمن بأن انتصاره في الخليج قد غير العالم. لقد كانت خطاباته تتضمن الفكرة القائلة بأن ما قام به قد أثر علىٰ المشاكل السياسية في نيكاراغوا والبيرو والفلبين ومصر والجزائر والباكستان وكينيا وعلىٰ أوضاع جميع الفقراء في آسيا وإفريقيا اللاتينية والشرق الأوسط. لقد كانت عملته التي يلعب بها رخيصة؛ مجرد إعلان حسن نوايا وكلمات ووعود غير مؤهلة لتقليل الفوضىٰ التي يعاني منها العالم. ولم يقل أحد بأن مهمة الرئيس هو وضع خطط للتسعينات أو تفويض آخرين بوضع تلك الخطط نيابة عنه ولو التزم الرئيس بأن يكون زعيماً ويتبع الوصية المسيحية القائلة «إن قول الحقيقة يجعلك حراً» فالأولىٰ أن يتبع الوصية الدستورية التي تقول بأنه لا يجب أن يحصر السلطة في يده وأن عليه أن يتوقع المعارضة وأن يحترمها. هل كان من الممكن أن يقبل باحتمالية أن العالم يزداد تقلقلاً وبالتالي فقد أصبح أخطر مما كان عليه في الخمسينات وأن نهاية الحرب الباردة هي المسببة لهذا الوضع؟

إن الدور السياسي الذي يلعبه الرئيس دمويّ جداً، وإن كان غياب الاتحاد السوفييتي كقوة محركة في القضايا العالمية قد ألغىٰ تهديداً فإن تهديدات أخرىٰ

كانت قد ضربت جذورها، فهناك السخط علىٰ الواقع الاقتصادي داخل البلاد وخارجها والذي أشعلته التوقعات وضخمته أنظمة الاتصال العالمية والتي جعلت ادعاءات التكامل الاقتصادي والتقدم أضحوكة، إن أنظمة الاتصال هذه قد صنعت مزيجاً سياسياً قابلاً للانفجار ليس فقط في الأماكن القليلة التي تظهر علىٰ شاشة التلفاز في أثناء تعليقاته علىٰ أحداث ١٩٩١. إن أولئك المرتاحين الذين يقدرون قوة الأمة بعدتها وعتادها العسكري لم يفهموا أبداً أسباب «انهيار وسقوط» الإمبراطورية السوفييتية. إن القضايا الأخلاقية التي أثارتها المعارضة الشعبية كانت تعني القليل لأولئك الذين يحكمون علىٰ كل شيء بالمعايير الاقتصادية ـ والذين ليس لديهم الفهم لطبيعة العاطفة الدينية أو الوطنية، إن تركيز الاهتمام علىٰ رد المعتدي، بتكرار قصة الثلاثينات، قد أشغلت العالم عن الآثار الضارة لفيروس اجتماعي اسمه المشاعر القومية العنيفة والتي ظلت في سبات لعدة قرون قد احتوتها الحرب الباردة وخطاباتها البليغة.

لقد سببت مغامرة الخليج أذىً كبيراً «للوطن» وذلك بتحويل اهتمامه عن مشاكله الاقتصادية والسياسية الحقيقية ليس فقط محلياً وإنما في المجال العالمي أيضاً. وسمحت كذلك بالتمثيل وتقمص الأدوار، فعندما زار الرئيس بوش اليونان في تموز، وكانت أول زيارة لرئيس أمريكي منذ زيارة أيزنهاور الأخيرة عام ١٩٥٩، هناك أعلن عن نيته في التصرف بوحي النظام العالمي الجديد، وأن يبدأ فوراً بحل مشكلة قبرص التي أفسدت العلاقات بين حليفين في حلف شمال الأطلسي عبر عدة عقود، وهناك بدأ يلعب الدور المحبب له: الوسيط الشريف وصانع السلام. وعندما انطلق وزير خارجيته إلىٰ سوريا في مساعيه لعقد مؤتمر السلام الذي سيضع حداً لكل تلك النزاعات التي أدت إلىٰ حروب مأساوية وعنف، عند ذلك بدا حقيقةً أن الولايات المتحدة صار لها دور جديد في الشرق الأوسط.

واستجابةً من الرئيس لتوسلات رئيس الوزراء اليوناني «بأن يتدخل في المشكلة

القبرصية» قام ببساطة بكل ما أحسنت أمريكا دائماً القيام به في الماضي. نعم إن الفرصة كانت تنطوي علىٰ التحدي، لكن مجلة نيويورك تايمز أشارت بشكل عرضي «أن القوات العسكرية اليونانية لديها قائمة شراء طويلة لمقاتلات نفاثة وسفن حربية ودبابات ومعدات أخرىٰ» وقالت المجلة إن الرئيس قد قال: «إن نيتنا تتجه إلىٰ بناء ما نستطيع لتقوية القوات المسلحة اليونانية». لتحقيق ماذا؟ لقتال من؟ لم يطرح أحد تلك الأسئلة.

لقد ظهر أن الطريق إلىٰ قلوب اليونانيين هي نفس الطريق إلىٰ قلوب العرب والإسرائيليين وكل الآخرين الذين أصبحوا جازمين بعد حرب الخليج بأن الأسلحة الأمريكية هي الأفضل والأميز. ما الذي حصل إذن للحاجة إلىٰ «التحكم بانتشار أسلحة الدمار الشامل والصواريخ التي تحملها؟» هل نسي الرئيس في حر «تموز أثينا» كلماته التي قالها أمام الكونجرس الأمريكي في آذار؟ لم يكن هناك أي نسيان لكن الرئيس - وبغض النظر عن فوائد الحرب الباردة - كان يعيش علىٰ المبادىء التي تشربها أثناء خدمته لريتشارد نيكسون والتي نفعته كثيراً في السنين التي تلت ذلك. لقد وجد أنه من الصعوبة بمكان أن يقوم بحركة انعكاس معاكسة وجذرية في السياسة الخارجية تماماً مثل أولئك الذين لا يزالون يحتلون مناصب مهمة في الكرملين - علىٰ الأقل قبل انقلاب آب الفاشل، إن تحسين العلاقة مع «الاتحاد السوفييتي سابقاً» تترجم إلىٰ تطوير سياسة صناعية تجعل الولايات المتحدة أقل اعتماداً علىٰ بيع الأسلحة. لم يكن الرئيس يشعر أنه مطلوب منه أن يحاول تحسين مستوىٰ أداء القوة العاملة الأمريكية التي ادعىٰ أنها ليست ذات نظير وأنها قد أثبتت نفسها من خلال صواريخ الباتريوت.

كان الرئيس يتصرف بوحي تجربته في الحرب العالمية الثانية والدروس التي تعلمها في الحرب الباردة، وكان تبعاً لذلك يعيش داخل الأسطورة، محاولاً المبالغة في إنجازاته دائماً، متخيلاً أن وجوده في البيت الأبيض خصوصاً إذا ما تجدد لفترة

رئاسية أخرىٰ هو دليل علىٰ مواهبه البارزة كدبلوماسي. لكن الحقيقة هي خلاف ذلك، لقد كان يعرف أصول اللعبة السياسية الأمريكية ولعبها علىٰ أسلوب رونالد ريغان، أما فهمه للعلاقات الدولية بالمقابل فقد كان في حده الأدنىٰ. وتظاهر بأن انهيار الاتحاد السوفييتي قد أنعش العلاقات وزاد من التقارب بينه وبين دول حلف شمال الأطلسي. لم يخبره أحد من قبل أن لا يوجد ما يسمىٰ بالحلفاء الدائمين، كان يتصور أن ألمانيا ستظل طوال الوقت تشكره علىٰ ما فعله من أجل توحيد الألمانيتين، وأنها ستظل طوال عمرها ممتنة لما فعلته الولايات المتحدة لدحر النازية واحتواء الشيوعية.

كان بوش يرىٰ في الدول الأجنبية كيانات ثابتة فيما كانت الأدلة طول حياته تشير إلىٰ العكس. لم يكن الجميع في أوروبا الشرقية والوسطىٰ ينتظر «التطوير» من قبل ألمانيا الموحدة، وليس الجميع في الاتحاد السوفييتي قد عفا عما سلف في الحرب العالمية الثانية أو نسيه أو أنهم تصوروا أن قادتهم الشيوعيين هم فقط الذين كانوا يمارسون الظلم عليهم. إن الذكريات التاريخية طويلة العمر ـ فالعرب لا زالوا يتحدثون عن اتفاقية سايكس بيكو، وظل اليابانيون يفكرون في هيروشيما بشكل عجز عنه علماء النفس الأمريكان. إن تاريخ القرن العشرين إجمالاً يقول إنه لم تكن هناك خصائص ثابتة كبيرة للحياة، وإن ما ثبتت ودامت منها كانت صغيرة لا يعتد بها. أما الرئيس فنادراً ما فهم هذه الحقيقة لعجزه عن فهم التاريخ وفشله في تحري الفرص التي خلقت بسبب تسلسل الأحداث والذي أعطىٰ الولايات المتحدة فرصةً أكبر للتحرك علىٰ المستوىٰ العالمي بشكل لم يسبق له مثيل.

لم يكن التحدي الرئيسي أمام الولايات المتحدة هو أن تصبح شرطي العالم الذي يقوم بشكل ودي (أو غير ودي) بجمع كلمة الأمم علىٰ قتال رجل اعتدىٰ علىٰ منطقة ما، أو حتىٰ أن يقوم بتلقينهم كيفية صنع السلام وأن تفعل هذه الأمم في التسعينات ما ادعت أمريكا بكل وقاحة أنها فعلته في الماضي، بل كان التحدي الرئيسي أن تزعم الولايات المتحدة لنفسها دوراً جديداً وأن ترىٰ في نفسها جوهر

«المجتمع المتمدن» مع تقسمها وتشرذمها، وأن ترىٰ نفسها أصلاً ومركزاً لمجتمع عالمي بما فيه من نزاعات وصراعات عرقية وثقافية. إن النمط القديم لأسلوب الحرب الباردة الذي يقسم العالمي كما قسّمته العقيدة المانوية إلىٰ نور وظلام وشخص طيب وآخر شرير قد حد من النزاع السياسي وقلصه ليصبح مجرد مهاترات تلفزيونية فارغة وجعل الحساسية الاجتماعية أكثر جلافة ومن المجتمع الأمريكي مجتمعاً سوقياً. والأخطر من ذلك أنه أجبر الولايات المتحدة علىٰ التنكر لطموحها الخيالي الفاضل ـ وهي أن تكون دولة ديمقراطية منفتحة.

إذا كانت الولايات المتحدة الآن تضم عشرات الآلاف من المشردين ـ وملايين الفقراء المعدمين، وعشرات الملايين من السكان المحرومين من العناية الصحية والعائلية والتي تؤمن أي دولة عضو في المجموعة الأوروبية أنها حقوق محفوظة لأي مواطن، فإن السبب لا يعود إلىٰ حقائق مجهولة، أو لكون المجتمع الأمريكي مجتمع كسول لا روح فيه، مجتمع غير راغب في بذلك أي جهد لتحقيق الازدهار العالمي والمشاعر الطيبة التي تتولد في أي مجتمع يبتعد بمواطنيه عن هذه الفواجع والنكبات، ولا يمكن أن يقال إن الخطأ هو خطأ الناخبين الذين دفعوا بالحزب الجمهوري إلىٰ السلطة والذي يتحيز بشكل خاص إلىٰ الذكور البيض في كل طبقة اجتماعية ويتحدث بلغة عنصرية منمقة ومعقمة تشبه إلىٰ حد بسيط تلك اللغة التي استخدمها الحزب الديمقراطي عندما أراد أن يستعيد قوته في الجنوب بعد الحرب الأهلية، إن الشقوق أعمق من ذلك؛ وهي تعكس عدم الرغبة في مواجهة حقائق معينة تلمس الوتر الحساس في الأزمة التي تمر بها أمريكا ـ ومن هذه الحقائق: الاعتراف بأن عقود الحرب الباردة قد غيرت الأمة، وجعلتها أقل أخلاقية وأقل إبداعاً وأكثر سطحية في تعاملها مع مشكلاتها الاجتماعية الأساسية.

سواء بقي غورباتشوف كرئيس لاتحاد سوفييتي حيّ أم لا، وسواءً نجح بيكر في إقناع إسرائيل بإعطاء «فرصة للسلام» أم لا، سيكون هذا العالم الجديد عالماً تسوده

النزاعات العرقية والدينية والظلم الاقتصادي والاجتماعي الذي سيجلب الانفجارات العنيفة. ومما سيثير العنف أكثر أن تقوم دول أوروبا مثلاً ودول غيرها باتخاذ إجراءات تحد من الهجرة إليها وتكون بذلك قد نزعت صمام الأمان الأخير الذي تقدمه الدول المزدهرة إلىٰ الذين ترغب في توظيفهم في مهن العبودية. إن العالم قد أصبح مكاناً أخطر ليس لأن الشيوعية قد سقطت ولكن لأن عقوداً من الحرب الباردة قد أظهرت طموحات أكثر، ليس فقط في أوروبا.

ويكمن خلف هذه الأخطار التي قد تتضاعف خطر أعظم، وذلك أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تنظم أمورها الداخلية، وأن الفوضىٰ التي ستنجم من هذا الفشل سوف تؤثر علىٰ العالم بشكل جذري ودائم أكثر مما نتج عن انهيار «المدينة الشيوعية الفاضلة». إن الولايات المتحدة ترفض أن تستوعب ما قاله صديق سوفييتي وهو سيرجي كابيتسا الذي تخلىٰ عن لباقته أمام مضيفيه الأمريكان قائلاً بشيء من الصراحة: إن كانت الحرب الباردة قد انتهت كما تصر «السلطات العليا» علىٰ القول، وإن كان الاتحاد السوفييتي هو «الخاسر الرئيسي» واليابان وألمانيا هما الرابحان الرئيسيان، فأين الولايات المتحدة من كل هذا؟ إن هذا العالم الروسي يرفض أن يقول بأن أمريكا ضاعت أيضاً ولكن بأسلوب مختلف، لكن مغزىٰ كلامه واضح.

قد يتمنىٰ الأمريكي في رده علىٰ ذلك القول أن يستخلص نتائج أربعة عقود من الحرب الباردة. هل من الممكن أن لا يكون هناك منتصر، وأن ألمانيا واليابان برغم ازدهارهما الاقتصادي لا تمثلان شيئاً أمام العالم في نهاية الأمر؟ هل المأزق الحقيقي لنهاية القرن العشرين هو أن «المدينة الفاضلة الأمريكية» قد فقدت سلطتها في نفس الوقت الذي تحطمت فيه الأسطورة السوفييتية وأن انهيارهما المتزامن قد تسبب في فراغ فكري وأخلاقي في العالم؟ ولو صح هذا الكلام، فما نتيجة ذلك علىٰ الذين ربطوا مستقبلهم السياسي ودورهم الأخلاقي بالولايات المتحدة؟ هل

سيعترفون؟ إن الحرب الباردة قد أدت فعلاً إلىٰ سقوط الاتحاد السوفييتي، ولكنها تسببت أيضاً في خلق مزايا ليست جذابة جداً لمجتمع أمريكي وعالمي في نهاية القرن العشرين؟ والسؤال الأهم، هل لقنت هذه العقود الخمس التي ابتدأت عام ١٩٤١، هل لقنت الشعب الأمريكي وأفهمته بلغة خاطئة أن نجاح السياسة الخارجية يجب أن يكون علىٰ حساب السياسة الداخلية، والعكس صحيح؟ في الحقيقة أنها مترابطتان بطرق لم يفهما لا بوش ولا ريغان. وليس هناك احتمالية بأن يخرج الشعب الأمريكي من هذه الأساطير والحكايات ما لم يدرك أن سياسة بوش الخارجية تضمنت فشله في مواجهة جميع المشاكل المحلية وليس فقط الاقتصاد الأمريكي.

وبينما يعكس فشل بوش في الخروج بسياسات خارجية ملائمة للقرن الحادي والعشرين محدودية شخصية، فإن فشل المجتمع في مناقشة هذه الظاهرة يدل علىٰ خطأ أخطر بكثير: فإذا قلنا إن الحزب الجمهوري قد جعل من البيت الأبيض مصنعاً للأساطير، فإن الحزب الديمقراطي لم يفعل شيئاً ليرسخ تقاليد معينة في الكونجرس، وكان النواب والشيوخ مع عددهم الكبير عاجزين أن يجمعوا كبر الرؤساء وادعاءاتهم. وليس هناك من داع لأن نقول إن العقود الأولىٰ أو الوسطىٰ من هذا القرن كانت أفضل حالاً. والذي يجب الاعتراف به أن أداء الرئيس قبل وأثناء وبعد حرب الخليج ـ وتقبل الأمة الساذج لهذا الأداء يدل علىٰ فوضىٰ تعم الوطن ولن يصلح حالها بمجرد وصول رجل قادر أو امرأةٍ قادرة إلىٰ البيت الأبيض.

لقد حصل شيء خطير لهذه الجمهورية وليس هناك من وسيلة لتجاهل آثاره علىٰ السلام والرخاء لهذا البلد وللعالم أجمع في المستقبل. لقد ضلت أكبر الديمقراطيات في العالم طريقها في كلتا السياستين الدولية والمحلية، ولم تعد تعرف ما هو المهم ولم تعد تمارس إصدار الأحكام ولم تعد تعتبر أن الادعاء شيء مضحك. والأسوأ من ذلك أنها لم تعد تميز المأساة وجعلت منها أمراً رخيصاً لا قيمة له.

حث الـرئيس في خطابه الاحتفالي حول النظام العالمي الجديد الكونجرس علىٰ «المضي قدماً وبكـل عنف لمـواجهـة المشـاكل الداخلية». وأعاد الرئيس استخدام الحد القانوني وهو مهلة المئة يوم التي اشتهرت علىٰ يد رئيس سابق عام ١٩٣٣ والذي لم يعد اسمه يذكر، فقد طلب الرئيس من الكونجرس أن يوافق علىٰ مشـروعي قانوني النقل والجريمة. وقال: «إن كانت قواتنا قد استطاعت أن تربح المعـركة البرية في مئة ساعة إذن يستطيع الكونجرس وبكل تأكيد أن يخرج بهذه القوانين التشريعية خلال مئة يوم». وتحدث الرئيس عن تكريم كل الأمريكيين ممن خدموا بكل كفاءة في حرب الخليج بغض النظر عن جنسهم ومعتقداتهم ولونهم. وطلب من الأمة أن تطبق هذا التشريف بأن «تعلن الحرب علىٰ التمييز والتعصب والكراهية». كانت هذه رسالة الرجل حول القضايا العرقية وهو الذي جعل من ويلي هورتون رجلاً مشهوراً والذي رفض كل الجهود للخروج بتشريعات جديدة للحقوق المدنية.

بقي هناك تعليقان جوهريان؛ فالرئيس يعتبر الشعب الأمريكي «شعب مهتم» وقال: نحن شعب طيب، شعب كريم، دعنا نكون دائماً مهتمين وطيبين وكرماء في كل ما نفعل».

وبعـد ذلـك النصر العظيم في حرب الخليج وجد الرئيس أن الفرصة مناسبة ليكشف عن إصلاحاته التربوية، فبوجود وزير تربية مؤهل وقادر هو لامار الكسندر إلىٰ جانبه والذي كان قد حل محل وزير أقل موهبة منه كان الرئيس قد نبذه بدْون ضجـة ولا مراسم. تحـدث الرئيس علىٰ أساس أن أيام الوضع الراهن قد ولّت. وظهرت «النقاط المضيئة» ـ يا لها من استعارة حيّة! ـ في إشاراته من جديد ولكن بكلمـات وزيره الجـديد: إن هذا ليس برنامجاً بل هو «حملة متكاملة». وأضاف مظهراً تحكمه بالتاريخ: «ليس هناك من نهضة بدون ثورة». ألا يوجد شيء أقل من هذين ليعد به؟ ربما كانت الأمة تتمنىٰ أن تعرف أن الرئيس ينوي المشاركة شخصياً

في «النهضة التربوية» بأن يتعلم بنفسه استخدام الكمبيوتر!

وقد وعدت الإدارة بإنشاء (٥٣٥) مدرسة تجريبية علىٰ الأقل بمعدل واحدة لكل دائرة انتخابية واثنتين لكل ولاية بحيث تفتتح هذه المدارس عام ١٩٩٦. والهدف من هذه المدارس هو أن تعمل كباعث وحافز للتجربة التربوية. وسيرصد لكل «مدرسة أمريكية جديد» مبلغ مليون دولار في البداية وبعد ذلك علىٰ هذه المدارس أن تدعم نفسها بنفسها بنقود عامة أو خاصة. ولكن ذلك لم يكن كل شيء. فقد كان للمدارس التقليدية مكان في خطة بوش حيث سيفتح المجال أمام الآباء والمعلمين والمدارس لتقييم مجموعة من نتائج الاختبارات وأن يقرروا مستوىٰ الأداء الفردي والمدرسي، ولو لم تكن النتائج مرضية فإن في يدهم أن يمارسوا ضغوطاً كأعضاء منفردين أو كجماعة لغرض التغيير. لن يكون هناك بعد ذلك امتحانات عامة وإنما اختيارية في مواد اللغة الإنجليزية والرياضيات والعلوم والجغرافيا والتاريخ والمطلوب من الكليات الجامعية أن تأخذ نتائج هذه المواد الأساسية في عين الاعتبار عند قبولها للطلبة، وكذلك طُلب من أصحاب الأعمال الباحثين عن موظفين نفس الشيء، أما الطلبة المتفوقون فإنهم يمنحون شهادة تقدير رئاسية للتفوق الدراسي. أما الطلبة المتفوقون الذين لا يملكون المال الكافي فإنهم سيمنحون «منحة رئاسية» إلىٰ الجامعات والكليات. كانت الخطة تشتمل أيضاً علىٰ تبليغ الوالدين عن طريق بطاقات خاصة بمستوىٰ أداء أبنائهم، وليس هذا فقط، بل كانت النية تتجه إلىٰ إعلان النتائج علىٰ مستوىٰ المدارس والمناطق التعليمية وكذلك علىٰ مستوىٰ الولايات. وبالطبع سيكون هناك تقرير وطني يصدر بشكل دوري يبين الإنجاز الوطني العام في مجال التربية.

وفي بداية ١٩٩٤ سيُبدأ بجمع ونشر المعلومات المتعلقة بإنجاز الطلبة في صفوف الرابع والثامن والثاني عشر في المواد الرئيسية الخمسة التي ذكرت. وإذا ما أدرك ولي أمر الطفل أو الطفلة أن ابنه أو ابنها يعاني من تقصير فإن لهما الباعث

والحق في إرساله إلىٰ مدرسة أخرىٰ. كان الرئيس يسعىٰ من خلال «الحملة الشعبية التربوية» أن يستثير نفوذ الوالدين. وأما المدارس التي تتميز بمستوىٰ علامات طلابها فسوف تكافأ بمبالغ تعادل الهبات الحكومية.

الوعد إذن هو إنشاء «جيل جديد من المدارس الأمريكية». وادعت الحكومة الفيدرالية أنه ليس هناك من موازٍ تاريخي لما تفعله بالنسبة للمدارس، متناسية وهي في نهاية القرن العشرين أن ما تقوم به كان قد قدّم للدراسة العليا بعد صدور قانون موريل عام ١٨٦٢، وقد تقرر حسب هذا القانون افتتاح معاهد جديدة بدعم فيدرالي. والفرق الوحيد بين المعاهد التي افتتحت أثناء الحرب الأهلية أنها حصلت علىٰ الأرض من المصدر الحقيقي وهو الحكومة الفيدرالية. أما خطة بوش فلم تكن تحتوي علىٰ ذلك. كان يجب علىٰ البلد أن يعرف أن الحكومة الفيدرالية لم تكن تملك المال ولا أية مصادر أخرىٰ توزعها، ومع ذلك فقد أمرت الحكومة من باب حسن النية بمبلغ مليون دولار كهبة لكل مدرسة جديدة.

وطلب الوزير الكسندر أن لا تكون هناك أحكام متسرعة علىٰ خطة الرئيس. وكانت كلماته واضحة: «لن تكون هناك رصاصات فضية ولا معجزات ولكن سوف تكون هناك تغيرات عظيمة عند حلول الانتخابات الرئاسية التالية». ومن قال أنه سيكون؟ وأي مصطلح تربوي قد تخيل من ذي قبل أن المدارس الأمريكية سيعاد صياغتها في ثمانية عشر شهراً؟ ومع ذلك فإن كلمات الوزير كانت تدل علىٰ العزم والنوايا التي حملتها إدارة بوش أكثر من كلمات الرئيس نفسه.

بالنسبة للذين رأوا في فراغ كلام الرئيس أكثر من مجرد فشل في تأمين المصادر الحقيقية للمشروع - وتقدر ببلايين الدولارات الفيدرالية - فإن الخطة بكاملها ستلغىٰ، لكن الاستجابة الأولية للخطة كانت شبه خرساء فأولئك الذين ظهروا كمؤيدين للرئيس وكذلك الذين رفضوا الخطة لم يثيروا سوىٰ صخب وضجة لا معنىٰ لها ولم يظهروا أي اهتمام بملايين الأطفال الذين لن يستفيدوا شيئاً. إن جزءاً كبيراً

من الاستجابة، سواءً الأمل بكون الرئيس يلتزم أخيراً بقضايا التربية أو الخوف من القضايا الخاطئة التي ستنجم، قد فشل في رؤية الدلالات الأكبر لما فعله الرئيس.

كان الرئيس يعد نفسه لعام ١٩٩٢، فقد كان قد وصل إلىٰ البيت الأبيض واعداً بأنه سيكون «الرئيس التربوي للأمة» وها هو ينفذ التزامه. لكن هذه الجهود كانت عبارة عن دجل وخداع من بدايتها إلىٰ نهايتها ولكن أحداً لم يكتشف أية مزايا سياسية أو تربوية في قول ذلك. ولم ينبع فشل الرئيس في برنامجه من الثمن الباهظ الذي ستدفعه الخزانة ـ فهو في النهاية مصدرة الولايات ـ والخزانة الحكومية كما يعرف الأمريكان «مفلسة» ـ ولم ينبع أيضاً من تعريفها الضيق للمدارس وللتربية. إن الفشل يكمن بشكل أعمق من ذلك في جذب الخطة من القيم التعليمية والفكرية وفي عجزها علىٰ فهم أبعاد الأزمة الاجتماعية والاقتصادية التي غيرت وجه البلد، وفي عدم رغبتها في الاعتراف بأن شباب أمريكا في العقد الأخير من هذا القرن لا يشبهون الشباب الذين عاشوا في أمريكا قبل الحرب العالمية الثانية.

كان الرئيس نفسه يعيش في عالم الأساطير أو يتظاهر بذلك. ولو أنه أرسل مندوباً ثقةً في زيارة إلىٰ مدرسته التي درس فيها لعدة ساعات فقط فإنه سيأتيه بالخبر الكافي لإثارة البؤس في نفسه لدرجة كبيرة.

لم تعد تلك المدرسة «مدرسة فيليب أندوفر» عام ١٩٤٢ ليس فقط لأنها أصبحت مدرسة مختلطة بل لأنها فقدت روح الأربعينات واختفت تلك المزايا القديمة منها. كانت التحولات والانقلابات علىٰ قدم وساق، وكانت المعنويات منخفضة ليس لهروب الطلاب من الحقائق القاسية باعتبارها غير ضرورية، فالمشفىٰ التابع للمدرسة لم يعلن سياسته في توزيع الواقيات المطاطية ولم يشأ أن يناقش النصائح التي كان يقدمها للطالبات الحوامل الراغبات في الإجهاض، فإذا كان الرئيس لا يستطيع أن يفهم أو يتحمل العادات والأعراف الجديدة في مدرسة لها امتيازاتها مثل مدرسة فيليب أندوفر فكيف سيتفهم الوضع في المدارس الحكومية

في هارتفورد وهيوستن، هذا إذا استبعدنا موضوع مدارس نيويورك وواشنطن؟ ورغم ذلك فقد ظل الرئيس وناصحوه بالإصلاح المدرسي يتخيلون أنه كان بالإمكان عمل نسخة جديدة من مدارس ١٩٤٢ عبر الوعظ والاختبارات.

كان الرئيس الذي عجز عن لفظ كلمة «سود» عندما تحدث عن المأزق التربوي الأمريكي كما عجز عن لفظ اسم «إيران» و«إسرائيل» عندما كان يستعد لحرب الخليج، كان يتمنىٰ أن يعيش في أمريكا مريحة وممتعة كما رسمتها سينما هوليود في الأربعينات، بشعبها الذي يخشىٰ الله ويحبه والباحث عن اللهو البريء فقط، ومع مدح بعض كبار المربين لخطة الرئيس التربوية واعتبارها «انطلاقة كبيرة» وادعائهم بأنها مع مرور الوقت ستنافس المبادرات التربوية العظيمة للرئيس جونسون، فإن كلامهم لا يعكس شيئاً أكثر من عدم رغبتهم في رؤية الرئيس في تلك الحالة التي كان عليها. فالرئيس لا يفهم معنىٰ الإصلاح أو الثورة ولم يكن لديه أدنىٰ فكرة عن النهضة التربوية. وعندما أراد أن يتعامل مع أزمة حقيقية وهي الأكثر إلحاحاً في المجتمع، خرج بعبارات وخدع بيروقراطية، وكلها بالمجان.

لقد أصبحت الولايات المتحدة ضحية لإهمال النفس وخداعها ومدحها، وبعد أن كانت نموذجاً للمجتمع المتقدم نجدها أصبحت بالية قديمة الطراز فاقدة لواحدة من أهم مزاياها وهي التجانس الاجتماعي بين خليط الأجناس. إن النظام العالمي الذي تحدث عنه المنتصرون أثناء وبعد حرب الخليج وهم لا يعرفون إلا قليلاً عن الآثار التي خلفتها أربعة عقود من الحرب الباردة علىٰ المجتمع الأمريكي، إن هذا النظام خالٍ من المحتوىٰ والسبب الرئيسي بكل دقة هو أن الذين حملوا فكرته ودافعوا عنه هم أناس لا يحدقون جيداً في الظروف ولا يرونها علىٰ حقيقتها، ولا يستطيعون توقع ما الذي ستؤول إليه في المستقبل. لقد وقعت الولايات المتحدة في غور سحيق لا تسمع فيه إلا كلاماً رمزياً غير مفهوم يتهرب من الانتقاد، وحيث يحل الحنين إلىٰ الماضي بدل الفضائل المتعلقة بتأمين حقوق المواطنين.

كان ذلك واضحاً في الشهور التي سبقت حرب الخليج وأصبح أكثر وضوحاً في أسابيع الحرب واتخذ أبعاداً جديدة في الشهور التي تلتها. ومع أن أحداً لم يطلق اسم «ما بعد الحرب» علىٰ تلك الفترة [إذ إن هذا الاسم الفخم لا يتناسب مع المسمىٰ المتواضع]، إلا إن ذلك لم يمنع المجتمع من الاستمرار في الاحتفال بالنصر. كان الموعد الأصلي للاحتفال هو الرابع من تموز ولكن الموعد قدّم ربما خوفاً من أن يفقد الشعب حنينه الوطني حتىٰ ذلك التاريخ فكان ضرب الحديد وهو ساخن أفضل. وتأتي نيويورك تلك المدينة المليئة بالحرمان والمخدرات والتعفن وتدعي مرةً أخرىٰ أنها مركز الأمة التي تذكرت، ولو بغموض وعدم وضوح الأنباء التي كانت تحملها التلغرافات والتي انهالت علىٰ رؤوس الأبطال الغازين وردة الفعل الإعلامية لها حتىٰ قبل عصر التلفزيون، وبما أن التلغرافات لم تعد موجودة وأن الكثير قد تغير منذ أيام لندبيرغ فقد لبست نيويورك حلة البذخ والإسراف وتجمع الموظفون من أهل المدينة ولم تتكلف المدينة شيئاً من الناحية المادية؛ فرجال الأعمال الأثرياء وكبار الموظفين التنفيذيين والمحامون البارعون جمعوا المال الكافي لإقامة هذا السيرك، وبذلك قدموا للأبطال الغزاة التقدير الذي استحقوه.

ومن الأحداث البارزة غير السعيدة في هذه الفترة ادخال الرئيس إلىٰ المستشفىٰ بسبب تسارع في ضربات القلب وهو المرض المعروف باسم «مرض غريف» وصاحبه فقدان وزن وإرهاق واضح وصعوبة في الكلام وفقدان ذاكرة متقطع. أدىٰ هذا الخبر إلىٰ شيء من الخوف ولكنه وجه الأنظار نحو نائب الرئيس دان كويل الذي كان قاب قوسين أو أدنىٰ من توليه للرئاسة. وبدأت التساؤلات تظهر حول أسباب اختيار الرئيس لهذا الفتىٰ ليكون نائبه في الأصل، لكن أحداً لم يقل ما هو واضح أمام العيان. كان هناك شيء خطير مفقودا في نظام سياسي يعطي هذه الحرية الكبيرة في اختيار الرئيس، في نهاية القرن العشرين لشخص قد يتولىٰ الرئاسة بين يوم وليلة مثل نائب الرئيس.

قال البعض إن الرئيس سيعيد حساباته في اختيار النائب في انتخابات ١٩٩٢ كما فعل دوايت أيزنهاور عام ١٩٥٦، لكن البديل غير واضح. أما بالنسبة لجيمس بيكر فإن كونه من تكساس يعيق انتخابه في ١٩٩٢، ولعبته السياسية الشخصية تقول إنـه يجب أن يصمد حتىٰ ١٩٩٦ وصورته كوزير خارجية نشيط أفضل من صورته كنائب رئيس لم يفعل شيئاً. ولو شاء القدر أن يجلس كويل علىٰ كرسي الرئاسة قبله فإنه سيتحداه كما نوىٰ كينيدي أن يفعل ذات مرة مع جونسون الذي كان نائباً للرئيس ثم أصبح رئيساً. إن الذين يؤمنون بعهد ريغان ـ بوش يريدون أن يستمر حتىٰ القرن الحادي والعشرين.

لم يتـطرق أحد إلىٰ هذه الأشياء في ربيع ١٩٩١ ثم جاءت «أيام الشعرىٰ» ـ الأيام الحارة من أول تموز إلىٰ أول آب ـ مبكرةً عن موعدها وتسلت وسائل الإعلام بقصة الحاكم السابق «لنيوهامشير» وكبير موظفي البيت الأبيض وقتها والذي اتهم باستخدام وسائل النقل في البيت الأبيض لتنقلاته الخاصة قائلاً إنه كرئيس لموظفي البيت الأبيض في حاجـة إلىٰ استمـرار اتصـالـه الآمن. وتنـافست قصص هذه الحماقات مع أمور جديةً مثل تشرد الأكراد والشيعة، واكتشاف أن صدام قد احتفظ بنوع من القدرات النووية حسب ما يُعتقد، وتزايد الإدراك بأن الهدف الأقليمي وهو تحـرير الكـويت من الـدكتاتور العراقي لم يكن كافياً لجعل العراق يذعن وجعل المنطقة آمنة.

ومهما بلغ القيمة الإخبارية لهذه الأحداث ومهما ظلت حديث الصحافة سواء لأسبوع أو أسبوعين أو أكثر فإنها لم تكن قادرة علىٰ منافسة حدث آخر بدأ تدريجياً يدخل إلىٰ مركز دائرة الاهتمام. فمع ابتعاد غورباتشوف عن خطّه المتصلب وتحقيق يلتسين لانتصـاره الانتخـابي الرائع بدأت المطالب في كل من الولايات المتحدة والـدول الصنـاعية بدعم الاتحـاد السـوفييتي. خصـوصاً تقديم يد العون للرئيس المحـاصر ذي العقل الإصلاحي والذي فعل الكثير لتحرير أوروبا الشرقية، ومن

ضمن المجموعة الأوروبية كانت ألمانيا هي التي كانت تخشىٰ الانفجار الاقتصادي والسياسي السوفييتي أكثر من غيرها وذلك لأن ملايين من سكان الاتحاد سيبحثون عن ملاذ خارج البلاد مما سيولد مشكلات أمام جميع الدول الأوروبية لا يمكن تذليلها، والأكثر تضرراً بالطبع ستكون ألمانيا الجار الأغنىٰ. وبينما كان من المتوقع أن يستهلك التوحد مع ألمانيا الشرقية رأس المال الألماني لمدة طويلة تتجاوز العشرة سنوات فإن ألمانيا كانت أيضاً تنظر إلىٰ عالم القرن الحادي والعشرين. لم تعد ألمانيا تفكر في علاقاتها مع العالم بالأساليب الرومانسية التي اتبعتها في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مثل اتفاق برلين - بغداد، وجهودها العظيمة في إفريقيا المتخلفة، والأكثر خداعاً من ذلك هي تلك العلاقات التي أنشئت في عهد بطرس الأكبر وعددٍ من خلفائه بين برلين وموسكو.

وفي تلك الأثناء في الولايات المتحدة بدأ الذين كانوا يعلقون الآمال الكبيرة علىٰ غورباتشوف وما يمكن أن يفعله كرئيس دولة، بدأوا يشعرون بالقلق حول قدرة نظامه علىٰ الثبات. وكانوا قلقين أيضاً بسبب الفوضىٰ السياسية والاقتصادية التي ستؤدي بالملايين أن يتوجهوا نحو أوروبا الوسطىٰ والغربية، وكانوا قلقين أكثر مما سيحدث لمخزون الاتحاد السوفييتي الهائل من الأسلحة الحرارية - النووية ومن الغموض التي ستتبع ذلك. إن مشكلة «القيادة والسيطرة» علىٰ كومات هائلة من الأسلحة القاتلة - وبغض النظر عن مسألة التعاطف مع غورباتشوف نفسه - استدعت من الولايات المتحدة بذل المزيد من العون له. وعندما حاولت مجموعة من أكاديميي جامعة هارفارد أن تفعل ذلك بعد أن جهزت برنامجاً طموحاً لذلك بالتعاون مع مجموعة صغيرة من الاقتصاديين السوفييتيين ذوي العقول الإصلاحية ولكن إدارة بوش متمثلة في لورنس ايغلبرغر استخفت بالجهد العلمي وازدرت التوسط الأكاديمي في هذا الأمر. ليس غريباً أن تلجأ الحكومة للأكاديميين فقد لجأت الحكومة إلىٰ مجموعة من أكاديميي هارفارد للبحث عن السلام في فيتنام، ولجأ الرئيس جونسون

إلىٰ أكـاديمي آخـر هو هنري كيسنجر الذي يدين له ايغلبرغر بالفضل، ولكن أن يجتهـد مجمـوعـة من الأكـاديميين بأنفسهم وهم لا يفهمون السياسة أو السياسة الجغرافية للمنطقة فهذا شيء آخر.

لم ترحب إدارة بوش بأي تدخل من الخارج، لا من السياسيين أمثال ميتران الـــذي كان يسعىٰ لكي تـتـدخـل فرنسـا والمجمـوعـة الأوروبية في إقنـاع صدام بالمفـاوضـات في الشهـور الأولىٰ لغـزوه الكـويت، ولا من الخبـراء الأكاديميين الأوروبيين والأمريكيين الذين كانوا يعرفون العراق بشكل وثيق ولكنهم لم يستشاروا أبداً والحرب علىٰ الأبواب. أما أقل الجميع إهمالاً فكانوا الأشخاص الذين كانوا يعتقدون أن نوعية معرفتهم ومعلوماتهم هي بديل عن معرفة الإدارة الأمريكية والتي اكتسبتهـا من التحـدث وجهـاً لوجـه مع غوربـاتشـوف واثنين من وزراء الخارجية السـوفييت عبـر نصف عقد من الزمان. ويكمن خلف استبعاد تدخل الأكاديميين ـ والذي لم يكن له نتائج تذكرـ استراتيجية البيت الأبيض السياسية والتي لم يعلق عليها أحد.

كانت إدارة بوش تفتقد سياسةً للتعامل مع الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٩، ولم يكن لديها كذلك في عام ١٩٩٠ ما يطلق عليه اسم سياسة. ومع أنها أدركت مزايا ضعف الاتحاد السوفييتي وأثرها في حرب الخليج فإنها ظلت بدون سياسة واضحة حتىٰ في عام ١٩٩١. يستدعي علم السياسة إخفاء مثل هذه الحقيقة علىٰ جميع الأحوال. كان الاتحاد السوفييتي سيأخذ دوره في النظام العالمي الجديد الذي بدأ الإعـلان عنه وتمثل هذا الدور في أن يكون ثاني اثنين يدعوان إلىٰ مؤتمر السلام الخاص بالشرق الأوسط.

لم يستطع الرئيس منع غورباتشوف من التوجه إلىٰ قمة الدول الصناعية السبع في لنـدن لطلب المسـاعدة ومن لفت نظر الإعلام إليه، لكن الرئيس فعل الكثير ليجعله يغـادر المؤتمـر بخفي حنين. فمع كل الوعود التي أعطيت ومع استغلال

الفرصة للإعلان عن مؤتمر قمة ثنائي سوفييتي ـ أمريكي للتصديق علىٰ معاهدة الأسلحة الاستراتيجية في نهاية الشهر في موسكو بعد تأجيلها لمدة تسع سنوات، ومع كل ذلك فإن المؤتمر لم يكن أكثر من فرصة لالتقاط الصور كما في لندن، والفرق هو أن لندن كانت تضم عشرة أشخاص أما في موسكو فهما فقط العظيمان بوش وغورباتشوف. لقد كان الرئيس يعرف كيف يتعامل مع الشؤون الشخصية ولكن السؤال الكبير هو هل يعرف الرئيس كيف يتعامل مع شؤون البلد الذي يرأسه.

في الحقيقة إن هذا السؤال مفتوح لكن القليل من الناس أثاره الانتصار في الخليج ونجاحه في لندن وفي موسكو وفي أثينا واستانبول، والنجاح الذي حققه كذلك وزير الخارجية في دمشق وعمان. كان الرئيس منطلقاً في علیائه ولم يطرح أحد أية أسئلة محرجة ولم يقدم أحد علىٰ تدمير الأسطورة التي كان يصيغها. كان العالم قد خرج من حرب باردة استمرت أربعة عقود، ومع عدم وجود ضحايا بشرية لها إلا إنها كانت مدمرة تماماً مثل تلك المعارك الضخمة بين عامي ١٩١٤ ـ ١٩١٨ والتي دمرت أوروبا. كان الناس يعتقدون أن الضرر الذي حاق بإمبراطورية الأقمار الصناعية السوفييتية يمكن إصلاحه، ربما ليس فور خروج الناس من الشيوعية وتحولهم إلىٰ اقتصاد السوق بالسرعة الممكنة. ولم يتساءل أحد لماذا تستمر الولايات المتحدة في إظهار علامات الانهيار الاقتصادي والفوضىٰ الاجتماعية مع أنها من كبار الدول وأقدمها في اقتصاد السوق ويحق لها المطالبة ببراءة اختراع هذا النظام؟ فإذا كان هذا النظام الاقتصادي يعمل بشكل جيد فلماذا لم ينجح في الولايات المتحدة بالكفاءة التي نجح بها في ألمانيا واليابان وهما نموذجان حديثان للمجتمعات الصناعية؟ لم يخطر ببال أحد أن يراجع تاريخ القرن التاسع عشر ليجد أن الاشتراكية قد ظهرت في الأصل كرد فعل للعيوب التي تسبب فيها نظام سوق غير منتظم، وكيف أن ذلك الاقتصاد قد حلت محله قيود حكومية أثناء الحرب؟ وكم كانت جهود إحيائه من جديد عام ١٩١٩ بائسة، فقد كانوا يحاولون أن يمسكوا من جديد بعالم قد ضاع.

وكان أول من أعلن عن المصير الفاشل لتلك الجهود هو جون مينارد كينيس في كتابه «النتائج الاقتصادية للسلام». لم يعد بالإمكان إرجاع العالم الرأسمالي كما كان قبل ١٩١٤ فقد حصل الكثير للتسبب في خلق شهيات جديدة ليس فقط للبضائع ولكن أيضاً للحماية الاجتماعية، كان الناس بحاجة إلىٰ الحماية الاجتماعية لأنهم لم يعودوا مستعدين لتحمل تبعات مبدأ إنكار الذات الذي طبقوه علىٰ أنفسهم في القرن التاسع عشر بينما مؤسسات الاقتصاد الحر تعطي المجال أمام نمو صناعي أوروبي (وأمريكي) لم يسبق له مثيل. وفي العقد الأخير من القرن العشرين نجد المجموعة الأوروبية تعيش وهي تعلم تمام العلم أنها مزدهرة اقتصادياً ومسؤولة اجتماعياً علىٰ الأقل أمام مواطنيها. ولو شاء الاتحاد السوفييتي والآخرون المتحررون من الشيوعية حديثا أن يشجعوا الاستثمار الأجنبي ويرفعوا القيود ويحرروا أسواقهم فبإمكانهم أن يجنوا فوائد ديمقراطية نهاية القرن العشرين. وهكذا نجد أن اقتصاد باريس وبرلين وميلان وبروسلز يعرض علىٰ أوروبا الشرقية والوسطىٰ ولا أحد يسأل لماذا تظل الولايات المتحدة متخلفة ولماذا لم تستفد من حكمة أوروبا الغربية وتتبنىٰ أسلوبها.

لم تسأل إدارة بوش نفسها هذه الأسئلة أبداً لأنها ترفض أن تعترف بأن «البلد متخلف». إن نجاح هذه الإدارة قد اعتمد علىٰ أسطورة صدقها الناخبون وهي أن كل شيء في أمريكا يسير علىٰ ما يرام، وأن هذا البلد بقي مُعَلِّم العالم والمثل الذي يحتذىٰ أمام الجميع، أما احتمالية أن تكون أمريكا قد فقدت هذه المزايا وأن القيادة الأمريكية تختلف عما تدعيه عن نفسها فلم تتردد في جنبات البيت الأبيض أو حوله. إن الاعتراف بهذا الفشل كان قد تطلب إعداد جدول أعمال سياسي جديد ومختلف عن الشيء المسمىٰ النظام العالمي الجديد. وكان السؤال الذي سيطرح نفسه بكل براءة هو لماذا تختلف الظروف الاجتماعية والاقتصادية في الولايات المتحدة عنها في كندا المجاورة مثلاً؟ وعنها في ألمانيا واليابان كذلك؟

لقد تعاملت الولايات المتحدة مع «العالم الثالث» داخل حدودها ولم تخرج إليه كما خرجت إليه الدول الأخرىٰ التي لا تعاني مشاكل أمريكا. إن هذه الدول تدرك أن حظها جيد وأنها تمتلك أموالاً فالتزمت بجزء من هذه الأموال إلىٰ الدول الأقل حظاً والتي تقبع بعيداً عنها. كان الأمر سيكون قاسياً إن قيل للدول الغنية الحديثة إنّ استثماراتها في دول العالم الثالث مثيرة للسخرية وسقيمة، وبما أن الفقر والعنف في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وأماكن أخرىٰ ليس سببها قرون الاستعمار الإمبريالي، كما يصر البعض، إذن لن ينفع فيها برامج الأمم المتحدة الإصلاحية أو مشاريع المساعدة التكنولوجية الثنائية المطبقة حسب أساليب الستينات والسبعينات. وكذلك لا يوجد حل لهذه الأمور في العرض، وبكل بساطة، لاقتصاد السوق الحر أو للدواء الذي يعالج جميع الأمراض كالذي قدم للاتحاد السوفييتي ودول شرق أوروبا، تلك الوصفة التي تعود للقرن التاسع عشر والتي تدعي الفعالية العظيمة.

لكن هذه القضايا ظلت أكاديمية وبشكل غريب في سباق تسلسل الأحداث في الاتحاد السوفييتي خلال الأسبوع الذي تلىٰ يوم ١٩ ـ ٨ والذي أثار اهتمام العالم عبر الاثنتين وسبعين ساعة التي تلت الانقلاب الفاشل، لحسن الحظ، ضد ميخائيل غورباتشوف في ذلك اليوم. لقد كان لهذا الحدث من النتائج ما لم يتوقعه البيت الأبيض مطلقاً مثل نجاح يلتسين في القضاء علىٰ الشيوعية في الاتحاد السوفييتي. إن تلك التطورات والتي تنبأ بها قبل سنوات من حدوثها أشخاص في أمريكا وخارجها غير متحيزين لغورباتشوف ولا للأفكار المتحمسة له في واشنطن، كانت تلك التطورات تتطلب إعادة التفكير في السيناريو السوفييتي. كان بوش وبيكر ومن حولهما قد أساؤوا تقدير يلتسين باستمرار وذلك لأقواله بأن البيروسترويكا تحتضر وأن غورباتشوف غير حاسم وأن التزامه بالديمقراطية محدود وهي أشياء لم تلائم هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يعتقدون أنهم يعرفون الرئيس السوفييتي عن قرب.

لم يكن يلتسين الذي كان يراقب غورباتشوف عن قرب معجباً جداً به، وكان

بالاشتراك مع الديمقراطيين الروس غير راضين عن تعيين غورباتشوف لبوريس بوغو كوزير خارجية بعد استقالة شيفرناندزه وكذلك فالنتين بافلوف كرئيس للوزراء وهما شيوعيان، هذا بالإضافة إلىٰ تلميحاته بالعودة إلىٰ الاستبدادية والحكم الاتحادي. وكان البيت الأبيض ينظر إلىٰ هذه التطورات كما كان ينظر إلىٰ التطورات الأهم في الخليج علىٰ أنها غير هامة. وحتىٰ الهجوم السوفييتي علىٰ دول البلطيق فإنه لم يثر إلا اهتماماً ضئيلاً في مجتمع كل تركيزه منصب علىٰ العراق. كان يلتسين يدرك أن المنافسة بينه وبين غورباتشوف لم تكن تشغل رأس الرئيس الأمريكي. كان غورباتشوف هو رجل بوش الثقة المعروف والمكافأ. أما يلتسين فقد كان غريباً يعتقد أنه رجل فوضوي أو أسوأ من ذلك يقود قوىً بدائية غير ناضجة ولا تهم السياسين الأمريكان من قريب أو بعيد لأن عيونهم كانت مسلطة علىٰ الكرملين وليس علىٰ شوارع موسكو.

في تلك الأحداث أظهر الرئيس الأمريكي قدرته السريعة علىٰ تغيير آرائه، فما إن حصل الانقلاب حتىٰ نسي ما كان يعتقده في يلتسين وبدأ ينظر إليه كبطل يعتلي دبابةً علىٰ أبواب بيت موسكو الأبيض. ومرةً أخرىٰ يدعي الرئيس المعرفة اللامحدودة؛ كل شيء كان يسير تماماً كما كان يتمنىٰ ولم يسأله أي صحفي إن كان قد غير آراءه في الاتحاد السوفييتي منذ أن ألقىٰ خطاب التولية عام ١٩٨٩، ولم يسأله أحد إن كان قد عجز عن إدراك عدم قدرة غورباتشوف علىٰ الإبقاء علىٰ الاتحاد السوفييتي وعلىٰ إدخال الديمقراطية هناك. ألم يكن الوقت قد حان ليظهر بوريس يلتسين أمريكي سواءً في الحزب الديمقراطي أو الجمهوري ويسخر من الادعاءات المتواصلة لرجل يفضل أن يتبع الأحداث بدلاً من أن يتوقعها أو يكن له يد في صناعتها؟ كان الرئيس تنقصه استراتيجية سياسية خارجية طويلة الأمد؛ ولم يكن هناك أحد ليقول ذلك بتواضع أو بدقة.

ولتعلق الرئيس بسياسات الوهم ادعىٰ بأن محادثاته التلفونية مع يلتسين كان لها

أثر كبير. أما الحقيقة الهامة فهي إنه لم تكن لديه أدنىٰ فكرة عن التحول الذي أصاب الولايات المتحدة من جراء أربعة قرون من الحرب الباردة فكيف يستطيع أن يعرف كيف يتصرف إزاء وضع جديد يتطلب تخطيطاً طويل الأمد، ولكنه لم يعترف بذلك. لقد أثرت الحرب الباردة برغم نهايتها السعيدة بشكل ضار علىٰ مؤسسات كثيرة بما فيها الرئاسة، ولكن هذه الحقيقة تبدو غريبة أمام رجل يعتقد بأن هذا المنصب لم يتسلمه أحد مثله من قبل، ولم ير مثل هذا الفضل أبداً. أما الحقيقة المهمة الوحيدة التي كان الرئيس يراها فهي أن الولايات المتحدة هي القوة العظمىٰ الوحيدة التي بقيت.

لم تكن قوة الرئيس الرئيسية تكمن في معلوماته النظرية وقدراته التحليلية فهو لم يتعلم علىٰ يد أحد أن هناك ضحايا للمنتصرين وحتىٰ في المعارك التي لا تراق فيها دماء، ولم يكن أحد في البيت الأبيض يتحدث عن فكرة أن الرئاسة نفسها هي ضحية من ضحايا الحرب الباردة. لقد كانت مثل هذه الفكرة مستحيلة وغير منطقية بالنسبة لرجال ليس لديهم أي حس تاريخي ولا أي إدراك فكري للزمن الذي كانت فيه الرئاسة تعني الكرامة والعظمة وهما فضيلتان يحبهما الجمهور ومختلفتان عما كانت عليه الأنظمة الملكية في أوروبا. إن ما سمي بمتطلبات الحرب الباردة قد دمر مزايا أيام جورج واشنطن وجيفرسون وماديسون، وأدىٰ ذلك الصراع مع العدو الذي لا يرحم إلىٰ نتائج معاكسة منحرفة.

وبحجة السرية أبيحت في هذه الحرب «الخدع القذرة»، وفي الأوهام التي تولدت عنها مثل أن الرئيس يملك مصير العالم، وحرّفت الحقيقة بشكل كبير. صحيح طبعاً أن الرئيس وبضغطه علىٰ «أحد الأزرار» يملك قوة كبيرة، ولكن ذلك أدىٰ بمن حوله إلىٰ أن يحولوه إلىٰ معبود لهم يتزلفون إليه آناء الليل وأطراف النهار راضين بأن يكونوا خدمه، وكان لهذا نتائج دستورية أكثر أهمية. أما الإعلام فقد كان يتذبذب ما بين الإعجاب بقوته والاحتقار لهفواته التي كانت فادحة وصارخة لدرجة

لا يمكن السكـوت عنهـا، لقد ساعد ذلك الإعلام في إنشاء نظام سياسي جديد يتمركز فيه كل النفوذ في البيت الأبيض.

لقد أدت تجربة الحرب الباردة إلىٰ استصغار الأمة الأمريكية. وتعاون سياسيو البيت الأبيض والإعـلام علىٰ صنع الأساطير التي صدقها الناس. وتعددت أنواع التملق الذليل الذي كان يمارسه من سمح له بأن يكون من «بطانة الملك» وهو تعبير شائـع في كل الأنـظمـة الملكية المستبـدة ـ وأدىٰ هذا النفاق إلىٰ الحط من قدر المنصب الرئاسي عن طريق المبالغة الزائدة في وصف صلاحياته. ورئيس بمثل هذه المسؤوليات الجسام بحاجة إلىٰ مساعدة وإدارة بالطبع، فكان أن تضخمت أعداد موظفي البيت الأبيض وتغيرت طبيعة مجلس الوزراء وتعددت طبقات البيروقراطية الفيدرالية منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية فكان نتيجة ذلك أن يشجع هؤلاء جميعاً الرئيس في غروره وأوهامه ثم يصدرونها للناس علىٰ أنها سياسات عامة عقلانية.

وكان مما لا مفر منه أن يفقد الكونجرس كثيراً من هيبته. فماذا يمكن أن يفعل هذا المجلس في ظل هذا النظام السياسي الفوضوي؟ كانت سياسات الحرب الباردة تتطلب بعض الاستشارة للكونجرس. ولكن الكونجرس كان يعتبر في نظر الإدارة جسماً غريباً مزعجاً، علىٰ الأقل هذا ما كان يقال عنهم في البيت الأبيض القابع في (١٦٠٠) شارع بنسلفانيا. كان يطلق علىٰ نواب الكونجرس «بهائم التلة "Yahoos on the Hill"» [Yahoos هي بهائم أسطورية لها شكل الإنسان ورذائله]، ورغم أن هذا لم يكن علنياً، إلا أن الفكـرة عن رجـال ونسـاء الكونجرس هي أنهم يحاولون إعاقة السلطة التنفيذية المجدة والمجتهدة بتدخلاتهم السافرة وتحقيقاتهم المستمرة.

طفت علىٰ السطح بعض المجاملات، أما في العمق فلم يكن إلا الاحتقار الذي أخفي بكل مهارة وفن. كان الكونجرس بالنسبة لأولئك الرجال الأغرار الذين اعتلوا سدة الحكم والـذين يعـرفون مكامن القوة والنفوذ ـ كان مجرد مجموعة من مغنيات الأوبـرا البارزات والذي يعتمد عليهم في شيء واحد وهو أن يوافقوا علىٰ

استخدام الأموال العامة في مشاريع مفضلة عند السلطة التنفيذية ويعطونها الشرعية الـدستورية. أما النقاشات والنزاعات البرلمانية فهي مجرد غثاء كغثاء السيل، أما جلسـات الاستمـاع الخـاصة في اللجان فهي أكثر أهمية: فقط إذا ظهرت علىٰ التلفزيون في خبر لا يتجاوز الثلاث دقائق. وحسب هذا التعريف فإن أي شيء لا يظهر علىٰ شاشة التلفزيون فهو غير مهم.

في مثـل هذه الـظروف يصبح الكونجرس محط أنظار الناس كمدينة صغيرة ارتفعت فإذا هي مركز الكون. إن الضرر الذي لحق بالأمة من جراء الحرب الباردة كان ملموساً من قبل الحكومة، ولكنها كانت واضحة للعيان أيضاً في كل مدينة في البلد وكانت أكثر وضوحاً في أحياء السود البائسة التي طالما تمنت أن تكون تلك النتائج غير مرئية. وكان تعيين رجل أو امرأة من الزنوج في منصب ما شيئاً له أهميته، مع حقيقـة أن ذلـك تغير قليلاً بعـد ارتفـاع نسبـة الجـريمة وأصبح الإدمان علىٰ المخدرات عند الكبار والصغار عاراً لحق بالوطن كله. كان نظام العقوبات الجنائية علىٰ وشك الانهيار ولم تعد السجون تتسع للأعداد الهائلة من المساجين ومعظمهم من الـزنـوج الشبـاب، وهو شيء لم يحصل من قبل. وبدأ الخطر يحيق بوسائل المواصلات الوطنية وبالمراكز الصحية، لكن هذه الأمور تعتبر بسيطة بالمقارنة مع الفساد الذي عم مدارس البلد بحيث أصبحت عنيفة وغير آمنة في معظم الأحوال، وحيث أصبحت مجرد أماكن يخزن فيها الأولاد لعدة ساعات محاولين إبقاءهم بعيداً عن مخاطر الشوارع الداخلية.

وكما استخدم نفس مبدأ العقيدة المانوية الذي يقسم العالم إلىٰ خير وشر في تقسيم العـالم إلىٰ إمبـراطـورية الشـر المتمثلة في الاتحاد السوفييتي ودولة الخير والـديمقـراطية عبـر المحيط الأطلسي، استخـدم هذا المبـدأ في تقسيم الشعب الأمـريكي إلىٰ فئتين: الأغلبية المنتجة الفاضلة والأقلية الشريرة الكسولة الطائشة التي تسبب كل المشـاكل. لقد انتهت أساليب النقاشات السياسية القديمة وجاء

الأسلوب الجديد الذي سببه وجود كاميرات التلفزيون؛ يعتمد هذا الأسلوب علىٰ التلميح لا التصريح في الأقوال وخير من يطبقه أولئك الذين يتسلمون زمام الأمة لفترة الأربع سنوات التي تقرر مصير الأمة. وأصبح طابع السياسة هو الميلودراما، أما المرح فقد طرح جانباً. لقد أصبح البيت الأبيض منزلاً للمتقاعدين المرتاحين، وأصبح ساكنه طاغية صغيراً يظهر كأنه هتلر جديد يؤمن بالحرب التي لا هزيمة فيها ويعطيها أهمية عالمية، هذه هي مزايا السياسة الأمريكية الحديثة. نعرف أن هذه التهم خطيرة ولكن ليس هناك من دليل يثبت صحتها سوىٰ إنها حقيقية، وهي تصف بلداً يحكمه من يولي الأهمية العظمىٰ للأحداث الإعلامية وغير القادر علىٰ التعامل مع القضايا الثورية الخطيرة.

كان تشرشل وستالين يتوددون إلىٰ روزفلت لأنه كان مستعداً ليشارك ويحرك ناتج أمة واثقة بنفسها خرجت لتوها من كساد اقتصادي عظيم ولكنها لم تتضرر من الحرب بعد. وعندما أراد روزفلت أن يجند وينشر ويغامر بجنوده وجيوشه وأساطيله طلب من الناس أن يضحوا لأنه كان يدرك أهمية إشراك العامة في مثل هذه القرارات. لم يكن مهتماً بإن يصدر عنهم شعارات وأقوال تعبر عن المشاعر الوطنية رغم أنه لم يكن ضد ذلك. ولم يكن يشك لا هو ولا حلفاؤه بأن الهامش الذي يفصل النصر والهزيمة يعتمد علىٰ مدىٰ التدخل الأمريكي في الحرب، ومدىٰ القبول الذي يلاقيه هذا التدخل من قبل الكونجرس والشعب الأمريكي. كانت الحرب العالمية الثانية خطيرة بسبب كل من شارك فيها وليس بسبب أن قادة الحلفاء قالوا إنها خطيرة.

وخلال السنين الأولىٰ للحرب الباردة خاض ترومان وأيزنهاور مغامرات أخرىٰ مليئة بالنتائج بالنسبة للعالم الذي كان يرىٰ في أمريكا دولة تواجه قوة تملك الأسلحة الذرية ومتفوقة بقواتها الأرضية وأسلحتها التقليدية. وكان الذين يقفون بجانب الولايات المتحدة يعرفون المغامرة والأخطار المقبلين عليها. كانت احتمالية سوء فهم في أحد الأطراف يؤدي إلىٰ مأساة واردة جداً وكانت الدراما الحقيقية هي طابع

تلك الأحداث التي لم تكن مفصّلة للبث التلفزيوني، كان كل من ريغان وبوش ـ المجبران على التعامل مع أحداث أقل أهمية ـ يواجهان أعداءً عسكريين ليسوا قادرين على التحدي بكل حسم، لكنهما لم يكونا يفهمان التحديات الحقيقية لزمانهما في داخل الوطن وخارجه، ففي أول عهد ريغان بدأت المشاكل الاقتصادية في الاتحاد السوفييتي تتضح وتنمو بشكل ملحوظ. كان كل من ريغان وبوش مسرورين بازدياد الضعف السوفييتي ولكنهما لم يكونا قادرين على استغلال هذه الفرصة غير المتوقعة لصالح الشعب الأمريكي، ولصالح إنشاء نظام عالمي غير ملزم باستخدام السلاح وحساس أكثر لقضايا الدول والمساواة.

كان ريغان وبوش تنقصهما خبرة وذكاء وأخلاق آخر رئيس جمهوري عظيم وهو دوايت أيزنهاور، ولم تكن لأيهما القدرة على التخطيط والتكهن بالأحداث، ولم يكن أي منهما يعرف أهمية تحريك الأمة لتخرج بمبادرات رئيسية في السياسة الخارجية. لم يكن أي منهما ذا استراتيجية بل كانا ذوا تكتيكات لا يهمهما إلا نفساهما. وعندما تحدث أيزنهاور في خطابه الوداعي عن إنشاء «مجمع صناعات عسكرية» ـ وهو مصطلح استخدمه عبر التلفزيون كثيراً ـ ذكر أيضاً مخاطر أخرى وتمنى على الأمة أن توليها الأهمية. توقع أيزنهاور أن تطول المواجهة مع الاتحاد السوفييتي لعدة عقود، ولكنه تحدث عن مخاطر الحرب لأنه كان يعرفها تماماً، وأكد على ضرورة تجديد الجهود لعمل وقف للتسلح. كل هذه أمور يجب أن يعرفها أي رجل عسكري.

والأهم من ذلك بالتأكيد هو تعليقات أيزنهاور على المخابرات ـ ليست المخابرات بصورة العمليات السرية الخاصة بالمخابرات المركزية "CIA"، بل بالنوع الذي لا تستغني أي أمة عنه. ووصف في حديثه الجامعات الأمريكية على أنها «رأس النبع الذي تنصب فيه الأفكار الحرة والاكتشافات العلمية»، وحتى لا تكون كلماته مجرد مدح رئاسي عادي للتعليم العالي فقد أضاف تحذيراً خاصاً منبهاً الأمة

إلىٰ الوضع الجديد الذي تولد من الحرب الباردة. كان يعلم أهمية الجامعات والتعليم وليس كلاماً فقط وكان قلقاً من أن تصبح الجامعات خدماً للعسكريين. لم يكن مهتماً بأن يرىٰ الهبات الحكومية المعنوية للعلماء «بديلاً للرغبة العلمية الحقيقية في البحث». ورغم قصر تجربته كرئيس لجامعة كولومبيا إلا إنه تعلم منها ومن خبرته العسكرية والسياسية أهمية توقع المشاكل وإقحام الشعب في حلها.

إن مثل هذا التفهم غير موجود الآن رغم أن الرئيس لا يدفع ثمناً سياسياً مقابل برائته، ومع ذلك فمن المتوقع أن يدفع هو أو من يخلفه مع الحزب الجمهوري ذلك الثمن قريباً. عندما ألف جون مينارد كينيس كتاب «النتائج الاقتصادية للسلام» أُعجب البعض من جرأته في السخرية من قادة الحلفاء واصفاً إياهم بطيور الطاووس التي تتباهىٰ هنا وهناك بمجد صنعه غيره بعد أن قدموا أرواحهم بسبب مشكوك فيه. كان قادة مثل وودرو ويلسون وديفيد لويد جورج وجورجزكليمنسو في أيام كينيس قادةً لا يقهرون بعد أن خرجوا منتصرين من معركة رهيبة ومكلفة. وكان الشيء البدهي في ذلك الوقت أنهم سيربحون معركة السلام أيضاً، أما كينيس فلم يصدق ذلك أبداً. وبدأت نجومهم بالأفول بعد أن كتب كينيس ما كتب ولكن ليس لقوة كلماته بل لقد خسر الحلفاء السلام لأنهم لم يدركوا طبيعة العالم الذي خلفته حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨. إن نفس هذا المصير ينتظر قادة أمريكا الحاليين ليس بسبب ما فعلوه في الخليج أو ما فشلوا فيه بعد طرد قوات صدام، بل لأنهم لم يقدروا علىٰ فهم العالم الذي ورثوه. لقد أصبح ريغان الآن جزءً من الماضي وسيلحق به بوش.

إن الأمريكي الوحيد الذي يعتمد عليه في المرحلة المقبلة ليقود أمريكا في هذا العالم الجديد الذي يتشكل، إنه القادر علىٰ تحريك الأمة لتواجه مشاكلها الداخلية وأن تراها علىٰ حقيقتها وتفهم ضرورة إيجاد حلول لها. إن هذا العالم الجديد ولعدة اعتبارات نسخة أخرىٰ من عالم الولايات المتحدة الخاص بها بنفس مشاكلها العظيمة. إن ذلك الشخص المحترم للدستور والقابل بتوزيع المسؤوليات بشكل

واضح هو الذي يستطيع أن يخرج بالأمة من سباتها وبلادتها الحالية. ولم تتوفر فرصة مثل هذه منذ ١٩٤٥ أو حتىٰ منذ بداية القرن لعمل ذلك الشيء. لقد انتهت الحرب الباردة ليس بسبب ما فعلته الولايات المتحدة، وها هو عصر جديد يفتح أبوابه منذراً بالثورية والفوضىٰ والخطر. وفي هذه الظروف يجب أن يشاركِ المجتمع في التصدي مليئاً بالإيمان بالمستقبل وقادراً علىٰ تصور الحياة ما بعد عام ٢٠٠٠. إن الأساطير والحكايات التي تروي حول العظمة الذاتية لم تعد تفيد في ظرف يتطلب الصراحة والذكاء ويتطلب حسن الرؤية وقوة البصيرة وحسن الأخلاق.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

حرب السيد بوش

4

الأهلية للنشر والتوزيع